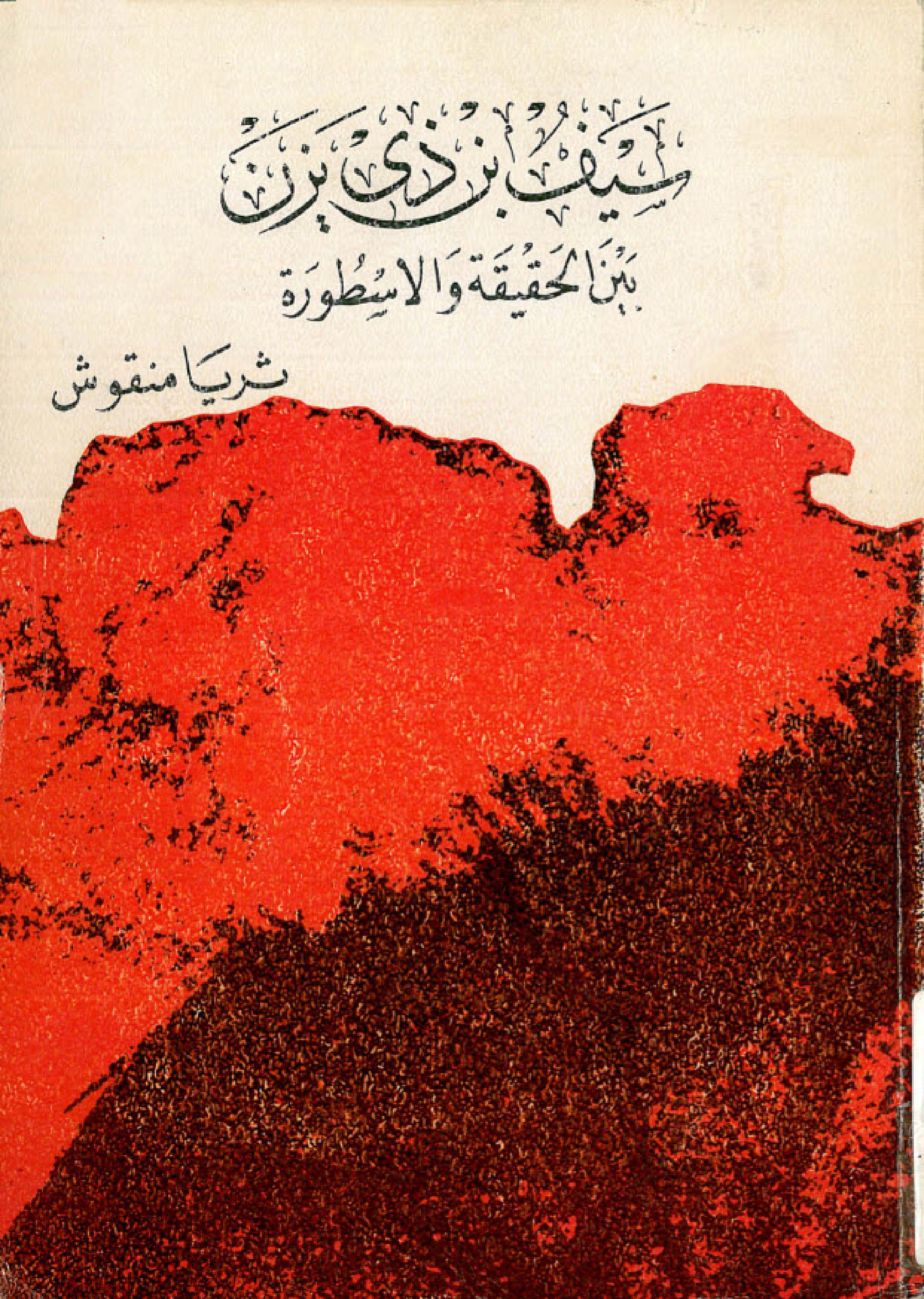

سيف بن ذي يزن
بين الحقيقة والاسطورة
ثريا منقوش

سيف بن ذي يزن

١٩٨٠



بين الحقيقة والاسطورة

ثريا منقوش

توطئة

يشتمل هذا الكتاب على القضية اليزنية بشقيها الحقيقي التاريخي ، والاسطوري الروائي • وقد قمنا بعملية الفصل بين الجانبين الحقيقي والاسطوري لينهي الالتباس القائم في أذهان الكثيرين ، والمازج بين الجانبين حتى بديا ـ كما لو انهما كل في واحد ، فتلبس سيف الحقيقة لبوسا اسطورية ، وتداخلت ملامح سيف الاسطورة بسيف الحقيقة والتاريخ ، ومن أجل ذلك فصلنا بين الشخصيتين ، وتناولنا في البداية سيف الحقيقة والتاريخ بالتحليل المسهب ، ومناقشة الاراء التي قيلت حوله كشخصية واقعية ثم حوله كشخصية وطنية ، وحول حركته ومقارعته للاحتلال الحبشي لليمن • ولقد اعتمدنا في ذلك على المنطق التحليلي الواقعي لنسد الفراغ وجوانب النقص الكبيرة التي تركها الرواة والمؤرخون شاغرة بعد ان عجزوا بذهنيتهم الميتافيزيقية من القيام بهذه المهمة الشاقة فكريا ، وقد اجتهدنا قدر الامكان في ذلك لنرسم اولا صورة تقريبية للواقع السياسي في تلك الفترة حتى تبسط وتسهل لنا عملية الفهم الواقعي المنطقي لحركة « سيف » • ولقد ناقشنا الاراء التي اختلفت وتباينت حول حقيقة رحلته الى الجزيرة العربية والشام ثم الى الحيرة وفارس ، وانا لا نرجو من ذلك سوى انصاف سيف وحركته الوطنية وعدم تحميلها فوق ما تحتمل سلبا او ايجابا • انصافا لذلك التاريخ اليمني ، ولدور اليمنيين ومشاركتهم في صنع أول تجربة تحررية وطنية في التاريخ العربي بصورة عامة ، وحين انتهينا من مهمتنا في تحليل واعادة تركيب الواقع التاريخي ، ووضع حركة سيف ضمن اطارها ، وفي سياقها

التاريخي فاصلين بذلك بين الواقع والاسطورة تناولنا سيف في سيرته الشعبية ، وضمن اطاره الاسطوري • وفي هذا الاطار قمنا بشرح الواقع الموضوعي الذي أفرز الاسطورة بعد ان تدرجنا فيه زمنيا منذ بداية تكون الجوانب الاسطورية لشخصية سيف التاريخية ، وحتى تلاشي صورة سيف الحقيقية ، وما حل محلها من صور اسطورية وحوادث خرافية لم تبق لنا غير الاسماء فقط ، وحتى الاسماء التاريخية ، فقد زاوجت بينها زمنيا بفعل الضرورة التي أوصلت الى ابرام ذاك العقد بين شخصيات متباعدة زمنيا ، وتباعد بينها أجيال وأجيال وقرون ومراحل •

ولقد تناولنا الجانب الاسطوري في الشخصية اليزنية ، وقمنا بتحليل الاراء التي قيلت فيها للوصول الى فهم مادي للاسطورة ، محاولين قدر الامكان تجنب الاسهابات الرومانتيكية اللاموضوعية ، حتى لا نقع في نفس خطأ المحللين للاسطورة من الرومانتيكيين • والبعيدين عن الموقف المحدد الواضح الرؤيا والمعالم • لقد استنبطنا من آرائهم ، ومن الواقع الموضوعي المحلل تحليلا ماديا موضوعيا حقيقة نشوء الاسطورة ، والدوافع التي دفعت الى روايتها في السيرة الشعبية وبقائها حية ومتداولة فترة طويلة من الزمن ، وخرجنا باستنتاج مفاده ، ان السيرة رويت في فترة مبكرة فرضتها الظروف الموضوعية ، ثم ما حدث لها من رواية وتداول ثم انكماش واختباء ، حتى استكملت صورتها بالسيرة التي بين أيدينا ، والتي تمت اعادة صياغتها في القرن الثامن للهجرة على عهد المماليك • وفي فترة الانحطاط التاريخية التي عاشتها المنطقة العربية • وحين وصل بنا المطاف اليها بالتماس المباشر معها ، قمنا بطرح وجهة نظرنا حول تحديد الجهة التي وضعت خطوطها العامة ، وحددت الاطار الاساسي الذي اندرجت فيه وتحته تفاصيل السيرة ، رافضين بذلك الرأي القائل بأنها شعبية الهدف والتفاصيل ، مقدرين بفهم موضوعي مشاركة واسهامات السلطة في اخضاعها لاهدافها السياسية ، ولا يعني ذلك استبعادنا للمجهودات الشعبية المجهولة وانما

القصد هو ايضاح مساهمة ومشاركة الطرفين كل حسب وضعه وامكاناته ، ومكانته السياسية والاجتماعية ، حيث تمثل الاولى أي السلطة البنى الفوقية ، ولذلك في يدها زمام المبادرة ، بينما الاخيرة مستجيبة للاولى ومؤثرة فيها . وتصورنا الاهداف التي وضعت من أجلها السيرة ، والتي حملتها معها وفي طياتها مشاركة من الطرفين السلطوي والجماهيري . رافضين في ذلك شل فعاليات واسهامات طرف ، وتحميلها طرف اخر على حساب الطرف المقابل له .

لقد رفضنا في تحليلنا للقضية اليزنية عملية التبسيط والتسطيح والايجاز ، منطلقين من مفاهيم نؤمن بها ، لما للتراث من أهمية قصوى تستدعي الوقوف أمامه طويلا وتقييم ما نرغب في استلهامه لحياتنا المعاصرة التواقة الى التغيير والثورة والبناء . ويأتي عملنا هذا ضمن اعمالنا التاريخية التراثية التي بدأناها في كتابنا الاول « التوحيد في تطوره التاريخي » « التوحيد يمان » . تدفعنا الى ذلك الرغبة ، والحرص الشديد على ضرورة اعادة النظر في التاريخ القديم لتقييمه ووضعه في اطاره الحقيقي ، ثم ضمن سياقه التراثي من أجل الثورة ، وبذلك يتواصل التراث العربي والثورة العربية المرتقبة والمأمول فيها .

الباب الأول

الصراع الدولي في الشرق القديم

قبل ان ندخل في البحث عن حقيقة الحركة اليزنية ، لا بد لنا من الوقوف امام الاحداث التاريخية الدولية في تلك الفترة ، لتساعدنا في القاء الضوء على الحركة والظروف التي احاطت بها ، ولنتمكن من الحكم عليها فيما بعد حكما موضوعيا غير مشوه ، كما حدث عند الكثيرين ممن جازفوا بآرائهم حول الحركة وحملوها فوق ما تحتمل سلبا أو ايجابا .

ان ضرورة العمل على استقصاء وتحليل الحركة السياسية الدولية تبدو الان ملحة أكثر من أي وقت مضى لا لمعرفة الظروف الموضوعية التي احاطت بالحركة فحسب ، بل لاستكشاف التفاعلات الداخلية في الصراع الدولي في امتداده الزمني عبر العصور الوسطية ، وحتى يومنا هذا ، والى المستقبل بأبعاده القريبة والبعيدة .

متى بدأ الصراع الدولي وما هي حقيقته ؟

يصعب علينا ان نحدد تاريخ بدايات الصراع الدولي على مناطق النفوذ وبالاخص في منطقة الشرق الاوسط . الا اننا نستطيع ان نقول ان ذلك قد حدث مع النقلة التاريخية للنشاط الانساني ، وخاصة في جوانبه الاقتصادية ، وتحدد ذلك في المرحلة التي أصطلح على تسميتها « بالعبودية » وبعد ان

تمكنت دول الحضارة القديمة من اقامة حكم مركزي صارم وشديد ادى الى التوسع مكانيا ، فبدأ بناء الامبراطوريات الكبيرة ، والتي كانت تتسع ، أما على حساب اراضي لدويلات وممالك متاخمة ، او أطراف دولة او امبراطورية اخرى كبيرة محاذية •

وبعد بناء الاساطيل البحرية سواء الحربية منها او التجارية ، واعتماد البحر الى جانب البر طريق مواصلات عسكري وتجاري ، والى جانب ذلك فان تطور الحياة وازدياد متطلبات التجارة وحاجتها للمواد الخام ، ومع تزايد الطلبات للمواد المستهلكة للاغراض الدينية •

لكل ذلك ولغيرها من الاسباب خرجت الامبراطوريات العظمى من حدودها القومية والجغرافية ، تبحث لها عن اسواق للتجارة ومناطق للنفوذ ، وعند هذه النقطة تضاربت المصالح ، فتقابلت الجيوش في سلسلة صراعات وحروب مدمرة لم تقف ، بل ظلت متواصلة ومستمرة •

شهد القرن الثالث للميلاد عظمة ومحنة روما وميلاد فارس الساسانية ، والتي ما ان قويت وتصلب عرشها الساساني ، حتى بادر مؤسسها « اردشير » بمناهضة روما ، وافتتح بذلك سلسلة الصراعات الدولية بين القوتين الاعظم في تلك الحقبة ، • وكانت أرمينيا محور الصراع في بداياته باعتبارها منطقة حدود متنازع عليها بين الامبراطوريتين ، واستطاعت الامبراطورية الفتية ان توجه ضربات موجعة لروما ، وان تسحب من تحت يدها أرمينيا ، وتخرجها من دائرة النفوذ الروماني ، وقد ساعدها في تحقيق طموحاتها تلك ظروف روما الداخلية ، ولم تقف أطماع الفرس التوسعية عند ذلك الحد ، بل امتدت الى اجزاء اخرى من مناطق النفوذ الروماني في الشرق • فتوجهوا الى الارض السورية ناقلين بحركتهم حلبة الصراع الدولي الى الشرق العربي ، واختلف الهدف هذه المرة ، او بتعبير أدق بتطور الامبراطورية الساسانية ، فقد استهدفت سوريا لموقعها الاستراتيجي العسكري والتجاري ، حيث كانت مدنها الساحلية منافذ مشرفة على الجانب الشرقي لحوض البحر الابيض

المتوسط • الا ان صديق روما السوري حاكم « تدمر » « اذينة » استطاع ان يردهم على اعقابهم ويحمي بذلك سوريا ومصر ويحفظ بذلك العلاقات التقليدية مع روما ، والتي تحدتها زوجته الملكة « زنوبيا » حين اعتلت العرش السوري ، وفاجأت الاوضاع السياسية الدولية على الاخص الرومانية بقرارها التاريخي بالاستقلال عن الامبراطورية ، وكان على روما ان تقوم في سوريا بمهمتين :اعادة سوريا الى حظيرة الامبراطورية من جهة ، ومن جهة اخرى رد هجمات الفرس المتكررة على الممالك والامارات الشرقية التابعة للامبراطورية وعلى وجه الخصوص سوريا • وحين تقهقر الفرس الى الوراء سحبوا معهم في أواخر القرن الثالث الصراع الدولي الى العراق •

وفي القرن الرابع عادت الاراضي الارمينية من جديد الى حلبة الصراع الدولي بين فارس وروما • وسعت كل منهما الى وضع يدها عليها وتجريد الاخرى من أي حق في ارمينيا • فتمكن سابور الثاني امبراطور فارس ٣٢٦م ، من وضع يده عليها ، اثر الصراع الديني بين المعتنقين الجدد للمسيحية من أهل ارمينيا ، وبين المتمسكين بالديانة القومية • وقد استنجد الفريق الاول بالامبراطور « قسطنطينيوس » والتجأت الجماعة الثانية لسابور الفارسي ، الا ان سابور تمكن منها فانضوت بذلك تحت العرش الساساني وبقيت كذلك أكثر من قرن • ونقلت فارس المعركة بعد ذلك الى بلاد ما بين النهرين ودفعت فارس كما دفعت روما اصدقاء من القبائل العربية البدوية في حرب عصابات داخل اراضي الاخر • وتمكنت القبائل الموالية لفارس من نشر الدمار والخراب في ممتلكات الامبراطورية الرومانية ، داخل الارض السورية وبلاد ما بين النهرين • وعلى الرغم من خفة حدة التوتر بين روما وفارس حول ارمينيا بعد ان وقعت في يد الفرس ، الا ان تلك الحدة المستديمة بين الامبراطوريتين قد عادت في القرن الخامس اقوى ما تكون عليه بسبب استعادة روما لمجدها العسكري في آسيا الصغرى • ولم يهدأ الصراع

السياسي والعسكري الا بعقد معاهدة سلام مدتها ستون عاما ، اقتضت ابرامها الظروف الصعبة لكلتا الدولتين العظميين • فقد انهكت فارس في دفاعات مستمية عن ولاياتها الشرقية المهددة من قبل الهياطلة ، أما روما فقد ذهبت تقاتل في أكثر من جبهة قوية ، مع الوندال المنقضين عليها من نهر الدانوب الاوسط ، والقوطيين الغربيين الزاحفين من بلاد البلقان ، والقبائل الجرمانية من ناحية البحر • وفي الهدنة ذهب كل طرف يستعد لحرب طويلة الامد ضد الطرف الاخر ، وما ان أطل القرن السادس للميلاد حتى تجددت الحرب بين الامبراطوريتين فقد ارادت فارس تسديد ضربة قوية ضد الروم في الشمال ، وذهبت انطاكية ضحية تلك الصفعة المفاجئة والتي لم تكن روما على عهد جستنيان مستعدة لها •• وقد عمل جستنيان بعدها بكل قدراته على أستكمال استعداداته العسكرية ليدخل بعدها مع الفرس في حروب طويلة استمرت عدة سنوات • ورأى كسرى في خطته العسكرية الهجومية ضرورة تهديد القسطنطينية نفسها فأنزل لذلك اسطولا كبيرا في البحر الاسود ، ثم تبين له استحالة الحصول على نصر عسكري ، بل والاكثر من ذلك فقد يؤدي ذلك الى فقدان جيشه كله ، فعاد وأبرم صلح عام ٥٣٢م •

عقد كسرى صلحه على أساس الاستمرار في المهادنة والتعايش سلميا مع روما التي رغبت هي الاخرى في مثل ذلك التعايش ، خاصة بعد ان اقتنع جستنيان بعدم جدوى الحروب في الشرق لقناعاته بأن سكانها سيظلون في عداء دائم له • من هنا جاءت سياسته الجديدة بعدم التدخل المباشر في شؤونه • أما قناعات كسرى بضرورة عقد ذاك الصلح فقد جاءت نتيجة رغبته في الاحتفاظ بقوة فارس للبناء الداخلي والذي تحمل لنا الوقائع التاريخية صورة له •

ونصت بنود الصلح على :ـ

١ ـ عقد صلح وتحالف دائم •

٢ ـ وهناك نقطة تفصيلية تتعلق « بدارا » حلها كسرى مع روما بأن ابقاها

كما كانت عليه حصنا للروم مقابل دفع أحد عشر ألف رطل من الذهب حوله لصيانة القلاع المقابلة لها من حيث الاهمية وهي « قلاع القوقاز » •

التزم الفرس تحت القيادة الجديدة بشروط الاتفاق • الا ان الروم أخلوا به • وحولوا استفزازاتهم هذه المرة الى افريقيا وايطاليا ، وأمام هذا التحدي والاخلال بشروط الاتفاق وجد كسرى نفسه يشن حربا تأديبية بين ٥٣٢ ـ ٥٣٩م •

وتابعت روما سلسلة استفزازاتها في تقديرات منها خاطئة ، وقامت بغزو سوريا كمدخل لاحتلال اراضي الرافدين ، وتهديد اطراف الامبراطورية الكسروية ورد انوشروان الصفعة لروما متجنبا قدر الامكان المواجهة المباشرة فأمد « لازيكا » (كلوخس القديمة) بمساعدة كبيرة للتخلص من النير الروماني ، واعتمد بذلك سياسة جديدة في صراعه مع روما ، اي في الصراع الدولي ، وهي الابتعاد عن المواجهة بقدر الامكان ، وتقوية الاصدقاء والموالين • ومن وحي هذه السياسة الجديدة عقدت فارس هدنة اخرى مع روما بشروط صلح جديدة • الا ان جستين خليفة جستنيان عاد فنقضها سنة ٥٧٢م واعاد القتال الى ساحة الشرق الاوسط •

العلاقات اليمنية الحبشية :

يقول انجلز : « لست على علم وطيد وبينة من أمر التأريخ التجاري لفترة القرون الستة الاولى بعد ميلاد المسيح حتى أجزم بحكم على الاحوال العالمية اذ ذاك ولا سيما من الناحية المادية ، والتي أدت الى ان يفضل نقل التجارة الى الخط الذي يمر من فارس حتى البحر الاسود ، وخط الخليج الفارسي « العربي » الى سوريا وحتى آسيا الصغرى • نعم ان يفضلوا ذينك الخطين على خط البحر الاحمر ، ولكن على أية حال فالامن الذي كانت تنعم به القوافل في مسيرتها وتنقلها عبر الامبراطورية السامانية الفارسية المستتبة الاوضاع حينئذ كان هذا ذا أثر فعال على تحقيق ذلك خاصة وان في تلك

الفترة بين عام ٢٠٠م وعام ٦٠٠م كان الاحباش يعيشون فسادا في اليمن ، اذ ان اجزاء منها كانت تخضع لهم مباشرة بينما كانت الاخرى عرضة لغزوها ، وغيرها للنهب »(*) .

تلح علينا القضايا التاريخية التي نحن بصددها بالوقوف امام الاحداث التاريخية السياسية المؤثرة في مجريات الامور انذاك وتتطلب معرفة الاحداث العودة بالتاريخ الى الوراء قليلا لنتعرف على التراكم الذي أدى الى النكبات الجسيمة لشعوب المنطقة ، وبالذات الشعب اليمني ، واوقعه في منعطفات تاريخية حادة الزوايا ، ونقاط تحول نقلت الواقع السياسي والاجتماعي من طور الى طور مختلف ومتباين مع الحالة القبلية في اليمن .

بدأت تلك التراكمات منذ تعرض اليمن في أواخر القرن الاول للميلاد وبدايات الثاني منه لتدخلات افريقية ، بعد فشل الحملة الرومانية الاولى في القرن الاول قبل الميلاد ، والتي قادها « أوليوس غالوس » في عهد الامبراطور « اغسطس » . واستطاع القادمون من افريقيا الشرقية ان يضعوا ايديهم على مواضع هامة وحساسة في السواحل الجنوبية والغربية ، فاستولوا في القرن الثاني للميلاد على الارضين المسماة بـ Kinaidokolpitae كما وردت في جغرافية بطليموس . وجاء في الكتابات الحبشية ان ملك « اكسوم » ارسل بقوات برية وبحرية الى السواحل المقابلة لساحل مملكته ، واستطاعت تلك القوات ان تتغلب على ملوك المنطقة الساحلية المعروفة بـ « ارحب » Kinaidokolpitae وكان من نتائج ذاك النصر وتلك الهزيمة ، دفع الجزية من القبائل اليمنية المهزومة بالرغم منها لملك أكسوم .

ان وحدة المصالح وتناقضها لشعوب المنطقة الساحلية للبحر الاحمر ، هو الذي جعل فترات الحروب تتعادل مع أزمنة السلم ، فما ان تشب حرب حتى يتبعها صلح وسلم على المستوى السلطوي ، وتداخل وتمازج بين شعوب المنطقتين المتقابلتين . وحفظت النقوش واقع تلك الاحوال ، فأشار النص

(*) من الرسائل المتبادلة بين ماركس وانجلز نشرتها الحكمة اليمنية سنة ١٩٧٢ .

الموسوم بـ954 + ClH 314 الى وجود جماعات من الاحباش في السواحل اليمنية • ويعثر ركمنز على مجموعة نقوش رقمها Ryckmans من بينها نقش مرقم بـ Ryckmans 435 يتحدث نصه عن حرب شنها هذه المرة الملك السبئي « اليشرح يحصب » على « احزب جبشت » و « ذي سهرتن » و « شمر ذي ريدان » • ولم يتحدث النص المترجم عن تلك المعركة ، التي وقعت بين سبأ والاحباش من جهة ، وسبأ وذي ريدان اليمنية من جهة اخرى • أما اصطفيان البيزنطي فقد تحدث في كتاباته عن الحاق حضرموت بمملكة اكسوم ، وتبع تلك الحروب عقد صلح بين الملك السبئي « علهان نهفان » وملك أكسوم ، جنت اليمن والحبشة منه تحسنا في علاقاتهما السياسية ببعض ، تبعه انتعاش اقتصادي للمنطقتين الساحليتين • وفي محاولاتنا للوقوف على الاحداث نذكر حرب الملك السبئي « شعراوتر » ضد الاحباش والتي نشبت اثر محاولته اخراج الاحباش المستوطنين من اليمن • وقعت تلك الاحداث بحسب تقديرات العلماء في القرن الثاني للميلاد ، أما القرن الثالث فقد حمل لنا بدوره مع قدومه حوادث سياسية وعسكرية بين الطرفين المتصارعين المتعايشين معا • فقد أقدم الملك الحبشي « عذبة » على انزال قواته في الارض اليمنية مدعوما هذه المرة بقوة ونفوذ الرومان القادم من أوروبا الى البحر الاحمر ، يحملون معهم اطماعهم في المنطقة • والجدير بالذكر ان الاحتواء الروماني للحبشة قد اشعل المنطقة بسلسلة حروب خلقت الدمار والخراب لشعوبها ، وقد عانى منها الشعب اليمني الكثير ، فراح يعبيء كل طاقاته البشرية والحضارية لردع العدوان ومحاصرة الخراب •

دخلت الى المنطقة عوامل جديدة ساعدت على ايجاد شرخ عميق في العلاقات الحبشية اليمنية ، ولم تدخل المنطقة في حسبانها مدى تأثير مثل تلك العوامل على سير علاقاتها وشعوبها ببعض ، ولقد فرضت تلك العوامل حين تنصر الملك الحبشي « عيزانا »(*) على يد المبشر « فرومشيوسي » المرسل من قبل

(*) تختلف الروايات التاريخية حول الشخصية الملكية الحبشية التي اعتنقت المسيحية وادخلتها الى الحبشة •

الملك البيزنطي « قسطنطين » ففرض الدين المسيحي على الاحباش ، وأصبح دين الدولة الرسمي ، في وقت بقيت فيه المنطقة المحاذية على دين الوثنية مع وجود جماعات يهودية • كما بدا ذلك ظاهريا • أما بمنطق الوقائع التاريخية والمفاهيم المنطقية فقد وجدت العوامل الاخرى المتمثلة في الاطماع التوسعية الاستعمارية بكل ما يتدرج تحتها من قضايا ، في الدين مبررا للتدخل في شؤون المنطقة ، وتحقيق تلك الاطماع •

حركت العوامل الجديدة الملك المتنصر متخذا منها هو وحليفته بيزنطا دافعا ومبررا للتدخل والاستيلاء على المدخل الشرقي للبحر الاحمر • ففرض نفسه ، بعد أن تناول صك غفران عمله من بيزنطا وكنيستها ، ملكا على حمير وريدان وسبأ وسلحن • وتلقب وهو الفائز برضاء ملك بيزنطا بـ « ملك أكسوم وحمير وريدان وسبأ وسلحن » وبارك الملك تسميته بـ « ملك الملوك » •

سببت تلك العوامل حدة في الصراع ، وقبضت اكسوم على زمام المبادرة في المنطقة • فكثفت تحركاتها العسكرية مقنعة او مقتنعة بضرورة تنصير الشعب اليمني مدركة أو غير مدركة ، أن محاولات التغيير تلك تأتي مستجيبة للعمق الاستراتيجي لبيزنطا في الشرق في محاولة لاخضاع شعوب بأسرها لسيطرتها وابتزاز خيراتها • ونشطت اكسوم ومليكها في تنفيذ المهمة الموكلة اليها ، فأنشأت الكنائس في طول الارض اليمنية وعرضها ، حتى وصلت على امتداد الشريط الساحلي الى رأس الخليج ، وصار رئيس أساقفة « كنيسة ظفار » مشرفا على الكنائس المسيحية بما فيها « كنيسة نجران » المشهورة تاريخيا •

بعد أن فرض هذا العامل تأثيراته على شعوب المنطقة في علاقاتها ببعض على المستوى الخارجي ، عكس نفسه على الاوضاع الداخلية ، ضمن اطار العلاقات الاجتماعية • فانقسم الشعب اليمني في عقائده وولاءاته الدينية التي حددت فيما بعد ولاءاته السياسية ، فأضحت الجماعات المرتبطة بالكنيسة

مرتبطة بولائها ، ومواقفها السياسية بالاحباش وتولدت بين الجماعات اليمنية المختلفة عقائديا ، مماحكات دينية واجتماعية ، كانت لها ردود افعال سياسية واسعة النطاق سنأتي على ذكرها مع استطرادنا التاريخي للاحداث والوقائع في اليمن ، وبين اليمن والحبشة . وتأثرت تلك المماحكات من حيث شدتها وخفتها بحجم التدخلات الخارجية ، فضاقت واتسعت ثم انفجرت في محرقة ذي نواس اليهودي لاهل نجران النصارى . وتقول الروايات التاريخية أنه ذهب ضحيتها قرابة عشرين الف مسيحي ، ولا نستبعد المبالغة في تحديد عدد ضحايا الحادث ، وعلى كل فقد تركت تلك المقتلة الاهلية بصماتها في النفسية اليمنية العربية ، وحفظتها لنا المدونات التأريخية ومنها القرآن بمشاعر متعاطفة مع الضحايا من ناحية انسانية ودينية . فالنصارى هم أهل كتاب وهم أقرب بالمفاهيم العامة الانسانية الى روح الاسلام جاءت السورة القرآنية المخصصة للمقتلة ، مستنكرة ضمنيا للحادث « قتل اصحاب الاخدود ، النار ذات الوقود ، اذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ، وما نقموا منهم الا ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد » . رغم محاولات التشديد التي اتبعت لاجتثاث الدين المسيحي من الارض اليمنية ، وقبل ان يعرف الجيران بالحادث فيهرعوا للنجدة والتدخل . فقد تمكن شخص يطلق عليه الرواة « دوس ثعلبان » وقيل « جبار » ، من الافلات من المحرقة واتجه صوب الحبشة ليتصل بملكها ويبلغه بما حل بأتباع الكنيسة البيزنطية .

استغل الحادث من قبل الحبشة وبيزنطا ، وبولغ في تقديرات ضحاياه ليصبح للتدخل الخارجي ما يبرره ويأتي المحتلون كما قد يبدو بدوافع انسانية ودينية ، لتختفي وراءهما حقيقة الاهداف والرغبات والدوافع الاستعمارية لبيزنطا المنفذة عبر الحبشة .

وتتحرك الجارة الكبرى بايعاز من بيزنطا لتجهيز حملة تأديبية كان الحدث الديني سببها الرئيسي ، وهناك سبب اخر يميل بعض المؤرخين الى اعتماده اساسا للتدخل الحبشي البيزنطي في اليمن ، او بالاصح المبرر الذي

اعطى ضوءا اخضر للحليفين العدوين لليمن ولملكه « دميانوس » • ويأتي السبب في رواية تاريخية مفاده ان الملك الحميري « دميون » « دميانوس » امر بقتل جماعة من التجار الروم الذين كانوا يتاجرون ويتحركون داخل المدن اليمنية التجارية ، بعد ان صادر اموالهم ، وترجع هذه الرواية الدوافع التي حملت ملك اليمن على الاتيان بتلك الفعلة المنعكسة شرطيا بردة فعل اصابته اي دميانوس الحميري اليهودي الى الرد على روما الشرقية بعنف نتيجة مواقفها وتصرفاتها العدائية ضد يهود مستعمراتها • وكأن دميانوس أراد ان يثبت بذلك صحة يهوديته من جهة ، وانتصابه مدافعا عنهم في وجه أي عدوان ، ولو كان من بيزنطا العظمى نفسها من جهة اخرى • وكان من نتائج المدافعة والمواجهة مصادرة أموال التجار الروم وتقتيلهم ، وقد تجنب بقية التجار الذهاب الى اليمن والمناطق القريبة ، خوفا على انفسهم من نفس المصير • فأصيبت المنطقة بكساد تجاري وتضررت الحبشة منه ، وحاول ملك أكسوم حل الازمة فأرسل الى الملك الحميري يعرض عليه عروضه فلم يوفق • فجهز حملته الكبيرة للاحتلال •

وتعتمد الآراء على الحادث الاول كدافع للحملة ، كما تعتمد اخرى على الدافع الثاني • وأيا كانت المثيرات والدوافع المباشرة للحملة ، مع اعتماد الحادثين كدافع مباشر لتجهيزها ، وتأديب اليمنيين بها • الا ان الحملة قد اخفت بمظهرها الخارجي التأديبي حقيقة النوايا والاهداف الحقيقية ، من وراء الحملة العدوانية حتى يومنا هذا • ولو قدر للاحباش ان يستمروا طويلا في احتلالهم للارض اليمنية ، لاتضحت اهداف بيزنطا بشكل مكشوف ، ولتغير مسار الاحداث التاريخية في جنوب الجزيرة ووسطها • الا ان النفس القصير للمحتل في حركته العدوانية ، والاستعمارية المبطنة بمسوح دينية لم تأت بالثمار الحقيقية لها ، على الرغم من ضخامة الحملة ، حيث تذكر كتب التاريخ ، آخذين بعين الاعتبار المبالغات الروائية في التقديرات العديدة

لجيش الحملة ، ان النجاشي ملك الحبشة قام بتجهيز سبعين الف جندي ، وليكن نصف هذا العدد الا ان ضخامة الحملة ما زالت كبيرة خاصة وهي تحدث تحت مظلة رومانية ،فقد حملتهم سفن بيزنطا ،وحملوا معهم على ظهورهم وظهرها عتاداً وعدة بيزنطية ، وجيشاً بتلك الكثافة ، وعلى تلك الصورة يحصر امكانيات الشك في مقاصده واهدافه التوسعية ، والتي لم تبرز بصورة باينة للعيان نتيجة قصر عمر احتلالها للارض اليمنية ولظروفها التي أحاطت بوجودها في الساحة ، منها مشاكلها وأزماتها الذاتية كاصطدامها وتمردها على السلطة المركزية في الحبشة ، وخلافات زعاماتها العسكرية ، أرياط ضد أبرهة ، وأبرهة يصفي أرياط جسديا وعسكريا ، ثم أبرهة يخرج على النجاشي ومعلنا نفسه ملكا مستقلا ، ثم الصدام الدموي المستمر مع اليمنيين ، ومشاكل اليمنيين مع بعضهم المؤيد والتابع ، ثم المضاد والمقاوم . وتنائج تلك الخلافات على المحتل وزعاماته العسكرية المتواجدة في المنطقة اليمنية ، وفوق هذا وذاك ، وغيرها من المشاكل والصعوبات ، الحملة الفاشلة على الجزيرة العربية ، والتي سنأتي على ذكرها .

كل تلك المعوقات المذكورة آنفا ، قد ساعدت على اخفاء النوايا الحقيقية للحملة ، او بتعبير ادق لم تتح لاصحاب تلك الحملة الحقيقيين ، المختفين وراء الجدار الافريقي المتسترين بستار حبشي ، ان يجنوا الثمار الحقيقية للحملة . ان ضخامة الحملة مع ما سبقها من حملات رومانية مباشرة في القرن الاول قبل الميلاد ، واعادة تكرارها في الرابع منه تجعلنا نجزم واثقين انها لم تعد لتأديب الملك اليمني ذي نواس على حملته الدينية اللا انسانية ضد نصارى نجران اليمنيين فحسب ، وانما كانت هناك اهداف تسعى روما لتحقيقها بادوات بشرية من المنطقة ، ولا يمكن ان تتم الا باحتلال اليمن باسره ، وادخاله ضمن مناطق النفوذ البيزنطية واخضاعه لسيطرتها بصورة غير مباشرة . ولم تكن حملة ذي نواس الدينية الا مبررا للتدخل والاحتلال ، ولنا في احداث الحاضر صور ناطقة وحية عن الحملات الكبرى والضخمة في التاريخ ،

والتي تبرزها الآراء الساذجة والسطحية بصورة ساذجة سطحية آخذة ما يقال عن الدوافع الظاهرية لتلك الحملات كمسلمات بديهية رغم ضآلة الحادث وضحالة الدافع لهذه الحملة او تلك • ولا نريد ان نستطرد في شروحات تاريخية لكثير من الوقائع والاحداث في الحملات الكبيرة والضخمة فذلك يحتاج الى كتب ومؤلفات موسوعية •

اعطت حادثة الاخدود النجرانية الضوء الاخضر لبيزنطيا ان تتحرك بقوى من منطقة الصراع نفسه ، فتحركت الجيوش الحبشية لتحقيق طموحات حكامها ، واطماع ملكها الشخصية الذاتية ، ولتنفيذ رغبات بيزنطيا وتحقيق اهدافها فما هي حقيقة دوافع واهداف بيزنطا ؟؟

اهداف بيزنطا ودوافعها :

لقد التزمنا بمنهج يخالف اسلوب التفكير الستاتيكي السكوني (الميتافيزيقي) ، الذي اتبع حتى الان في قضايا التاريخ ، ولم يستطع الاجابة على الاسئلة التي بدأت ملحة ضرورية لمعرفة ابعاد الاحداث التاريخية المرئية والمقروئة في كتب التاريخ • لقد استطعنا بهذا المنهج بعد ان استعنا به في دراستنا للتاريخ ان نبين حقيقة اهداف بيزنطيا ورغباتها الكامنة وراء الغزو والاحتلال الحبشي لليمن ، وسندخل اليه عبر التطرق بالشرح للاهداف الاقتصادية لروما باعتبارها اكثر الاهداف تأثيرا في سير الاحداث التاريخية الدولية ، والسعي لتحقيق الاهداف الاقتصادية ، هو الذي حرك الجيوش والاساطيل من منطقة الى اخرى ، ومن قارة الى الثانية ، على الرغم من التضحيات الجسيمة التي كانت تتحملها شعوب وامم ، ليس فقط المعتدى عليها ، وانما كذلك المعتدين الا ان تحقيق المصالح الاقتصادية والوصول الى الاهداف المخطط لها سواء للشعب او الامة الطامحة او حتى للطبقة العليا فيها ، وفي أضيق دائرة لملكها ، قد جعلها تتحمل عذابات الحروب ، بل وتجد في التضحيات شعورا بالراحة خاصة اذا استطاعت الوصول الى الغايات •

وحين لم تستطع روما بحملتيها السابقتين الوصول الى هدفها وهو السيطرة على الممرات التجارية الدولية كهدف استراتيجي اقتصادي وقدمت فيهما جيوشا جرارة تاهت فوق الارض اليمنية الوعرة ، وفتكت بها الامراض والتهمت أمواج البحار ، بعضا منها ، دفعت بالحبشة ، بعد ان نصرت ملكها ، ووجدت عن طريقه موطيء قدم لها في المنطقة يتحمل نيابة عنها كل التضحيات البشرية وتحقق بواسطته احلامها القديمة ، وهي السيطرة على همزة الوصل الاستراتيجية التجارية بين الشرق والغرب ، حين كانت هي الهمزة ، وطوع الشعب الحبشي تطويعا تعسفيا وزج به في اقتتال مع جيرانه وأهله ، لما بين الشعبين من صلات دم وقربى ، لتجنى روما الثمار ، وتعيش في نشوة النصر بلا تضحيات .

عاش عالم الامس كعالم اليوم في دوامة الصراع السياسي بخلفياته ودوافعه واهدافه . ولقد قدمنا نبذة عن ذلك الصراع الدولي كمقدمة للتطرق لصراع الدولتين الاعظم فارس وبيزنطا في الجزيرة العربية وجنوبها . حيث عملت كل منهما على كسب القبائل العربية . فتقسمت أي القبائل بين الدولتين . أما شعب جنوب الجزيرة ، وكان قد عرف الحضارة ، وعاش فترات ازدهار وتمدن صنعها بنفسه اعتمادا على قدراته البشرية الذاتية وهبات ارضه الطبيعية بمواقعها وخيراتها ، فقد كان لا بد ان يتعرض لغزو واحتلال خارجي ، لقد كان واقع الحال في ظروف الكيانات الوطنية القائمة كدول مستقلة ان تمتد اليها يد أحدى الدولتين ، اما بالصداقة العسفية او بالتبعية الجبرية بالغزو والاحتلال لتدخل ضمن مناطق النفوذ السياسي . وتحركت بيزنطا لتدفع هذه المرة بالحبشة لتحقيق اهدافها السياسية في الجزيرة العربية ، مستفيدة من دروس الماضي في صراعها الدولي ، متجنبة الصدام المباشر والمواجهة مع فارس ، خاصة بعد توقيع معاهدات الصلح السابق ذكرها ولتملأ بالجنوب الثغرة من خط دفاعها الاول المتقدم ضد فارس ، وأرادت ان تحقق أهدافها التوسعية بأداة من المنطقة ، وتم لها ذلك . ولا زال ذاك الاسلوب يمارس حتى يومنا هذا .

اخضعت الحبشة انذاك الجارة اليمن لحساب بيزنطا بعد ان تحركت جحافلها سنة ٥٢٥م الى اليمن ودخلته عنوة • فأتت على كل شيء فيه بالتثليث حسب اوامر الملك الحبشي « ايلا اشيحا » فاذا بقائد جند الاحباش « ارياط السفاح » يقسم الرجال والنساء والاموال اثلاثا ، فيقتل ثلث الرجال ، ويسبي ثلث النساء والذراري ، ويسطو على ثلث الاموال والممتلكات ، ويدمر ويخرب ثلث الوطن اليمني في زمن كان يشكو فيه اليمن من هموم ومشاكل داخلية حادة ومعقدة • وجاءت النتائج العسكرية لذاك الغزو كما اراد لها الاحباش ، وكما خططوا من حيث التدمير والابادة • فقد حملت لنا النقوش المحفورة على ظهر صخور « حصن غراب » والموسومة بـ Rep Epigr 2633 قصة الغزو الحبشي ، ودخوله ارض حمير ، وقتله لملكها ولاقيالها الحميريين والارحبيين ، من اجل تحقيق اهداف بيزنطا العظمى في صراعها الدولي مع فارس • ولا بد من ادخال اليمن ضمن دائرة النفوذ البيزنطي وقبل ان يميل اليمن الى فارس فيضرب الاهداف البيزنطية في الصميم •

لا شك ان للعامل الديني دوره في تحريك الاحداث والاندفاع بالجيوش عبر القارات في تلك الفترة الزمنية بصرف النظر عن الغايات والاهداف التي تكمن خلفه ، والتي قد يشعر بها المندفعون صوب الهدف الديني الكائن انذاك كهدف استراتيجي ، خاصة بعد ظهور « الاديان السماوية » الا ان عامل الدين يبقى من العوامل الهامة في الاندفاعات العسكرية ، وقد حرك الدين بيزنطيا فأدخلته عبر التبشير الى افريقيا ثم استمرت تتابع سير حركته ونشاطه لتجني نتائج الحركة • ودفعها الدين غيرة عليه ــ لتحريض الاحباش ومساعدتهم في الحملة التبشيرية التأديبية المظهر ، عاملة في تلك المرحلة بالذات على تثبيت وجود له فوق الارض اليمنية ، مخططة معها لتحقيق الطموحات والاهداف الاقتصادية والسياسية التي ذكرناها •

دفعت بيزنطا الاحباش فاندفعوا للاحتلال ، ثم راحوا بعد تثبيت احتلالهم عسكريا ، يعملون على تثبيته عقائديا ، ليسهل تثبيت الحبشة وبيزنطا

سياسيا ، فيجنوا من وراء تلك العملية الطويلة غاياتهم الاقتصادية الملحة ، والحياتية ، ونشروا من أجل ذلك الكنائس ، ولا نستبعد دعم بيزنطا لذلك وان لم يكن بصورة مباشرة فمن خلال تأهيل الكنائس ، الدينية والدعم المالي لمشاريع بناء الكنائس ، والتي ستساعد كلها على التنصر فيتحقق الهدف الديني في ادخال المسيحية الى أرض اليمن بعد ان حوصرت واجتثت في محرقة نجران • وبه تتغلغل هيمنة بيزنطا وسطوتها الروحية باعتبارها راعية المسيحية الكبرى •

كان العامل الديني في الاحتلال الحبشي لليمن وسيلة ، كما كان مبررا ودافعا ، فله ظاهريا تحركت الجيوش ، وبه كوسيلة اريد تحقيق الاهداف الاخرى السياسية والعسكرية ، كما شكل هو بحد ذاته غاية سعت بيزنطا والحبشة لتحقيقها ، هذا على مستوى الغايات الموضوعية لبيزنطا • اما الغايات الشخصية والرغبات والطموحات الذاتية لحكام بيزنطا فاننا نرغب ان نلفت النظر اليها حتى تكتمل دوافع الغزو والاحتلال الحبشي البيزنطي لليمن •

الطموحات الذاتية لاباطرة بيزنطا والحبشة :

في ذاك القرن عاشت روما مشاكل داخلية كثيرة ولا نريد هنا ان ندخل في التفاصيل ، الا اننا سنكتفي بالاشارة الى واقع الحال في روما الشرقية في عهد جستنيان ، فقد تمرد عليه الجيش لاسباب داخلية منها : رفضه لاحكام الامبراطور الجائرة ضد المسجونين واستفحال ذاك الامر حتى لم يعد من الممكن الاعتماد سوى على الكتائب الاجنبية لفقدان روح الثقة بين الطرفين ، وتفاقمت نتائج التمرد حتى وصلت الى وضع خطة ترمي الى خلع جستنيان من الحكم وتعيين امبراطور آخر بدلا منه ، الا ان الموالين له في الجيش حملوا على العامة حملة واحدة وقتلوا كما تقول كتب التاريخ اكثر من ثلاثين ألف رجل • وتتيجة لصرفيات جستنيان الباهظة في المباني العامة فقد اصيبت ميزانية الامبراطورية بافلاس فقد كان من كبار البناة في العالم ، وقد استنزف جهده واستنزف موارد الامبراطورية • وعلى المستوى

الثقافي فقد شهد عصره جدبا في العطاء الفكري والثقافي ، ومات الابداع والتجديد وانتعش التقليد والمحاكاة ودفنت الفلسفة ، وعلى ذمة كتب التاريخ ، فقد وجه جستنيان ضربة قاضية الى التعليم بعد أن عطل باسم المسيحية مدارس أثينا(*) .

وتدهورت الحياة الاجتماعية وكان تأثير ذلك الانهيار على المرأة كبيرا فقد حرمت من التعليم الذي كانت تتلقاه سابقا كما فرض عليها الزواج المبكر وبعض الاعراف والتقاليد المتعنتة . وفي أيامه صالت وجالت الزندقة والزنادقة ، وتمردوا على الدين وأحكامه نتيجة الضعف الذي شمل السلطة . كما انتشرت الافكار الاسطورية التي وجدت الساحة منبسطة امامها بعد انهيار العقلانية ممثلة بالفلسفة اليونانية وتحطمها الكلي . لهذه الاسباب مجتمعة اراد جستنيان ان يعوض تلك الانهيارات بانتصار خارجي ولو عن طريق حليفته الحبشة بعد ان عجز هو عن تحقيقه مباشرة وهو يقابل فارس . وجاءت طموحاته الذاتية لتجد متنفسا لها في الخارج بعد ان انهارت طموحاته وهيبته في الداخل . كان ذلك ليصب في نهاية المطاف لاخراج روما الشرقية من ضائقتها المالية التي تسبب هو في خلقها ، وقد حاول ايجاد مصادر مالية تعاونه على حل الأزمة الاقتصادية ومن ثم الاجتماعية والسياسية للواقع والنظام .

هذا على مستوى اهداف اباطرة الدولة العظمى والتي ارادوا ان يجنوا ثمارها من وراء الغزو والاحتلال الحبشي فما هي حقيقة أهداف المحتل الحبشي ؟؟

ان جوار الشعوب والدول لبعضها يولد بينها مزيجا من العلاقات الطيبة والسيئة القائمة على المصلحة المشتركة في انسجامها وتضادها ، وعادة ما يؤدي الانسجام الى التداخل الطوعي فيما بينها لتحقيق المصالح القومية

(*) السير جون . ا . هامرتن ، تاريخ العالم م ٤ ص ٣٢٨ مكتبة النهضة المصرية . د . ت .

الكبرى لشعوبها ، الا ان الصورة تنعكس تماما في حالة تناقض المصالح وتضادها لسبب من الاسباب عام أو خاص على المستوى القومي ، كأن تتنازع الشعوب على ارض مهمة استراتيجيا او اقتصاديا ، أو بهما معا . وقد يكون لسبب خاص يعشعش في رأس الملك او الرئيس ، وفي هذه الحالة قد تبلغ التناقضات حد العنف والدموية في الصراع ، وغالبا ما يكون كذلك ، وهو ما حدث في الغزو والاحتلال الحبشي لليمن . فقد أرادت أكسوم بعد ان جردت السيف على الجارة اليمن ان تضع حدا للكساد التجاري الذي أصيبت به المداخل الشرقية والغربية للبحر الاحمر ، متصورة ان وراء ذلك تعمد اليمن وملكها لاتخاذ ما وقع للتجار حجة ووسيلة وكان الكساد التجاري قد وقع بسبب ذلك الحادث مجردا من علائقه السياسية والاجتماعية في اليمن وهي التي شكلت في مجموعها الانهيار الكامل لاقتصادياته ، ثم تأثير ذلك الانهيار على الموانىء التجارية المجاورة واصابتها بالكساد . وكان ذلك الحادث من الوسائل التي نجح بها الحكام المعتدون لتبرير عدوانهم امام جماهيرهم غير المتحمسة له في واقع الامر للعلاقات التاريخية والعرقية التي تربطها باليمن وشعبه . وكل ذلك لاخفاء النوايا الحقيقية للحكام وعلى رأسهم الملك « ايلا اشيحا » وليتستر على الهدف والغاية الحقيقية المبيتة في نفسه والتي لم تخرج عن حدود الدوائر الشخصية له فقد ولد تأليه الشعب الحبشي له ـ بصرف النظر عن العوامل التي ولدت شعور القدسيةعند الجماهير الشعبية له ـ في نفسه شعور العظمة . وجاء احتلاله لليمن تحقيقا لشرعية الكلمة في أرض أبويه « سليمان وبلقيس » ووراثة ملكهما . ثم لتعميم معتقداته الدينية وتنصير اليمن وبذلك تتسع رقعة نفوذه السياسي والديني ، وتتحقق الطموحات الذاتية في الشهرة والعظمة والمجد في أكبر دائرة ممكنة وعلى أوسع نطاق . وقد لقب بعد الانتصار بـ « ملك اكسوم وحمير وريدان وسبأ وسلحين » . وهو في ذلك كله لا ينسى تحقيق اهداف روما العظمى وأباطرتها الكبار ، وبذلك تم التوحد بين اهدافه الذاتية وغاياته وطموحاته الشخصية ، وبين أهداف روما وطموحات أباطرتها . مخرجا كل ذلك

ببرواز المصلحة العامة للشعب الحبشي • وباختصار شديد فمجموع تلك العوامل والاهداف المتشابكة المتداخلة المترابطة هي المحرك الديناميكي للغزو والاحتلال الحبشي لليمن • فهل وجدت الطريق الى التطبيق العملي على أرض الواقع في اليمن ومن هو المستفيد الحقيقي من الحملة ؟؟

الحملة على اليمن :

دخل الاحباش اليمن وعملوا ما عملوه من تدمير وتقتيل للشعب اليمني ، فماذا كان مصير «ذو نواس» أو «دميانوس» وهو الذي تحركت الحملة بحجة تأديبه على فعلتيه السابقتين ؟ وتختلف الروايات في تقدير المصير الذي لقيه والكيفية التي تمت فيها مواجهته للمصير • فهل قرر مصيره بنفسه وكيف كان ذلك ؟

يقول الرأي الاول وهو الذي يلتقي حوله كثير من المؤرخين والرواة العرب وهو ان الملك الحميري قد لقى مصيره غرقا ، ويتعاطف اصحاب هذا الرأي وهم في جملتهم من العرب مع الملك اليمني لذلك جعلوا نهايته بيده • فهو الذي سار الى البحر راكبا فرسه بعد ان أحس بالهزيمة واضعا بيده حدا لحياته قبل ان تصل اليه يد الاحباش فتسيره ذليلا مهانا مقيدا بالاصفاد الثقيلة مطأطأ الرأس مهيض الجناح بعد أن كان في حياته متحديا للحبشة ولروما وحاول اصحاب هذا الرأي اظهار « ذي نواس » كرمز لبطولة وانفة يمنية ترفض الاذلال وتفضل الموت عليه • فشرف الامة يمثله قائدها او زعيمها ، لقد أراد ذو نواس ان يبقى ، وهو المهزوم عسكريا ، في ذاكرة الجماعة وفي شعورها القومي الجمعي بطلا عملاقا يحمل آلام امته بنفسه • كما أراد ان يطهر بانتحاره الارادي ادران هزيمته ويستنهض امته مجددا ، ومثل ذو نواس كل ذلك فأضحى في نظر شعبه بطلا خالدا استلهمت منه فيما بعد مواقفها الصلبة ، لان دماء زعيمها الحارة بقيت تضيء الطريق امامها لتتلمس المخرج للثورة والانتصار •

تأتي روايات الاغريق والاحباش على عكس الروايات اليمنية والعربية لتضع نهاية ذي نواس على أيديهم ، وتتأثر بها بعض الآراء العربية والاجنبية كفون كريمر الذي اعتمد في حكمه على مصـــرع ذي نواس بيد الاحباش على بيت شعر يزعم رواة هذا الرأي نسبته الى الشاعر المخضرم « علقمة ذي جدن » يقول البيت :

او ما سمعت بقتل حمير يوسفا   اكل الثعالب لحمه لم يقبر(*) •

وهناك رأي ينتزع من هذا البيت صورة اخرى مغايرة تماما فيزعـم وقوع ذي نواس في الاسر وسقوطه مجندلا تحت سنابك خيول الاحباش ثم مقتله بتلك الصورة المأساوية البشعة واكل الثعالب لـه ، ولا ندري كيـف استنتجت صورة كاملة من بيت شعر هو بحد ذاته محل شك كبير في قائله الحقيقي وحقيقة نسبته الى علقمة ، والهدف من روايته الى ما هناك من اسئلة مثيرة للشك • ولو سلمنا مع اصحاب هذا الرأي بوقوع ذي نواس أسيراً فهل سيبقى التسليم تسليما دون ان تثار امامه مجموعة من الاسئلة والاستفسارات هي بمثابة قنابل موقوتة ، فلو وقع ذو نواس اسيرا فلماذا لم تسجل النقوش الحبشية مثل تلك الواقعة المهمة في تاريخ توسعاتهم ؟

ان سقوط ذي نواس في الاسر وهو الخصم العنيد والمتحدي المتكبر سيعرضه حتما لعقوبات حاقدة ، بعرضه في طرقات اليمن او الحبشة وامتثاله امام الملك الحبشي خاضعا ذليلا ثم اصدار الحكم بالموت بطريقة بشعة وبعد التحقير والتعريض ليصبح عظة وعبرة لمن توسوس لـه نفســه من اليمنيين التمرد على حكم الاحباش ، خاصة وانهم جاءوا تحت ستار حملة تأديبية لذي نواس • كل ذلك كان من المفترض ان يظهر في الكتابات الحبشية واليمنية التي تشير الى مقتله كما يذكر نقش حصن غراب الموسوم ب **Rep Epigr 2633** وهو يذكر ان الاحباش فتحوا ارض حمير وقتلوا ملكها واقياله الحميريين

(*) الدكتور جواد علي المفصل في تاريخ العرب قبـل الاســلام ج ٣ ص ٤٧٢ بـيروت سنة ٦٩ •

والارحبيين ، ويسجل النص السنة التي وقعت فيها الحوادث بـ ٦٤٠ حميري أي ٥٢٥ ميلادي • وعليه فان الاقرب الى منطق الاحداث في تلك الفترة هو الموت فهل كان بصورة موت ارادي اي الانتحار غرقا او سقوطا في المعركة ؟؟

ان اعتماد احدى الصورتين بعد ان استبعدنا وقوعه في الاسر يتوقف على موقف المؤرخ وثقافته وافكاره وأهدافه ، والقضية هذه لا تقبل النقاش المنطقي على الرغم من امكانية تسخير مجموعة من الاحداث والمعلومات التاريخية لاثبات صحة هذا الرأي او ذاك ، ولذا فاننا نميل الى ترجيح الرأي الاول هادفين اظهار الصورة المشرقة في التاريخ اليمني ولو ترسمت في صورة الموت الانتحاري •

مات ذو نواس وفرض الاحباش استعمارهم على اليمن ، وفرضوا معه عملاءهم من الاقيال والاذواء جاءوا بالسميفع اشوع كما يذكر النص المرقوم ب CIH 621 على رأس قائمة من سادات القبائل ذي جدن ، كلاع ، ذي يزن •• الخ •

ونصب السميفع اسميا كملك رسمي تابع للاحباش على سبأ وحكم القادة العسكريين للجيش الحبشي من ورائه وقد تصدر للامور والاحداث السياسية في اليمن فاصطدم مع الاقيال ، وتعرض بعد فترة وجيزة من حكمه الاسمي لتمرد اطاح به • فتلقف الاوضاع قائد الاحباش ابرهة الاشرم ، وحولها لصالحه فاضطر ملك الحبشة للاعتراف به ملكا على اليمن وأقره عليه • ثبت أبرهة السلطة وازاح منافسيه العسكريين فاستتبت له الامور وقوي نفوذه وسلطانه فرفض وصاية ملك أكسوم ، وأعلن نفسه ملكا على سبأ وذي ريدان وحضرموت واعرابها في النجاد وفي تهامة كما جاء في نص آخر •

لقد ظهرت لنا سابقا الاهداف والنوايا التي حركت الحملة والبواعث المباشرة للحركة ، وبعد ان ثبت الحكم الحبشي نفسه في اليمن وكشف ابرهة عن حقيقة نواياه المتستر عليها فترة التهيئة والاحتلال فهل بيت مسبقا

في نفسه شيئا ؟؟ ام استطاع ان ينتهز الظروف المستجدة والتي كانت مواتية لطموحاته ليخرجها الى الواقع السياسي المعاش انذاك ، فسارع بحركة باغت فيها الجميع ، واعلن الاستقلال الذاتي عن الحكم المركزي في الحبشة خاصة بعد وفاة صاحب الحملة ايلا اشيحا والذي لم يحقق سوى جزء من اهدافه وهو العدوان والاحتلال وحال موته دون الوصول الى الاهداف الاخرى الآخذة التشعب والتعدد الى اخرى مغايرة •

رفض ابرهة التبعية للملك الجديد رمخرزبيمان ، وامتنع عن دفع الجزية اليه ، وأعلن نفسه ملكا على اليمن غير تابع لملك اكسوم مستغلا بذلك مجموع الظروف المحيطة بالعرش الحبشي ، ومن ناحية اخرى ظروف اليمن واوضاعه المتهرئة الساقطة نهائيا في يديه •

وفي زحمة الاحداث وفي خضم الاهداف الجديدة التي نشأت في الساحة اليمنية ماتت الاهداف الحقيقية للحملة ولم تشهد النور فقد حشرت في حشرجة الملك « ايلا اشيحا » ، وبعد روما ، وطموحات ابرهة الاشرم •

حكم ابرهة اليمن بعد ان قطف الثمار اكثر من أربعة عقود من الزمن شهدت فيها المنطقة حركات تمرد وثورات من اقيال اليمن خاصة اولئك الذين امنوا باليهودية كما يشهد على ذلك نص ابرهة نفسه • وكان من اعنف الحركات التمردية ثورة القيل « يزيد بن كبشة » نائب أبرهة على قبيلتي « كدت » و « دا » وشكل بعد المسافة الفاصلة بين الدولة المركزية في صنعاء ومناطق القبيلتين اغراءا حقيقيا للمتمردين وجوا مناسبا للتمرد ، فاعلن العصيان ثم انضم الى اقيال سبأ وسحرن واشتعل فتيل الثورة وانتشر فشمل حريب وحضرموت وذي جدن ، واحس ابرهة بخطورة الحركة الموجهة ضد وجوده في أرض اليمن فغضب لذلك كثيرا وأرسل اليهم حملة تأديبية تحت قيادة

« جراح ذو زبنور » وقد باءت بالفشل ، فحشد بعدها قوات كبيرة وبقي ينتظر مرعوبا من النتيجة الاولى ، خائفا على النتيجة الثانية للحملة الكبيرة المرسلة سنة ٥٤٢ بقيادة « وطاح » و « عوده » وبشر بنتائج دعمت طموحاته بعد ان استسلم قادة الحركة وعلى رأسهم « يزيد بن كبشة » .

استقرت الاوضاع في اليمن قليلا بعد فشل الحركة وخطت طموحات ابرهة خطوة متقدمة الى الامام فاهتم بالزراعة وقام بترميم سد مأرب كما يحكي نصه الشهير المدون في احتفالات انتهاء الترميم ، وقد دون في النص وصول وفود كثيرة من مختلف انحاء العالم الى اليمن . وكان من بين الوفود وفد فارس وقد أرادت ان تدلو بدلوها عند ابرهة وقد أغراها بذلك تمرد ابرهة على سلطان الحبشة واستقلاله باليمن والذي يعني كذلك ابتعادا عن بيزنطا ونفوذها . ووجدت الفرصة مناسبة فأرسلت وفدا اليه كما اوعزت لحلفائها بارسال مهنئين مشاركين لابرهة ، فوصل وفد ملك الحيرة المنذر ووفد الحارث بن جبلة ، وكان ذلك بداية تقرب بين فارس واليمن جاءت في عهد أبرهة وفي ظروف سياسية دولية مضطربة .

قوى الصراع الدولي حكم ابرهة في اليمن فقد اصبح في يده مفتاح البحر الاحمر والمحيط الهندي فاضحى سيد الموقف على المستوى الدولي ففي يده منع استنفراد قوة من القوتين الاعظم السيطرة على منافذ التجارة الدولية لذلك سعت كل منهما لكسبه الى صفها ولتقليص نفوذ الاخرى في المنطقة . خلقت العلاقة الجديدة بين بيزنطا واليمن الاشرمية الظروف الجديدة المغايرة لظروف الحملة فقد اصبح ابرهة وجودا قائما بذاته غير تابع للحبشة يشعر بقوته الداخلية والخارجية التي خلقتها الظروف الدولية الملائمة .

تحول الصراع الدولي بعد اندفاع الاحباش الى اليمن الى جنوب الجزيرة وجاءت الظروف الجديدة باعلان ابرهة نفسه ملكا مستقلا لتضييع الفرصة الذهبية من روما في وقوع المنطقة نهائيا في يدها ، وعلى اثر ما طرأ من بـرود في العلاقات الاشرمية الرومانيـة بعد تمرد ابرهة على ملك الحبشـة الجديد « رمخرزبيمان » احست روما ان الظروف الجديدة لم تعـد في مصلحتها ، وان عليها اعادة النظر في سياستها وعلاقاتها مع كل من الحبشة وأبرهة الاشرم في اليمن قبل ان تغير فارس سياسيا على اليمن فالتنطع على هامش الاحداث سيفقد روما زمام المبادرة ويسحب الحصيرة من تحت قدميها ، وليس امامها سوى كسر الجمود في العلاقات ، وانتهاج سياسة جديدة برؤيا شمولية تدخل في حساباتها كل القوى في المنطقة ولو صغرت ما دام في ذلك قطع الطريق امام فارس كي لا تتسلل من خلال الفتور السياسي بين الطرفين الحليفين سياسيا وعقائديا ، خاصة وان الصراع السياسي بين القوتين الاعظم اكتسب خصائص جديدة بعد ابرام اتفاقيات الصلح بين كسرى ملك فارس وجستنيان امبراطور روما الشرقية واصبح الصراع الدولي يطبخ على نار خفيفة دون ان يحـرق مشعليـه .

نفوذ وطموحات بيزنطة في اليمن والجزيرة العربية :

رأى الروم فيسياساتهم الجديدة ضرورة التعامل المباشرمع ابرهة بعد ان اعلن نفسه ملكا على اليمن وتحكم لوحده في المنطقة وفي سبيل الحفاظ على الهدف الاستراتيجي لروما في المنطقة وادخال اليمن ضمن دائـرة النفـوذ الاستعماري للامبراطورية لم تكن روما ترغب في ان تخسر اليمن فعلى الرغم من تمرد أبرهة على الاصدقاء العتيقين للامبراطورية في الحبشة الا ان ذلك لا يعني الصدود والمجافاة فالمصلحة تستدعي تجنب ذلك وتخطي الجمـود

وتجاوز الفتور الاني • ولا شك ان رد الفعل المقابل لدى أبرهة شعور بالرضى والارتياح بعد ان اصبح موضع اهتمام الدولتين الاعظم لما تمثله اليمن من أهمية لطموحات فارس وبيزنطا •

لقد بدأ التعامل بدوره مع ابرهة مباشرة واستفاد من الظروف الجديدة فأعلن اول ما اعلن نصرانية الدولة واعتمد الدين المسيحي دينا رسميا لها بعد أن نشر الكنائس وعمم المسيحية معتمدا الاموال الطائلة لذلك • وتقول الاخبار التاريخية انه بنى في مدينة صنعاء اضخم كنيسة في الجزيرة العربية هي كنيسة « القليس » فجلب احجارها من مدينة مأرب ومن معبد أوام للاله المق وزخرفها بأصناف النقوش والتحف حتى يشد انتباه الاعراب ويوجه وجهتهم اليها ويحولها عن الكعبة ، فموطن التقديس الجديد أبهى واعظم ويتمكن من تثبيت النصرانية فيسهل تطويع النفسية العربية البدوية لسلطان ونفوذ الدولة الحليفة ، وقد جاء اثر ذلك النشاط الديني المكثف الاعلان الرسمي لاعتماد المسيحية دينا رسميا فارضا بذلك نفسه قوة مؤثرة ومحركة يمكن الاعتماد عليها لتنفيذ المرامي والمقاصد الابعد •

وجاءت ردود الفعل في الثالث عند القبائل اليمنية المعادية للوجود الحبشي الديني والسياسي والباقية على دياتنها اليهودية رفضا غاضبا فانفجر بعد ان كتم انفاسه طويلا في تمرد قبلي واسع تحرك ضده ابرهة بذكاء وخبث سياسي كبير واستخدم اداة اقتتال بشرية يمنية فدفع بقبيلة « كندة » وقبيلة « علي » لتأديب « بني عامر » حتى شل قدرتهم على الحركة • وبعد ان استتبت الامور في اليمن ، وقبلت القبائل اليمنية المعارضة عن مضض حكم ابرهة واندفع مع طموحاته وآماله ومطامعه الجديدة صوب الجزيرة منظما حملته على مكة في أواخر عام ٥٧٠م في ظل الارتياح الروماني والدعم المعنوي

لذلك • فتصويب الهدف وتحقيق نجاحات فيه ستجنى روما حقها منه ، كما يكسب أبرهة الطموح •

تحرك جيشه تتقدمه جحافل القبائل اليمنية الموالية والمتنصرة • وفشل أبرهة في حملته نتيجة عدم ادراكه لعامل الطبيعة الجغـرافي واحتمـالات انعكاساته سلبيا على الحملة والجيش ، فلم يضع في حساباته طبيعة الارض الصحراوية المقدم اليها بجحافله الجرارة ، وهدت الصحراء جزءا من معنويات جنوده ، واستنزفت طاقاتهم وحيويتهم وحمل تغير البيئة الفجائي ، ونقصان الاغذية ، الاوبئة والامراض ، فانتشر بينهم ، كما تقول كتب التاريخ ، وباء الجدري ، فتساقط منهم الكثير ، وأحس أبرهة انه يسلك طريقا وعرة ستؤدي الى ضياع قوته نهائيا بعد أن كان يطمع بهـــا لتقوية نفوذه الســـــياسي في الجزيرة ، ومن ثم اعتماده القوة الاساسية من قبل بيزنطا في منطقة الجزيرة وشرق افريقيا ، وانفرط العقد من أوله وأصبح الجهد مكرسا لتلافي ما يمكن تلافيه فقرر العودة الى اليمن بصـفوف مبعثـرة يثقلها عبء الوباء المنتشـر بين الجنود •

ان النتيجة العكسية لما كان متوقعـا للحملة احدثت دويـا هائـلا في الجزيرة وقد أكسبت الهزيمة القبائل منعة وصلابة وأصرت على ولائها لقريش وللبيت وعلو شأنه ، ومن ثم عدم جدوى الخروج عنه فادارت النظر عن ما سواه ـ كنيسة القليس ـ خاصة وقد هزم دعاتهـــــا وتبعثروا ورمتهم طير الابابيـــل •

لقد جنبتها الهزيمة بالطيور شر الاقتتال ، او بصورة اكثر واقعيـة القتل والنهب ، فكيف لا تروج وكيف لا تقدس الطيور والاحجار النارية

(من سجيل) وقد كانت الجيش المقاتل بدلا عنهم والقوة التي تحركت وانتزعت النصر من مخالب عدو قوي عنيد .. « لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف .. فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » . وكان ذلك بفضل الكعبة وما وفرته من رزق وطمأنينة نفسية بعد هزيمة الخوف بكل اشكاله وفي مقدمته ما تزرعه الاعتداءات الخارجية ، وكان آخرها الحملة الاشرمية الفاشلة .

لقد أصابت الهزيمة بنتائجها المدمرة المخطط الحبشي ـ الروماني في السيطرة على الجزيرة والاستفراد بها ، كما اصابت بالشلل مطامع وأحلام ابرهة وحفرت في الارض اليمنية حفرة كانت بعد أن اتسعت قبرا للوجود الحبشي وقد عجلت هزيمة مكة عمر الوجود الحبشي في اليمن على الرغم من محاولات ابرهة رأب الصدع الذي أصاب الجيش والوجود العسكري والسياسي لهم في جنوب الجزيرة .

ضعف الوجود الحبشي في اليمن بعد الهزيمة كثيرا وجاء موت أبرهة ليفرق شمل اسرته الحاكمة فاختلف مسروق مع أكسوم وفي ظل الوهن العام للاحباش راح الاقيال والاذواء ينتفضون هنا وهناك في حركات مبعثرة وغير منظمة شكلت بدورها نوعا من التراكم الكمي للرفض المطلق للوجود الحبشي ، ومن ثم رميه خارج الحدود اليمنية . وفي ظل هذه الاجواء مجتمعة عاش سيف وعلى ضوء فهمه لها تحرك حركته التحررية الوطنية .

الباب الثاني

قصة سيف مع الاحتلال الحبشي

قبل ان نعطي رأينا وفهمنا لحركة سيف سنقف قليلا مع الاخبار التاريخية كما ترويها اقلام الصف الاول من المؤرخين العرب والمسلمين واخترنا منهم اوثقها لقربها من الحدث زمنيا بالقياس الى الروايات والاخبار الاخرى .

يحكي الطبري في تاريخه(*) على لسان ابن اسحاق قصة سيف بن ذي يزن مع الاحتلال الحبشي لليمن فيقول « ولما هلك يكسوم بن ابرهة ملك اليمن في الحبشة اخوه مسروق بن ابرهة ، فلما طال البلاء على أهل اليمن وكان ملك الحبشة باليمن فيما بين أن دخلها ارياط الى ان قتلت الفرس مسروقا وأخرجوا الحبشة من اليمن بعد اثنين وسبعين سنة ، توارث ذلك منهم أربعة ملوك : ارياط ثم أبرهة ، ثم يكسوم بن أبرهة . ثم مسروق بن ابرهة ـ خرج سيف بن ذي يزن الحميري وكان يكنى بأبي مرة ، حتى قدم على قيصر ملك الروم ، فشكا ما هم فيه وطلب اليه ان يخرجهم عنه ، ويليهم هو ، ويبعث اليهم من شاء من الروم فيكون له ملك اليمن ، فلم يشكه ولم يجد عنده شيئا مما يريد ، فخرج حتى قدم الحيرة على النعمان بن المنذر ـ وهو عامل كسرى على الحيرة وما يليها من أرض العرب من العراق ـ فشكا اليه ما هم

(*) راجع تاريخ الطبري جـ ٢ ص ١٤٢ .

فيه من البلاء والذل ، فقال له النعمان ان لي على كسرى وفادة في كل عام ، فأقم عندي حتى يكون ذلك ، فاخرج بك معي ، قال : فأقام عنده حتى خرج النعمان الى كسرى ، فخرج معه الى كسرى ، فلما قدم النعمان على كسرى وفرغ من حاجته ، ذكر له سيف بن ذي يزن وما قدم له ، ويسأل ان يأذن له عليه ، ففعل • وكان كسرى انما يجلس في ايوان مجلسه الذي فيه تاجه ، وكان تاجه مثل القنقل العظيم • مضروبا فيه الياقوت والزبرجد واللؤلؤ والذهب والفضة معلقا بسلسلة من ذهب في رأس طاق مجلسه ذلك ، كانت عنقه لا تحمل تاجه ، انما يستر بالثياب حتى يجلس في مجلسه ذلك فاذا استوى في مجلسه كشف الثياب عنه فلا يراه رجل لم يره من قبل ذلك الا برك هيبة له • فلما دخل عليه سيف بن ذي يزن برك ، ثم قال : أيها الملك غلبتنا على بلادنا الاغربة فقال كسرى أي الاغربة ؟ الحبشة ام السند ؟ قال بل الحبشة ، فجئتك تنصرني عليهم ، وتخرجهم عني ، وتكون ملك بلادي لك ، فأنت احب الينا منهم ، قال : بعدت أرضك من أرضنا ، وهي ارض قليلة الخير ، انما بها الشاة والبعير ، وذلك عما لا حاجة لنا به ، فلم اكن لاورط جيشا من فارس بأرض العرب • لا حاجة لي بذلك ثم أمر فاجيز بعشرة آلاف درهم واف وكساه كسوة حسنة » •

وتقص الرواية علينا رد الفعل عند سيف بعد هذا الموقف من كسرى « فلما قبض ذلك سيف بن ذي يزن ، خرج فجعل ينثر الورق للناس ينهبها الصبيان والعبيد والاماء • فلم يلبث ان دخل على كسرى ، فقيل له : العربي الذي اعطيته ما اعطيته ينثر دراهمه للناس ينهبها العبيد والصبيان والاماء • فقال كسرى : ان لهذا الرجل شأنا : ائتوني به ، فلما دخل عليه قال : عمدت الى حباء الملك الذي حباك به تنثره للناس : قال : وما اصنع بالذي اعطاني الملك ما جبال ارضي التي جئت منها الا ذهب وفضة ـ يرغبه فيها لما راى من زهادته فيها ـ انما جئت الملك ليمنعني من الظلم ، ويدفع عني الذل • فقال له كسرى أقم عندي حتى أنظر في أمرك فأقام عنده » •

وتمضي القصة لتحكي التحول الذي طرأ على موقف كسرى وفارس « وجمع كسرى مرازبته وأهل الرأي ممن كان يستشيره في أمره ، فقال ما ترون في أمر هذا الرجل وما جاء له ؟ فقال قائل منهم : ايها الملك ، ان في سجونك رجالا قد حبستهم للقتل ، فلو انك بعثتهم معه ، فان هلكوا كان الذي اردت بهم وان ظهروا على بلاده كان ملكا زدته الى ملكك ، فقال : ان هذا هو الرأي احصوا لي كم في سجوني من الرجال فحسبوا له فوجدوا في سجونه ثمانمائة رجل ، فقال : انظروا الى أفضل رجل منهم حسبا وبيتا وجعلوه عليهم ، فوجدوا افضلهم حسبا وبيتا وهرز ـ وكان ذا سن فبعثه مع سيف ، وأمره على أصحابه ثم حملهم في ثماني سفائن في كل سفينة مائة رجل . وما يصلحهم في البحر » .

فخرجوا حتى اذا لججوا في البحر ، غرقت من السفن سفينتان بما فيهما فخلص الى ساحل اليمن من أرض عدن ست سفائن وفيهم ستمائة رجل فيهم وهرز وسيف بن ذي يزن ، فلما اطمأنا بأرض اليمن قال وهرز لسيف ما عندك ؟ قال ما شئت من رجل عربي ، وفرس عربي ، ثم اجعل رجلي مع رجلك حتى نموت جميعا أو نظهر جميعا قال وهرز : انصفت وأحسنت فجمع اليه سيف من استطاع من قومه وسمع بهم مسروق بن ابرهة فجمع اليه جنده من الحبشة ، ثم سار اليهم حتى اذا تقارب العسكران ونزل الناس بعضهم الى بعض بعث وهرز ابنا له كان معه ، ـ يقال له نوزاد على جريدة خيل . فقال له ناوشهم القتال حتى ننظر كيف قتالهم . فخرج اليهم فناوشهم شيئا من قتال ، ثم تورط في مكان لم يستطع الخروج منه فقتلوه فزاد ذلك وهرز حنقاً عليهم . وجدا على قتالهم » .

وتنتهي قصة الذهاب الى فارس والقدوم على اليمن لتبدأ حكاية قتال الاحباش والمنازعة بين وهرز وملك الحبش .

فلما تواقف الناس على مصافهم قال وهرز : اروني ملكهم فقالـوا : نرى رجلا على الفيل عاقدا تاجه على رأسه ، بين عينيه ياقوتة حمراء ، قال : نعم قالوا ذاك ملكهم قال اتركوه • فوقفوا طويلا ، ثم قال : علام هو ؟ قالوا : قد تحول على الفرس فقال اتركوه فوقفوا طويلا ثم فقال علام هو ؟ قالوا : قد تحول على البغلة قال : ابنه الحمال ، ذل وذل ملكه هل تسمعون اني سأرميه فان رأيتم اصحابه وقوفا لم يتحركوا فاثبتوا حتى اوذنكم فانـي قد اخطأت الرجل ، وان رأيتم القوم قد استداروا ولاذوا به فقد اصبت الرجل ، فاحملوا عليهم » •

« ثم اوتر قوسه ـ وكانت فيما زعموا لا يوترها غيره من شـدتها ثم امر بحاجبيه فعصبا له ثم وضع في قوسه نشابة فمغط فيها حتى اذا ملاهـا ارسلها فصك بها الياقوتة التي بين عينيه فتغلغلت في رأسه حتى خرجت من قفاه ـ وتنكس عن دابته ، واستدارت الحبشـة ولاذت به وحملت عليهم الفرس وانهزمت الحبشة فقتلوا وهرب شريدهم في كل وجه فاقبل وهـرز يريد صنعاء يدخلها حتى اذا اتى بابها قال : لا تدخل رايتي منكسـة ابـدا اهدموا الباب فهـدم باب صنعاء ، ثم دخلها ناصـبا رايتـه يسار بها بـين يديـه » •

« فلما ملك اليمن ، ونفى الحبشة كتب الى كسرى : اني قد ضبطت لك اليمن واخرجت من كان بها من الحبشة ، وبعثت اليك بالاموال فكتب اليه كسرى يأمره ان يملك سيف بن ذي يزن على جزية وخراج يؤديه اليـه عام معلوم ، يبعث اليه في كل عام • وكتب الى وهرز ان ينصرف اليه فانصرف اليه وهرز وملك سيف بن ذي يزن على اليمن وكان ابوه ذو يزن من ملوك اليمـن » •

ويختتم الطبري كلامه عن الحرب اليمنية الفارسية ـ ضـد الاحباش بقوله « فهذا ما حدثنا به ابن حميد ، عن سلمى عن ابن ابي اسحاق من أمر حمير والحبشة وملكهم وتوجيه كسرى من وجه لحرب الحبشة باليمن » •

اسئلة واستفسارات تاريخية :

تحمل الاخبار التاريخية التي رواها المؤرخون والرواة العرب والمسلمون خمس قضايا اساسية بحاجة الى الوقوف امامها لتحليلها ومن ثم اعادة تركيبها لنتمكن من الاقتراب من الحقيقة التاريخية التي خضعت لتأويلات وتخريجات ذاتية كادت تبعد الواقعة عن الحقيقة والحدث كما كان عليه وقبل التخريجات ، وقد انتزعناها انتزاعا من مجموعة الاحاديث المروية والمكتوبة من كتب التاريخ ونلخصها في النقاط التالية :

١ ـ حقيقة شخصية سيف التاريخية .

٢ ـ رحلة سيف والجهة التي سار اليها .

٣ ـ حقيقة المساعدة الفارسية والنوايا المخفية وراءها .

٤ ـ اغتيال سيف والجهة المتحملة هذه المسؤولية واهدافها من وراء ذلك .

٥ ـ تقييم حركة سيف ووضعها في اطارها الصحيح .

هذه النقاط الخمس هي التي ما زالت تشغل الباحثين والمنقبين عن الحقيقة التاريخية حتى يومنا هذا ، وعليه ولاهمية هذه النقاط للقضية اليزنية ، ومن ثم لاهميتها التاريخية بالنسبة للتاريخ اليمني والعربي بشكل عام فقد قررنا ان نساهم في عملية الاستقصاء والتنقيب لعلنا بذلك نقترب من الحقيقة ، ولنبدأها بالقضية الاولى :

حقيقة شخصية سيف التاريخية :

آل ذي يزن عشيرة يمنية عريقة ورد اسمها في النقوش اليمنية القديمة فقد ذكرت في النقش الموسوم بـ Osma. Mus No. 281 « مع حملة » كما ذكرها أبرهة في نقشه التاريخي والمعروف عند العلماء بـ Rep Epig 4068 وهو النقش الذي يتحدث فيه الاحباش عن ثورة « يزيد بن كبشة » ومجموعة

(*) الهمداني ، الاكليل ، جـ ٢ ص ٢٥٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ .

القبائل والعشائر التي أيدت الثورة آل ذي خليل وآل ذي يزن وآل ذي سحر وغيرها من اسماء العشائر الكبيرة • وورد عند المؤرخ اليمني الكبير والنسابة ابن الحسن الهمداني(*) تعريف بالتسلسل الاسروي وبملكاتتهم الاجتماعية فقال : ولد اسلم بن الحارث بن مالك بن زيد بن الغوث بن سعد إبن عوف بن عدى عامرا ذا يزن •

« وذو يزن احد أقيال حمير العظماء : بعض حمير انه كان على ابنه سعد تبع واليه تنسب الاسنة اليزنية » ويواصل الهمداني جمع المعلومات وتقصي الحقائق حول الاسرة اليزنية وابنها الثائر سيف فيقول « يقال أراد مخرج سيف بن ذي يزن ثائرا • فأولد عامر ذو يزن : سيف بن عامر • وعلى لسان شخصية يمنية تعرف بـ « أبي نصر » يقول الهمداني : عن ابي نصر أن أبا نصر يقول سيف صهر أسعد تبع في عصر كان هو في تعريف الابرهي شراحيل بن عامر واخوته مسعودا وحميرا وسعدا وبيان وجحدبا • وتكملة الاسرة والد سيف تزوج ، والحديث هنا عن ام سيف ، ابنة أسعد ابي كرب بن ملكيكرب » • هذه اذن اسرة سيف جمعها الهمداني عن عدة مصادر شعبية ثم يورد رأيا وتعريفا مغايرا للتعريف بسيف لعبدالله بن رزام الحارثي الذي يقول « انما هو النعمان بن معدى كرب بن قيس بن عبيد بن سيف بن عامر ذي يزن ويحاجه أبو نصر رافضا هذا الرأي فيقول ليس معدى كرب الاكبر أبن سيف الاكبر » ويعتقد ابو نصر بعد ان يورد سلسلة من الانساب على ان الشخصية اليمنية التي نزعت الى كسرى انوشروان ، والتي استقبلت وفد قريش برئاسة عبدالمطلب هو سيف بن النعمان •

وتأتي تعريفات اخرى لتقول بان شخصية سيف بن ذي يزن هي الشخصية المعروفة بسيف بن ذي يزن بن ذي اصبح بن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث إبن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن أبن الهميسع بن العرنجج ، وهو حمير إبن سبأ ، وكان سيف يكنى أبو مرة •

(*) الاكليل ٢ : ٢٥٤ (طبعة القاهرة ١٩٦٧) .

هذه هي الاجتهادات اليمنية حول شخصية سيف • اما تعريف المؤرخين والرواة العرب فقد وردت على لسان الطبري والحموي على انه « معد يكرب إبن ابي مرة » ويعرف ابوه «بابى مرة الفياض » وكان من اشراف حمير ومن الاذواء وايدهم فيما بعد ابن خلدون(*) وعن امه يورد الطبري(**) تعريفا مفاده انها ريحانة ابنة علقمة ، وهي من آل ذي جدن ، وتواصـــل الكتب التاريخية الحديث عنها فترى ان أبرهة انتزعها من زوجها ابي مرة وتزوجها وانجبت له الابن الاخر لها « مسروق » وهو الذي تولي الحكم بعد اخيه « يكسوم » ويكون مسروق بهذه الصلة اخا معد يكرب من أمه ريحانة •

ولن نتطرق هنا ونكذب تلك الحكايات فليس لدينا مصدر غيرها ، كما وانها ليست بعيدة العهد بمؤرخي الاسلام • وعلاوة على ذلك فأن المنطق يقبل حدوث مثل تلك الحوادث فليس من المستبعد ان يكون ابرهة قد انتزع ريحانة ابنة علقمة من زوجها وهي ابنة الاسرة الكبيرة والعريقة « آل ذي جدن » فمن الطبيعي ان يحقد معديكرب وهو ابن الاسرة العريقة من ناحية ابيه وامه على اخيه الاصغر من امه مسروق ابن المغتصب الكبير لارضه وامه بل وفوق ذلك عرشه • وتمضي القصة لتحكي ان معديكرب قد بقي مع امه في بيت ابرهة وايد خلدون الرأي القائل بان سيف هو معديكرب وهو ابن ريحانة اما أباه فقد فر الى العراق والتجأ عند ملك الحيرة عمر ين هنـد • اصطدم معديكرب بأخيه من امه على حد رأي الرواة حين نصب « مسروق » نفسه ملكا على اليمن بعد وفاة اخيه « يكسوم » فخرج من اليمن بعد ان ادرك عدم قدرته واليمنيين على التحدي والمواجهة •

اننا نميل لترجيح تعريفات المؤرخ اليمني الكبير الهمداني على غـيره من التعريفـات التي لن نرفضهـا فليس من حقنـا رفضها وليس لنـا مصدر غيرها الا ان ترجيحنا لتعريفات الهمداني تأتي من كونه المصدر الوحيد للتاريخ

(*) راجع ابن خلدون : ديوان المبتدأ والخبر ج ٢ص ١٢١ طبعة بيروت سنة ١٩٦٨ •

(**) راجع الطبري : تاريخ الرسل ج ١ ص •

والمجتمع اليمني القديم ، اي فترة ما بعد النقوش في العهد الاسلامي الاول وهو كنسابة مجتهد ادرى بحقائق أنساب الاسر اليمنية الكبيرة وله في هذا المجال باع وذراع ، وأياً كانت الخلافات في تعريف شخصية سيف الا ان ذلك لايعني على الاطلاق الشك في وجود شخصية يمنية عرفت عبر التاريخ باسم سيف عملت على طرد الاحباش وانهاء وجودهم من ارض اليمن كما تحاول بعض الاراء المشككة تصور ذلك نتيجة الخلط المعرفي الحاصل لديها من عدم القدرة على التميز بين شخصيتي سيف الواقعية التاريخية والاسطورية الشعبية .

ان كل تلك الاراء على الرغم من اختلافها وتباينها الا انها تجمع على ان شخصية ما من آل ذي يزن ولنسمها شرحبيل كما هي عند الهمداني او معد بن يكرب كما عرفها الطبري الا انها شخصية يعود نسبها الى أل ذي يزن وقد كانت فخائذ منهم من أشد اعداء ابرهة واكثرها مقاومة للوجود الحبشي كما تثبت ذلك النقوش اليمنية ونقش ابرهة بالذات المعترف فيه بتمردهم عليه وقد اتينا على ذكره سابقا ولاننا نميل الى التعريف بالهمداني وارائه وتخريجاته العميقة الصلة بالواقع اليمني العارفة لكل تفاصيل الحياة الاجتماعية فيه فسنأخذ برأيه في الاسم وسنثبت الكنية التي غلبت على الاسم الحقيقي وطمرته ، ويبرز الهمداني التسمية بالمفاهيم الشعبية المتعارف عليها فقال فلان سيف اذا كان نجدا ، وفلان درب اذا كان محاميا على اصحابه « وهو حصن اذا كان وقافا لا يفر ، وفلان بحر : اذا كان غزير العطاء .. الخ

ومهما تعددت الاراء واختلفنا مع بعضها واتفقنا مع الاخر واعتمدناه فان ما يهمنا ونحن ننظر الى التاريخ على انه حركة الجماعة والجماهير ان نعتمد فلاناً من الناس وليكن هنا باسمه التاريخي الشهير سيف بن ذي يزن ليكون هو رمز الحركة الوطنية الاولى من نوعها في الجزيرة العربية ضد الوجود الحبشي التي لايختلف عليها اثنان ويعني التشكيك فيها تشكيكا في التاريخ اليمني كله ، ومن ثم العربي الاسلامي لما للتاريخ اليمني ولتلك الحركة بالذات من اثر فيه . ولولاها لخضعت الجزيرة للاحباش ولما كان الاسلام والحضارة الاسلامية العظيمة وباختصار شديد لتغير مجرى التاريخ العربي

ولسار في اتجاه اخر مغاير . اننا نميل الى تثبيت الصفة «سيف» الحالة محل اسم حتى لا نوجد اية بلبلة أو تضاد في المعارف التاريخية لدى القاريء العربي واليمني على وجه الخصوص ما دام عملنا ذلك من الناحية التاريخية غير مدحض ولا متعارض مع الاحداث كما انه لا يلغي ولا يضرب الشعور الوطني والقومي في العمق(*) .

الجهة التي سار اليها سيف :

تضطرب الروايات التاريخية من جديد حول الشخصية التي سارت الى بيزنطا وفارس وتختلف كذلك في الاتجاه الذي سارت اليه ، وهي من جنوب الجزيرة ، وهل اتجهت الى الشام والغساسنة أم الى القيصر وبيزنطا . وهل حدثت رحلة من هذا القبيل ام انها قصص من نسج من خيال ومبالغة ؟؟

مجموعة من الاسئلة والاستفسارات مازالت معلقة منذ خمسة عشر قرنا تبحث لها عن جواب .

يشير المؤرخ اليمني الكبير ابو الحسن الهمداني الى ان اكثر من شخصية يمنية سارت تطلب النجدة . توجهت الاولى الى المناذرة ثم الى كسرى وفارس وهي شخصية قيل يمني يعرف بسيف بن النعمان بن عفيره كما توجهت الشخصية المعروفة بـ عمر بن النعمان ، الى قبائل قحطان بالشام «الغساسنة» وقيصر الروم، وتحتوي هذه النقطة على قضيتين تاريخيتين هامتين اولاهما زمنيا الشخصيتان المرسلتان ثم الجهة المقصودة خاصة المتوجهة صوب الشمال الغربي للجزيرة العربية : الى الغساسنة في الشام وسوف نأتي على نقاشهما في نقاشنا للاراء المطروحة يرى الطبري والحموي وابن خلدون وغيرهم ان شخصية واحدة هي التي تحركت الى القيصر وكسرى وهو سيف بن ذي يزن الحميري وكان يكنى بأبي مرة ويمضي الطبري في روايته فيقول : « ولم يجد عنده شيئا مما يريد ، فخرج حتى قدم الحيرة على النعمان بن المنذر ... الى اخر القصة » وفي

(*) الثقافة الجديدة ، العدد الثالث مارس سنة ٧٤ عدن . مقال للدكتور الظفاري بعنوان الحركات الشعبية في اليمن .

هذه المعلومات اكثر من قضية تاريخية وهي تختلف وتتباين عن رواية الهمداني في الشخصيات وفي الجهة التي سارت اليها • فاين هي الحقيقة من ذلك وكيف نفهمها ؟؟

اننا نميل بما نحاول ان نستنتجه منطقيا من احداث التاريخ الى رأي يتفق ويختلف مع الرأيين المطروحين والمختلفين مع بعضهما •• ووقوفا امام احداث التاريخ ورفضا لتصورات الذهنية العربية الاسطورية والتي تركب حركة رمزها سيف بكامله على شخصية انسانية واحدة تملكها قدرة خارقة تتجاوز حدود الطاقة البشرية • فاننا سنحاول ان نعيد تركيب الوقائع التاريخية من جديد •

تقول الاخبار التاريخية المدونة في النقوش التي اتينا على ذكرها سابقا ان هناك العديد من الثورات نشبت في ظل الاحتلال الحبشي اشتركت فيها قبائل يمنية كبيرة كذي جدن وكلاع ودا وذي يزن وغيرها من القبائل وقد قمع الاحباش تمرداتها وثوراتها ، وتقول الاخبار ان كثيراً من الاذواء والاقيال قد بقوا على دين اليهودية ورفضوا الدخول في النصرانية • وتحمل الانباء وتشير الى ضعف النفوذ الحبشي في اليمن بعد انكسار حملة مكة • وتشير الاخبار الى ضعف وتفكك نظام حكم ابناء ابرهة بعد موته على الرغم من البطش الشديد الذي اعتمدوه اسلوبا لتثبيت اوضاعهم في اليمن •

من كل ذلك نخرج بنتيجة مفادها ان جماعات من الاقيال والاذواء قد استعادت انفاسها في ظل ضعف الاحباش واتصلت ببعضها ورتبت للقيام بحملة ضد الاحباش وقد تزعم هذه الجماعة الامير الحميري سيف بن ذي يزن وكانت مهمته الاتصال بالقبائل العربية في الجزيرة والشام للوقوف بجانب القبائل اليمنية في ثورتها •

سار سيف على رأس جماعة من قومه الى الجزيرة العربية طلبا للعون من القريشيين وهو يتصور العون فالخطر الذي يهدد اليمن والجزيرة العربية

واحد ، وقد اتضحت نواياه التوسعية بعد الحملة الفاشلة علـى مكة والتي لولاها لامتد النفوذ الحبشي في طول الجزيرة وعرضها . وبعد ان عجزت قريش لظروفها الذاتية ان تقدم شـيئا سـار بوفده الى شـمال الجزيرة ، مخترقا صحاريها الشاسعة الممتدة حتى الشام مستنجدا بأبناء قحطان من غير ان يحسب حساباته لقساوة الظروف الموضوعية المحيطة بهم ، بل لقد حسب حساباته بمنطق الذهنية السائدة انذاك والمعتمدة على العرقية والسلالية والنسبية المتجاوزة بطبيعة تركيبها القبلي كل الروابط الاخرى عدا ماينتسب بصلة الى السلالة والقبلية خاصة في ظل عدم وجود الروابط الاخرى مباشرة . واحس الغساسنة رغم مشاعرهم المتعاطفة مع ابناء العمومة بعدم القدرة على التمرد والخروج عن روما المتعاطفة مع عدو اليمنيين لدعم اليمنيين في نضالهم ضد الاحباش كان من المستحيل ان يزجوا بأنفسهم في صراعات مع بيزنطا لاقبل لهم بها ، فنصح منهم ، وهم الاخبر بالصراع الفارسي الروماني لمعايشتهم الطويلة له ، بالتوجه الى فارس ومحاولة الحصول على دعم القبائل العربية الموالية لفارس كالمناذرة فقد يجد عندهم العون العربي والدولى .

سار سيف على رأس وفد ، وليس وحيدا ، كما يحاول الفكر العربي الغيبي تصوير ذلك ، من الشام الى الحيرة قاطعا الجزيرة عرضا . ويأتي تشديدنا رفضا للمنطق التعسفي للفكر العربي الاسطوري والذي يحاول ان يخرج لنا الوقائع والاحداث التاريخية بصورتها الاسطورية البطولية كما لو كانت هي الحقيقة التاريخية وهي الحدث الواقعي فمن المستبعد ان يقطع شخص الصحاري والقفار الشاسعة بمفرده .

لقد ذهب سيف برفقة جماعة كان على رأسها الا ان الفكر العربي واليمني بالذات اخرجها وهو يرويها بصورتها البطولية الاسـطورية ولعب البعد الزمني دوره في الاخراج والتثبيت والاقرار به كمسلمة منطقية واقعية .

وتبقى هناك نقطة هامة وهي خروج النعمان بن عفير الى قيصر الروم ، ولا نميل الى هذا الرأي فمن المستبعد الاستعانة بالروم والفـرس في نفس

اللحظة التاريخية ، والقبائل العربيـة تعرف ان هناك تنافسـا وصراعا بين الدولتين العظميين وقد وزعت ولاءها بينهما فمنها من مال نحو فارس ومنها من عادى الاولى ومال الى الروم ودان بدياناتها النصرانية ، كما وان من المستبعد ان تلجأ جماعات لاتميل الى النصرانية بل وتعاديها الى الروم الا اذا كانت قد اعتمدت خطة سياسية شديدة التعقيد والتداخل • نستبعد ذلك تماما لبساطة ذهنية الانسان العربي في تلك المرحلة المتقدمة واعتمادها على الجوانب البطولية البعيدة عن التخطيطات والتكتيكات السياسية المربكة • وفوق هذا وذلك فقد اعتنق آل ذي يزن اليهودية واصبح في حكم المستحيل موالاة رومـا حليفة الاحباش ليهود او وثنيين على حساب نصارى هم حلفاء لها قبل كل شيء ولذا فليس هناك مجال لموضوعة كهذه ، ومن المحتمل ان تكون هذه الفكرة ونقول الفكرة ، وليس الحدث المعتمدة من قبل كثير من المؤرخين والرواة العرب قد استنتجت كحدث من احداث ووقائع تاريخية جاءت معها في فترة زمنية متقاربة ، ونقصد بها رحلة امرىء القيس الامير الكندي والشاعر العربي الكبير الى قيصر الروم ، الا ان مؤرخينا العرب لسبب او لاخر لم يأخذوا بعين الاعتبار الملابسات التي احاطت بكل واقعة منهما على حدة • فخلطوا بين الاثنين وجعلوا سيفا في مقام امريء القيس يطلب معونة محتل اجنبي موال للاحباش ضد الاحباش ، في حين راح امرىء القيس يطلب معونتهم ضد قبائل عربية ويفرش الطريق امامهم للحصول على موطىء قدم لهم في الجزيرة اي انه يدخل الى الجزيرة احتلالا ، اما سـيف فهو يرفض احتلالا مواليـا لهم وبمعطيات المنطق العلمي فستبقى حقيقة هائلة امامنا كما مثلت امام سيف وهي الارتباط الديني القوي المعروف للجميع بين الاحباش والرومان الذي ينسف مجرد التفكير به كل فكرة سياسية خطرت لليمنيين قبل ترجمتها الى واقع سياسي معاش •

مساعدة المناذرة وفارس :

تختلف الروايات التاريخية حول المساعدة الفارسية وهل هي فارسية ام فارسية عربية ومن الروايات ما بالغ في تقديرها ، ومنها ما قترتقتيرا شديدا •

وفي مقدمة تلك الروايات الرواية التي أوردها الطبري حيث قال : فحسبوا له فوجدوا في سجونه ثمانمائة رجل • فقال : انظروا الى افضل رجل منهم حسبا وبيتا واجعلوه عليهم ، فوجدوا افضلم حسبا وبيتا وهرز • ثم هناك الرواية التي تقول ان كسرى ارسل بعشرة الاف رجل تحت قيادة وهرز لمساعدة سيف واليمنيين ، ونحن نستبعد ارسال الاعداد المذكورة في الروايتين والتخريجات التي تبعتهما من أجل التفسير والاقناع • وسنحاول مناقشة الرأيين لنضع بعد ذلك رأينا في معلومات الروايتين وأخبارهما •

اعتمدت الرواية الاولى على تخريجاتها الذاتية ، والتي تتصور ان كسرى أراد فقط ان يتخلص من نزلاء السجون الفارسية من السياسيين والمعارضين لحكمه ، واعتبرت ان هذا العدد هو كل ما في سجون كسرى لتأثرها بنظام حكمه المعتدل بالقياس الى انظمة الحكم السابقة القاسية والشديدة الوطأة على فارس • كما وضعت في أعتبارها استبعاد كسرى لخوض معركة مكشوفة مع بيزنطا ورفضه للتدخلات المباشرة • كما أرادت ان تعبر عن حسن نوايا كسرى وفارس تجاه سيف واليمن ، أي ان المقصود هو الدعم المعنوي ، واثبات حسن نية فارس تجاه اليمن • وأعتماد معلوماتهم المقدمة للاعلان ، معلومات صحيحة صادقة • وهذا رأي فريق من الرواة الذين اعتمدوا في اخبارهم على هذه المعلومات ، أما الفريق الاخر الذي اعتمد على الاخبار فقد انطلق من موقف معاد لليمن واليمنيين ، ويرى ايذاءهم في تذكيرهم بالاستعمار الفارسي ، والذي تسلسل اليهم وحكمهم باعداد لا تكاد تذكر من الجنود ليذكرهم بان الاسلام كان هو المنقذ الحقيقي لهم من حكم « الابناء » • كرد على تبريرات زعماء المرتدين بعد موت الرسول (ص) •

أما اولئك الذين اعتمدوا العدد الكبير من الجند ، والذي يصل الى عشرة الاف جندي او يزيد فقد انجرفوا وراء تيار المبالغات ، وتجاوبوا من الاشاعة والدعاية ، ارادوا ان يصوروا فارس مدافعة عن اليمنيين ، وان اليمنيين اعتمدوا في قتالهم مع الاحباش على الجيش الفارسي لتلصق تهمة

موالاة سيف لفارس ، وليظهروا ويثبتوا ان فارس قد تدخلت مباشرة في اليمن ، وضربت اتفاقات الصلح مع بيزنطا عرض الحائط ، وارسلت ذاك العدد الكبير للاحتلال . وهنـاك جماعة اخـرى من هذا الفريـق تريد ان تبرر لليمنيين خضوعهم لابناء الفرس بعد مقتل سيف وتتداخل تقييمات الفرقاء المؤيدين والمعارضين في بعضها لتثبت هذا العدد او ذاك .

ولتقديراتنا بأن في الرأى كثيرا من التقتير ، وفي الاخر كثيراً من المبالغة، وان ما انتابنا من شك في صحتها التاريخية قد حملنا على التفتيش بالتحليـل عما يمكن ان يكون معقولا في تلك الظروف .

لسنا مع الرأي القائل بأن نزلاء سجون فارس هم الثمانمائة رجل ، ولنفترض ذلك فمن المستبعد ان يقبل سيف بسهولة هذا العـدد البسيط والضئيل وهو الذي قطع القفار والصحاري للوصول الى كسرى واذا سلمنا بذلك فاننا نعتقد ان قبوله قد جاء نتيجة وعد اخر من المناذرة بالتعويض ، وتسديد الثغرة العددية في الفرسان والمقاتلين وعلى الرغم من عدم الاشارة في كتب التاريخ الى ذلك الا انه من المستبعد جدا ان يكون النعمان بن المنذر قد اكتفى بالنصيحة خاصة ونحن نعلم ان فارس الحليف الاول للمناذرة قد قبلت مساعدة سيف وامداده بالمعونـة العسكريـة . ثم لا ننسى ان هناك معلومات تاريخية تقول : ان المعونة الفارسية قد ارسلت على دفعتين ، وشجعتنا هذه المعلومات على ان نعتمد في تخريجاتنا وقائع اقرب الى الحقيقة والواقعية التاريخية .

وعودا على بدء للتذكير بما اوردنا من معلومات سابقة من ان الدولتين فارس وبيزنطا قد عقدتا صلحا يرفض الاحتكـام الى القتال اسلوبا لحـل المنازعات بينهما . بعد الحروب الطويلة التي نشبت بينهما ، وضعضعت اركانهما ، وخلقت لهما المشاكل والمآسي الكثيرة في الداخل ، حتى كـادت عروش اباطرتهما ان تهوى . وتجنبا للمشاكل الداخلية والخارجية اعتمد كسرى سياسة متبصرة ترى الاحتكام الى المفاوضات اسلوبا لكل المشاكل المتعلقة بين فارس وبيزنطا ، والتفرغ للبناء في الداخل ، واعادة تنظيم الدولة

وقوانينها ومرافقها ومؤسساتها • وانكفأ كسرى يبني الداخل بعد ان اوقف صراعات فارس مع بيزنطا •

اعتمدت بيزنطا اسلوبا اخر للتدخل في شؤون الجزيرة العربية ، وحولت ساحة المعركة الى جنوبها ، وأمدت الحبشة بما احتاجته من مؤن وعتاد • فماذا يعني ذلك لفارس ؟؟ يعني ضرورة مد يد العون والمساعدة للاصدقاء ، من دون تورط مباشر يحمل فارس المسؤولية كلها ، ويدخلها في قتال مباشر ومن جديد مع بيزنطا • من هنا جاء الرفض لطلب سيف اولا ، ثم حصلت المراجعة مع المزاربة والشيوخ ، والموافقة بعد ذلك على المساعدة بشرط عدم التورط ، ومن هنا استبعد الفرس ارسال عشرة الاف جندي ، فان في ذلك تدخلا مباشرا قد يثير الحرب من جديد بين فارس وبيزنطا التي ستهب لنصرة الحبشة • هذا عدا تكاليف تموين العشرة الاف جندي ، ولذا كان لابد اولا من ابعاد شبح الحرب بين الفريقين ، كما كان من الضروري امداد اليمنيين بامدادات عسكرية فوق اعداد الرجال المساجين وتحت ستارهم • التستر على المساعدات العسكرية لتفويت الفرصة على روما ، تجنبا لاي تورط قد ينجم من تسرب الاخبار فيجر الى معارك دامية بين الدولتين في وقت كانت تحرص فيه فارس كسرى على تجنب الحروب الخارجية المباشرة مع بيزنطا •

لقد خلق حرص فارس على السرية مجموعة التخريجات المتناقضة ، والمفارقات في التقديرات العددية بين الثمانمائة سجين والعشرة الاف جندي، ولذا تأتي تقديراتنا للامدادات الفارسية متراوحة بين الثلاثة والستة الاف رجل ، من المحتمل ان يكونوا نزلاء السجون الفارسية • كما ان هناك احتمالا اخر ان الامدادات كانت خليطا من المساجين والعسكريين ، كانت الدفعة الاولى من نزلاء السجون ، وهي التي اوردها الطبري في الرواية التاريخية المذكورة سابقا ، ثم لحقتها الدفعة الثانية التي تستر عليها سياسيا ، ونحتمل فيها اكثر من احتمال فاما ان تكون الاعداد التي ارسلها المناذرة بعد التشاور مع فارس للوقوف بجانب سيف والقتال معه داخل خندق واحد

وضد عدو مشترك ، واما ان تكون من الجيش الفارسي قد ارسلت مع المساجين ، او انها ارسلت فيما بعد في سفن خاصة بها • وعلى كل فالمهم في القضية هو حجم المساعدة ، ولقد قدرنا ذالك العدد لفرضيات عدة منها :

١ ـ ان ثمانمائة سجين فارسي عدد لا يذكر في حسابات المساعدات لمواجهة جيش تخبرنا نفس الروايات التاريخية باعداده الهائلة • ولا شك ان الثمانمائة سجين جماعة قليلة تعجز عن تحقيق هدف فارس في فرض نفوذها او تحقيق نفوذ لها في اليمن • لذا فقد اصبح التشطيب على العدد الثمانمائة ضروريا ليحل محله رقم أقرب الى المعقول للاقتراب من الحقيقة التأريخية •

كانت لكسرى رغبات ومطامع في ادخال اليمن تحت الحماية الفارسية ، أو حتى ربطه بعلاقات صداقة وولاء يعبر عنها بارسال الخراج والجزية المتفق عليها من الطرفين • كما ان استفراد ابناء فارس بالحكم في اليمن بعد مقتل سيف انما يؤكد على ان اعداد القوة المرسلة يزيد عن ثلاثة آلاف جندي •

قدمت اليمن بعد انتصار الحركة الوطنية اليزنية وفود من الجزيرة العربية مهنئة مباركة ، وكان من أبرزها وفد قريش الذي وصل صنعاء من مكة ، وعلى رأسه كبار رجال قريش عبدالمطلب بن هاشم جد الرسول ، وامية بن عبدشمس ، واسد بن عبدالعزى وعبدالله بن جدعان ، وامية بن ابي الصلت ، وينقل التاريخ صورة حفلات الاستقبال للوفود المهنئة من خارج اليمن ، ويستقبلهم سيف ويأذن لهم بالدخول عليه ، وحين دخلوا « وجدوه متضمخاً بالعنبر وبيض المسك من مفرق رأسه وعليه بردان اخضران ، قد اتزر باحدهما وارتدى بالاخر ، وسيف بين يديه ، والملوك عن يمينه وشماله ابناء الملوك •

يتقدم عبدالمطلب بتهانيه بعد ان يطلب الكلام من المجلس ليشيد بسيف وحركته التحريرية وقائدها قائلا : « ان الله تعالى ، ايها الملك ملكك محلاً رفيعا وصعبا منيعا ، باذخا شامخا ، وانبتك منبتا طابت ارومته وعزت جرثومته ونبل أصله ، وبعد فرعه ، في الكرم معدن واطيب موطن ، فأنت

ابيت اللعن ، رأس العرب الذي بـــه تغضـــب ، وملكهـــا الذي بـــه تنقــاد » •

يبدي سيف ميلا نحو وفد قريش ، ويقرب منه عبدالمطلب فقد كان يعده واحدا من الاسرة اليمنية ويناديه « يا ابن اختنا » ، ومن ذاك الحفل يجامل سيف وفد قريش كثيرا •

هذه هي القصة التأريخية لحركة سيف حتى انتصاره على الاحباش فما هو مصيره بعد الانتصار وكيف كانت نهايته ؟؟ اسئلة نجيب عليها من المعلومات التاريخية المجمعة والمحللة حتى نستكمل بها رسم الصورة الكاملة •

اغتيــال سـيف :

بعد طرد الاحباش من اليمن كاحتلال اجنبي ، وانتصار الحركـة الوطنية اليزنية بمساعدة الفرس • استقر سيف على العرش اليمني بمباركة فارس وقائدها في اليمن « وهرز بن باذان » وبقي يحكم في اليمن فترة من الزمن لم تشر كتب التاريخ الى مدتها ، وهل طالت ام قصرت نتيجة المؤامرات التي بدأت خيوطها تحاك في الظلام ؟؟

وتأتينا الاخبار التاريخية لتبلغنا عن مقتل سيف غدرا ، وتختلف في القاء تبعة الاغتيال ، على من تقع ، ومن يتحمل مسؤوليتها ؟؟ الاحباش كوجود استعماري مندحر ، أم الفرس كاستعمار جديد له مخططاته التي يعمل على تنفيذها فوق الارض اليمنية ، أم كقادة لهم مطامعهم ورغباتهم الذاتية ؟؟ ام لا هـذا ولا ذاك ، وانمـا المنافســة اليمنيــة بــين الاذواء والاقيال ؟؟ هل جاء الاغتيال بدوافع ورغبات ذاتية فردية ، ام ضمن مخطط كبير وشامل مرسومة خطوطه العامة في دوائر استعمارية ؟؟

اكداس من الاســئلة تبحث عن جواب في كتب التاريخ ، وفي بطون الوقائع والاحداث وتأتي محاولاتنا الاجابة عن الاسـئلة المطروحة لعلنـا نتمكن من القاء الضوء على قضية ما زالت حتى الان غامضة ومجهولة •

يتفق الرواة والمؤرخون على ان الايدي التي امتدت الى سيف هي ايد حبشية اي انها الاداة المنفذة لعملية الاغتيال ، وليس العقل المدبر للجريمة ، فقد استخدم سيف جماعة منهم امعانا في التحقير والاهانة بعد انتصاره عليهم . وتدل هذه الواقعة على ان اولئك المستخدمين لم يكونوا مجرد خدم ، أي من الفئات الحبشية الوضيعة أو مجرد بقايا الجنود الاحباش ، بل لا شك وانهم ممن استسلم وبقى من الاسرة الحبشية الحاكمة ، وقد اقدموا على فعلتهم في غفوة من الزمن رغبة في الانتقام منه نتيجة للتحقير والاذلال الذي لحق بهم على يده ، فقد كانوا علية القوم وحكامهم . وهل يعني ذلك انهم كانوا هم العقل المدبر كما كانوا الاداة المنفذة ؟؟ وعلى الرغم من عدم استبعاد ذلك ، الا ان النتائج والمعطيات للحادث تقول لنا ان العقل المدبر للجريمة كان هو المنافس والمتضرر من النفوذ المتعاظم لسيف .

ذكرنا سابقا ان « كسرى انو شروان » ملك فارس قد كلف قائده « وهرز » بان يرسل اليه الجزية والخراج ، أي ان كسرى ربط اليمن عن طريق الخراج وبقائد الجند وهرز ، ولم تكن تهمه الشؤون والقضايا الداخلية لليمن ، لبعد المنطقة من جهة ، ولعدم جدوى بل ولاستحالة التدخل في كل صغيرة وكبيرة في اليمن ، ثم لاستبعاد تطاول سيف بن ذي يزن على فارس وملكها . لذا فان العلاقة بين الطرفين تتلخص ، في دفع الجزية ، وعدم التطاول عليها والارتماء في احضان اعدائها التاريخيين ، أو أثارة المتاعب لحلفائها من القبائل العربية الواقعة على حدودها الجغرافية .

هناك الطرف الفارسي الاخر المكلف بالتعاون مع سيف وتتويجه بعد النصر ملكا على اليمن فما هي حقيقة علاقته بسيف ؟ هل يمكننا ان نلقي التهمة عليه ؟؟

وقوفا امام الاخبار التاريخية التي تقول : ان وهرز هو الذي قتل الملك الحبشي مسروق في اليمن ، وعلى يده كان انكسار الجيش الحبشي ، فقد تمزق وتناثر وتشرذم ، وكتب النصر للجبهة اليمنية الفارسية المتحالفة ، ثم

تقول الاخبار ان وهرز توج سيفاً بتاج كسرى ورتبه بالملك على اليمن بعد هزيمة الاحباش ودخول العاصمة صنعاء ، لذلك رأى وهرز وابناء الفرس أحقيتهم في التحكم والتسلط على اليمن وشعبها من ملكها • الا ان ما لقيه سيف من تمجيد وتعظيم مكنه من فرض نفوذه وهيمنته الروحية والسلطوية مما اغضب وهرزوجماعته وأشعرهم باهتزاز مكانتهم • كما أطمعته السلطة والنفوذ الذي بقي يمارسه اثناء حكم سيف وفي وجوده ، بوقف هيمنة سيف على مقاليد الامور ، بل والاستفراد بالسلطة ان أمكن ذلك ، فبدأ ومن معه من الموالين له من الفرس يحوكون المؤامرات لتنفيذ جريمتهم دون ان تطال اليهم يد او تقع عليهم عين ، ووجدوا في الجماعات الحبشية المحتقرة والمذلة والحاقدة اداة طيعة للتنفيذ ، بل وراغبة فيه ، وكان ما كان من تنفيذ للجريمة ، وأتت تنائجها لتؤكد مقدماتها ، وعلى نفس المقدمة كانت النتيجة ، فبعد مقتل سيف تسلم ابناء الفرس زمام الحكم في اليمن وبقوا متسلطين على الشعب اليمني حتى دخول الاسلام الى اليمن •

وقد استبعدنا اشتراك الاذواء في مقتله لعدم وجود أدلة على ذلك ، كما ان المقدمات ونتائجها لا تثبت فكرة كهذه ، وخلاصة القول هي ان سيف قد قتل بأداة غير يمنية بين حاقدة وطامعة في اليمن وشعبها • دفعها الى ذلك بالدرجة الاولى احقادها وطموحاتها ورغباتها الذاتية ، وأغرتها مجموع الظروف الموضوعية ومنها رغبتها في ابقاء اليمن في دائرة النفوذ الفارسي حيث مثلت هي رموزه وأداته •

آراء في حركة سيف :

بعد ذاك السرد والتحليل التاريخي لمجمل الظروف التي أحاطت بحركة سيف اين يمكننا ان نضعها ؟؟ هل هي حركة عنصرية لونية ، كما يريد البعض ان يتهمها أم هي حركة دينية عرقية ؟؟ أم أنه سيكون في امكاننا ان نقيمها ضمن الحركات الوطنية التحررية ؟ للاجابة على هذه الاسئلة علينا اولا ان نتجنب الخلط في المعلومات التاريخية ، ثم علينا ألا نتصيد الهفوات ونركبها

على القضايا الحساسة والا نسخر المعلومات التاريخيـــة ونخضعها لمـا أردنا مسبقا ان نقوله •

يستند الرأي الذي يعتقد ان حركة سيف هي حركة عنصرية لونية الى اشمئزاز اليمنيين من المحتلين السود لا لانهم محتلون ، وانما لبشرة لونهـم السوداء ، ولان الارستقراطية اليمنية والعربية كما وصفت تؤمن لاسباب تاريخية واقتصادية بالعرقية ، وترى في اللون الاسود رمزا للعبودية وخمود الذهن • ويعتمد هذا الفريق في المبررات التاريخية لهذه الفكرة ، على موضوع رؤيا رآها ملك يمني يعرف بربيعة بن نصر اللخمي وردت في « سيرة ابن هشام » وكتاب « الكامل » « لابن الاثير » وتدور رؤياه حول دخيل يهبط ارض اليمن وهو حبشي اللون ، ويرى على حد تعبيره ، ان تلك الارستقراطية بالغت في تضخيم دور سيف في عملية الانقاذ البطولية ، لانها كانت موجهـة بالدرجة الاولى للون المحتل الاســـود ، وهي التي حملت ســيفاً على رأي أصحاب هذا الرأي ، لان يقف امام كسرى خاضعا ذليلا ، يبيع اليمن لمستعمر جديد أبيض اللون •

وينطلق الرأي القائل بأن حركة سيف هي حركة دينية عرقية من قضية الصراع المسيحي اليهودي في اليمن ، ويعطي هذا البعد الاحادي الجانـب لحركة سيف متهما اياها بالتعصب الديني ، ولا نستطيع هنا أن نرفض ذلك كلية ، فقد كان الدين عاملا مهما في تحريك الاحداث عبر مراحل طويلة من تاريخ الانسانية الا انه ليس العامل الوحيد ، ولم يكـن له دور" رئيسي" ومباشر" في حركة سيف والا فما يعني الذهاب الى الغساسنة وهم نصارى • وماذا يعني الذهاب الى الفرس وهم يدينون بالوثنية ، كما لم تعرفنـا أخبار التاريخ عن انتقائه لرجاله حسب مواصفات دينية محددة • اما كونها كانت حركة عكسية لحركة ولقضية تحركت تحت شعار الدين كما هو في الظاهر فلا يعني ان تكون حركة سيف بالضرورة دينية •

ان رمي القفاز في وجه الحركة عملية غير صحيحة ، والاستناد الذي جاء عند اصحاب هذا الرأي من « حادثة الاخدود » في محاولة لجعل تلك الحادثة

مقياسا صالحا لكل فترة ومكان عملية مرفوضة ، ومرفوض معها التشديد على هذا الموضوع لانه لا يمثل الحقيقة التاريخية ، وكان الاجدى انصافا لحوادث التاريخ كما وقعت ان يوضع هذا الموضوع في موضعه الصحيح ، فأبرهة وجيش الاحباش هم الذين شرعوا يبيدون الشعب اليمني سيرا على قاعدة التثليث في العقوبة بناءا على أوامر النجاشي .

لقد حاول ابرهة في حكمه اعتماد وسائل عدة لمحو اليهودية الى الحد الذي فرض فيه الموت عقوبة لكل مسيحي يزوج ابنته من يهودي ، كما الزم اليهود بتزويج بناتهم من النصارى ، تحت تأثير أمل يداعبه في خلق شعب موحد النظرة متجانس المشرع . لقد حمل التزمت الديني أبرهة على أن يسلك هذا السلوك ، ويكرس جل اهتماماته لتلك القضية ، فبنى الكنائس وتفنن في البناء رغبة في ان تؤثر على نفسية الانسان العربي . لذلك لم يكن التزمت الديني من سيف ، ولم ينطلق في حركته من هذا المنحى . ولذا فان كل ما يقال عن الحركة بأنها دينية عنصرية يجانب الصواب ولا يلامس الحقيقة .

كيف نفهم حركة سيف بن ذي يزن على ضوء المعطيات المادية التاريخية ؟ لنفترض افتراضين الاول انها حركة وطنية قوميـة ، والآخر انهـا حركة عمالة مواليـة لدولة من الدولتين الكبريين في تلك المرحلة . للوصول الى الافتراض الاول سنتناول الافتراض الثاني كمسلمة حقيقية حدثت في التاريخ فعلا ، واستند في تحويلها الى حقيقة تاريخية على حوادث وقعت اثناء مسار الحركة اليزنية او بمعنى ادق بعد انتصار التحالف اليمني الفارسي على الاستعمار الحبشي .

تحكي لنا الروايات التاريخية ان القائد « وهرز » توج سيفا بتاج كان معه ، كما البسه بدلة من الفضة ورتبه بالملك على اليمن ثم كتب الى أنوشروان يخبره بالفتح . ويمكن لو نظرنا الى حوادث التاريخ ، اضافة اليها تلك الحادثة التي تؤكد من وجهة نظرهم عمالة سيف للفرس ، ان نسبغ على تلك الحركة صبغة العمالة لدخيل اجنبي ، بل وسوف نضيف الى جانب ذلك ، حتى تكتمل

الحجج في ايديهم ، حادثة ترويها كتب التاريخ فتقول : ان كسرى قد اشترط على سيف شروطا منها : ان الفرس تتزوج باليمن ولا تتزوج اليمن منها ، ليس ذلك وحسب بل اشترط عليه دفع خراج اليه ، فماذا يعني ذلك ؟؟

لا شك انه يعني عمالة الحركة لفارس ولحكام فارس ، وتعطي المجال لاولئك ان يعدوا سيفاً مجرد حاكم صوري وعميل لمستعمر لا يختلف عن المستعمر الحبشي الا بلون جلدته(*) .

وتتيجة لتلك الاحداث فقد اصيب البعض بعقدة مستعصية البحث والنقاش فحملوا سيفاً اعباء تاريخية كبيرة وتصوروا فيه معايشة للواقع والحاضر وقد اتهم بخلق عقدة التدخل الاجنبي . وهي ما تعرف بالعقدة اليزنية(**) .

حقيقة الحركة :

سيرا مع حوادث التاريخ خطوة خطوة ، وتحليلا لها وصولا الى الحقيقة ، يمكننا اولا ان نذكر القاريء بعلاقة فارس بالوطن العربي ومكانتها فيه ، انطلاقا من علاقتها الاقتصادية والسياسية به ، ثم من مكانتها وثقلها الثقافي والحضاري في المنطقة ، والى جانب هذا وذاك قربها الجغرافي المتاخم والمحاذي لاراضيه وحدوده . ولو عدنا الى حوادث التاريخ ، والتي تشير الى ذهاب سيف للاستعانة بالغساسنة فاننا نستخلص منها ما يلي :

ان ذهابه الذي حصل فيما بعد الى فارس لم يكن مخططا له من قبل ، وقد جاء بناء على مشورة ، لينفي وجود علاقة مسبقة مع فارس ، وصل سيف الى النعمان بن المنذر وبقي عنده فترة حتى حانت فرصة ذهاب النعمان ومقابلة كسرى ، ثم التوسط لسيف بالمقابلة ندرك ان علاقة جديدة يحتمل ان تنشأ بين اليمنيين وفارس . ثم موقف كسرى الرافض ، ثم المراجع للموقف السابق كل ذلك لا يشتم منه رائحة الخيانة والركوع . أما الحاح سيف على كسرى

(*) انظر الثقافة الجديدة العدد الثالث مارس سنة ١٩٧٤ .

(**) انظر محمد محمود الزبيري مأساة واق الواق طبعة بيروت سنة ١٩٧٧ .

فقد جاء نتيجة ادراك سيف ان هذا آخر أمل في انقاذ الوطن اليمني الممزق من جهة ، ومن جهة ثانية في تحقيق آماله وطموحاته الشخصية والتي لا تتعارض مع الهدف الاول ، ولا يعني العمالة او الموالاة لفارس كما يرى اصحاب هذه التهمة •

الا ان استغلال الفرس للظروف المهيئة ، وقطفا للثمرة الناضجة للسقط جاء موقف كسرى بعد المشاورة مع مرازبته ضاربا عصفورين بحجر • الاول التعاون مع سيف والشعب اليمني ، والثاني مد حدود الامبراطورية الى الجزيرة العربية من غير خسائر كبيرة ، فالشعب اليمني بطبيعة الحال وبالنظر الى حجم المساعدة الفارسية سوف يتحمل الاعباء في التضحية ، وقد تحملها للخلاص من مستعمر متخلف ، آخذين بعين الاعتبار الظروف الصعبة التي كان يعاني منها •

لقد جاء طلب سيف للمعونة الفارسية ليس رغبة في الاحتفاظ بالسلطة وخوفا عليها من الضياع حتى يعطينا مبررا لاتهامه بالعمالة كما ان الاتصال لم يأت بناءا على علاقات سابقة ، وانما جاء من وحي الظروف القاسية التي عاشها الشعب اليمني والتي اشتدت وطأتها نتيجة لتصرفات الحكام الاحباش، وما أوجدوه من حالة الضياع والتمزق لم يشهد اليمن في تاريخه مثلها •

لقد جاء اللجوء الى فارس بنوع من الموضوعية استجابة لنداء وطني وربما رغبة في تحقيق طموحات فردية ذاتية او انتقاما لكبرياء طبقية وقومية فما الضير في ذلك ؟؟ ألم تصب في نهاية المطاف في نفس المصب ، وهي اخراج دخيل من أرض الوطن المهان الممزق ، وانقاذ شعب بأسره من حالة الفوضى والضياع • أما موضوع كيف جرت حركة سيف على اليمن احتلال واستعمار الفرس لها فهذه قضية اخرى لم يكن يحسب لها سيف حسابه على الرغم من ان الحوادث تبلغنا بأن سيفاً راح يرغب كسرى في اليمن •

لقد جاءت عملية الترغيب لكسرى في محاولة لاقناعه بالمساعدة ، خاصة وان سيفا كان يدرك تماما بعد زيارته للغساسنة والنعمان بن المنذر ، وعلى

ضوء الواقع اليمني انه يتعذر أي حل لمشكلة اليمن من دون مساعدة فارس ، وان تلك الفرصة كانت آخر فرصة امامه لانقاذ الوطن •

أما الفرس فقد حسبوا حساباتهم بدقة لتكون الحركة ، ان نجحت ، حركة توسع واستعمار بأقل التكاليف والخسائر ، ومن هنا جاءت شروط كسرى اولا : ان الفرس تتزوج باليمن ولا تتزوج اليمن منها : ثانياً : فرض الجزية والخراج على سيف • وفوق هذا وذاك فقد ارسل جنده بقيادة فارسية • من ذلك يتضح ان نية الفرس مبيتة لاحتلال اليمن ، والبقاء فيها وربطها بفارس وملكها كسرى •

وجاء الحدث الاخر بعد الانتصار تتويج وهرز لسيف وترتيبه له في الحكم وهذا يعني اخضاع اليمن وسيف لملك فارس ، وقد عبر ذلك الموقف تعبيرا حقيقيا عن اطماع فارس في اليمن ورغبتها في السيطرة عليه وادخاله ضمن مناطق نفوذها • وقبل سيف تلك الوضعية فلم يكن يملك حق الرفض او التمرد او حق المعارضة في ظروف كانت في منتهى القسوة عليه وعلى الشعب اليمني •

وطنية الحركة وقوميتها :

انطلاقا من فهمنا لقضية تثوير التراث تناولنا في بداية بحثنا للجانب الواقعي في القضية اليزنية الظروف الذاتية والموضوعية المؤثرة في الحركة الوطنية اليزنية ، وحاولنا ان نبين بلغة المنطق الحقيقي السليم ، ان حركة سيف ليست حركة فردية محضة • كما حاول الفكر العربي الميتافيزيقي ان يصورها ، بل هي حركة جماعية شأنها في ذلك شأن اية حركة في التاريخ يراد بها التغير والتبديل ، ولو كان محدودا • الا ان منطق الاحداث في تلك المراحل الزمنية بصورة عامة كان يفرض سيطرة وهيمنة الروح الفردية على نشاط الجماعة وحركتها ، فتسيرها وتوجهها في الاجواء التي سادتها روح الديمقراطية في البنية الفوقية ، اما اجواء الديكتاتورية المطلقة فقد كانت تسحب مجهودات الجماعة كراهية واغتصابا ، فينسبها الدكتاتور الى ذاته

الفردية ، وتحملها كتب التاريخ تاريخاً وازمانا بـذاك الاسـم ، وتحتوي الهيمنة الفردية أي مجهود جماعي ، ومن هناك لمعت الاسماء الكبيرة في التاريخ ، وكأنها المحرك الوحيد لاحداث التاريخ العظيمة والكبيرة ، او تحولت بفعل عامل الزمن وسيطرة الذهنية الاسـطوريـة المتعلقة بالخـوارق ، الى الافراد • فظهرت جميع الاحداث التاريخية في المنعطفات المصيرية للشعوب واللامم ، وكأنها صنيع هذا البطل او ذاك الملك ، ولايعني ذلك على وجه الاطلاق التشطيب على دور الفرد في التاريخ ، بل هناك أفراد عظام وشخصيات قوية فعالة • الا اننا لانفصلها عن ظروفها ، كما جرت الحال في حركة سيف وحسب تصوراتهم الميتافيزيقية للموضوع ، وكما أردنا في دراستنا ان تكون الصورة المغايرة بحسب فهمنا للقضايا التاريخية ، وحيث اننا وضعنا سـيفاً في ظروفه الموضوعية فحولنا عمله الفردي البطولي في نظرهم الى حركة وطنية لم يأت ذلك التحول مزاجا ورغبة ذاتية ، بل اتى اثر استيضاحنا للعلائق الداخلية في الحركة ، وبعد ان اجلينا الظروف والملابسات التي اكتنفت الحركة فحولتها الى بطولية فردية خارقة ، وساعد ذلك التحول الذهنية الميتافيزيقية ، وجاءت دراستنا محاولة لاعادة الامور الى وضعهـا الصحيح وكما كانت عليه في الواقع ، وضمن سياقها التاريخي ، ومن هنا بدت حركة سيف في دراستنا حركة وطنية خلقتها الجماعة والظروف الموضوعية التي احاطت بها ، ثم تجسدت بسيف رمزها الانساني الثوري • ولقـد خرجنا بنتيجتنا من نقاشنا لمجموع الاراء التي قيلت في سيف كموضـوع بطولـة فذة تصدت لحركة احتلال استعمارية • فلماذا عددناها حركة ، ولماذا اعطيناها صفة الوطنية ؟

لقد عددناها حركة لانها كانت كذلك ، وعلى كل لنستخلص ذلـك من مجموع المعلومات التي قيلت فيها • حتى نسهل تصور الحقيقة او الواقعة التاريخية كما كانت عليه • تقول الاخبار التاريخية التي أوردها الهمدانـي ان هناك شخصيتين خرجت من اليمن الاولى قاصدة كسرى انوشروان وهي شخصية « سيف بن النعمان بن عفير » وتوجهت الثانية وهي شخصية عمرو بن

النعمان الى قبائل قحطان بالشام وقيصر الروم(*) • وتقول الاخبار ان سيفاً بعد ان عاد محملا بالسلاح والعتاد من فارس هبت القبائل اليمنية للوقوف معه وقفة رجل واحد • وقبل هذه وتلك ، تقول الاخبار التاريخية انه حدثت عدة ثورات ضد حكم ابرهة الحبشي اشترك فيها آل ذي يزن كما ذكرنا ذلك سابقا •

ان تلك القرائن تشير الى وجود حركة جماعية قبلية وشعبية تربع فوق قمتها سيف بن ذي يزن ومثلها فتجسدت به ، وظهرت من خلاله ، وأصر الفكر الميتافيزيقي العربي على تصويرها بمجملها كما لو كانت بطولة فردية قام بها سيف لوحده ، ومن دون معين ، وراح ينسج حول ذلك القصص والروايات ليؤكد وجهة نظره •

ولقد اعطيناها صفة الوطنية للغاية التي سعت اليها ، وهي اخراج محتل دخيل من أرض الوطن ، وبأداة بالدرجة الاولى يمنية خططت للحركة ، ابتداءا من الوفد الخارج من اليمن الى الجزيرة العربية فشمالها ، ثم الى الحيرة ففارس ، وانتهاءا بالقبائل اليمنية التي استجابت للدعوة التحررية اليزنية آخذين بعين الاعتبار المساعدات الفارسية للحركة ، والتي تأتي لا لتنفي وطنية الحركة ، وتدمغها جزافا بالعمالة ، بل لتؤكد وجود الذات اليمنية، واصرارها على التحرر وتخليص أرضها بدعم مادي ومعنوي من أصدقاء وجيران في المنطقة • أما العمالة التي يحلو للبعض ان يدمغ بها الحركة تعنتا ومغالاة فان لها شروطا محدودة كالاتصالات المسبقة والمستمرة لطلب المعونة ، والعلاقات المتبادلة غير المتكافئة قبل وقوع الحدث • ثم عدم التردد في اتخاذ الموقف المؤيد والداعم • كما حدث بالنسبة لكسرى في وقفته الاولى الرافضة طلب سيف في النجدة ، وفوق هذا وذاك فان العمالة تشترط سرعة الاتصال الى قرب المنطقتين لبعض ، او بحسب عرف ذاك الزمان متاخمة حدود الدويلات الصغيرة او التجمعات القبلية للدولة الكبرى صاحبة الحول والطول في

(*) الاكليل جـ ٢ ص ٢٥٦ ـ ٢٥٨ •

الامور ، لقد استطعنا في ملاحظاتنا التاريخية ان نستخلص شروطا للعمالة في العصور الوسيطة نلخصها بما يلي :

اولا : قرب الدويلة او القبيلة جغرافيا للدولة الكبرى ممثلة في القرون الاولى للميلاد بدولة الشرق فارس ، ودولة الغرب العظمى روما . ثم ثانيا : ضرورة متاخمتها لاراضي الدولة الكبرى لنتخذ منها مع مجموع الدويلات الصغرى المتاخمة حزام أمن لاطراف الامبراطورية هذا في ظروف الدفاع عن أراضي الامبراطورية ، أما ظروف الهجوم للامبراطورية المعادية او المنافسة فقد كان ذلك يستدعي التقرب بالوسيلة المتاحة انذاك للدويلة او القبيلة المحاذية حدودها لحدود الامبراطورية الضد لتتمكن بها ، او من خلالها بأن تنشب أظافرها في الوقت المناسب في جسم الدولة الكبرى المنافسة . ثالثا : كانت تقام العلاقات غير المتكافئة او علاقات العمالة طوعا وكراهية للدويلة او القبيلة التي تتمتع من ناحية جغرافية بموقع استراتيجي هام عسكريا او تجاريا ، فقد يشكل موقعها الجغرافي منافذ بحرية او برية للدولة العظمى يجعلها تفرض نوعية العلاقة التي تريدها هي وترغب في سنها، والتعامل مع الطرف الاخر بموجب مصالحها، في الوقت ذاته توفر الحماية اللازمة والمطلوبة بحسب الظروف المحيطة به . وعليه يصبح الارتباط بين الطرفين عضويا كالعلاقة بين السالب والموجب ، بين الخاص والعام .

تلك أذن الظروف التي خضعت على أثرها قبائل ودول وفرضت عليها العمالة لحساب اطرا فدولية كبرى ، فأين بلاد اليمن في هذه القضية ؟؟ وأين حركة سيف وسط تلك العقدة من القضايا . ان الاضفاءات المتعسفة على الحركة اليزنية ، والآراء العشوائية والتي لا تمثل الا موقفا تلفيقيا حاقدا ضد تاريخ الشعوب قضية مرفوضة بل ومدانة تاريخيا ، فالاحساس بالعداء للاجنبي واسقاط الشعور العدائي على التاريخ ، والمستهدف هنا هو الحركة اليزنية ، دون النظر الى مجمل الظروف التي استدعت استدعاءه يجعل من اولئك مجرد تلفيقيين لقضايا ولمواقف ، لا تمت الى الواقع بصلة ، وتتعرض القضية الاساسية على ايديهم للتشويه والتشويش المضر بالتراث حتى اللحظة

المعاصرة ، فينعكس ذلك سلبا على ثقافتنـا الوطنية ، ويؤدي الى تشويـه لذاكرتنا الجماعية التي ترتفع الاحلام تجاهها الى حد اعادة صقلها لتتمكن بذالك التراث الذي استوعبته في ذاتهـا من احداث الثورة الثقافية المطلوبة والمنتظرة •

ان الاستعانة بفارس من قبل الحركة الوطنية اليزنية يأتي ليؤكد وطنيتها وليس العكس • اولا لان الاستعانة لم تأت تحت ضغط العمالة بموجباتها وشروطها التي شرحناها سابقا •

ثانيا : جاءت الاستعانة تحت ضغط ظروف اخرى مغايرة ، وهنا لابد من التوقف امام القضية ورسم ملامحها الحقيقية سعيا منا لتقرير الواقع كما هو ، وكما جرت فيه الاحداث ، وليس في ذلك ، كما قد يتصور البعض محاكمة للماضي من الحاضر ، وانما هي محاولة لرسم صورة الماضي كما كانت عليه برؤية علمية حددت الرؤيا الى وقائع واحداث الماضي ، بالرغم من عمقه الزمني ، الذي ينسج حول الاحداث والوقائع شبكة من الملابسات والمخالطات الارادية واللاارادية •

حين استكملت الجماعة اليزنية رسم هدفها برؤياها ومنظورها البسيط للواقع اليمني انذاك ، وضعت لنفسها شرطين ضروريين لحركتها الذاتية • شرط ذاتي تلخص في ضرورة الحركة وسط القبائل اليمنية وتهيئة اجواء الثورة والتمرد ضد الحكم الابرهي الممثل للنظام الاتوقراطي الاقطاعي في الحبشة ، ثم رأت الجماعة ضرورة الاتصال بالقبائل العربيـة للتصـدي معـا للاطماع الحبشية في الجزيرة بمزيد من القوة والتماسك المطلوب بين الطرفين انطلاقا من وحدة المصير الذي يستدعى توحيد الاداة للمجابهة المصيرية •

وتحرك الوفد انذاك متجها كما تحدثنا الاخبار التاريخية الى القبائـل العربية في الجزيرة لطرح وجهة نظره عليها عن طريق قريش ورجالاتها • وجاء ردها بعدم قدرتها على الوقوف بجانب اليمنيين والتصدي معهم خصوصا بعد الاجتياح الابرهي لها ، والذي جاءت نتائجه على غير توقعات محركيه ، وخارج حساباتهم المعدة مسبقا ، وقبل حركة الاجتياح الفاشلة كانت قواها الذاتية

تعاني من الضعف وعدم القدرة على التصدي ، او حتى القدرة على مد العون ، وعليه لم تكن على استعداد للتجاوب مع اطروحات الوفد اليمني وحواره معها •

تابع اليمنيون محاولاتهم بتهيئة الشروط الذاتية المناسبة لحركة التصدي لعنجهية الاحتلال الابرهي ، فواصلوا مسيرتهم عبر الجزيرة الى الشام حيث ابناء العمومة الحقيقيون ، وحيث يمكن ان ينجدهم التذكير بالقبلية والسلالية • ولم تستطع الشام كما عجزت نجد عن تقديم اي عون للحركة فاكتفت الثانية بتسديد الرأي ، كما اكتفت الاولى بالاعتذار ، وتقديم الصلوات الحارة للآلهة المكية بأن تنصر ابناء العمومة في اليمن على عدوهم الحبشي • وبقيت المساعدات في نطاق الدعوات والصلوات الطويلة والقصيرة الحارة •

عجز الشرط الذاتي بشقه العربي عن استكمال تهيئة الشرط الذاتي المناسب للحركة ، فكان لا بد من تغطية موضوعية تسد الثغرات في الشرط الذاتي ، وقد وجدوا انفسهم مواجهين بالحاح كيف يمكن سد الثغرة ؟؟ والتي يعني بقاؤها التراجع امام الهجمة الاستعمارية الحبشية الرومانية ، وقد استبان ذلك العجز في تحركهم السياسي • ووجدوا انفسهم أمام اشكالية نضالية انبثقت اثر الاجابة السلبية من القبائل تجاههم التي أثرت في حركتهم بشكل مقوض ، وكادت تقعدهم عن مواصلة خط سيرهم التحرري • الا ان المشورة الغسانية قد نبهت الجماعة اليزنية الى ضرورة استكمال تسديد الثغرة بقوى دولية كبرى في مقدرتها تقديم المساعدة في حال التصدي والمجابهة اذا اقتضت الضرورة القصوى ذلك ، وفي هذه الحالة تقف فارس مدافعة عن اصدقاء يربطهم واياها مواجهة عدو واحد •

كشفت مشورة الغساسنة الرؤيا امام الجماعة اليزنية بضرورة ايجاد علاقة بين الذات الباحثة متمثلة بحركتهم والموضوع ، ويكمن هنا في الصديق القريب جغرافيا وتاريخا ومصالح •

ان الاختيار الحر الموضوعي الذي سلكه سيف وجماعته قد جاء كاستجابة واقعية وحقيقية لطموحهم التحرري المنضبط بضوابط مقتضيات واقع الحال اليمني المعاش آنذاك تحت ظل احتلال الاحباش المباشر وروما من ورائهم ، كانت عملية استبصار الطريق المؤدي الى التحرر والانعتاق عملية صعبة ومعقدة في ظل واقع يعاني من التمزق القبلي ، ثم الديني فيما بعد ، الشيء الكثير ، ولذا فقد جاءت عبر القنوات العربية موقفا واستشارة وكان من الممكن ان تتم رأسا ومباشرة . الا ان خيوط الامل في تعاون عربي لم تنقطع وتصورت الجماعة اليزنية ان استكمال قيام الشرط الذاتي سيؤدي الى القدرة على الحركة ضد الاحتلال الابرهي الحبشي فيتم التصدي له ودحره من مواقعه المتشبث بها في اليمن .

كان التفكير ذاك ضمن رؤيا طوباوية ساذجة راحت تراهن على التآلف والتقارب القبلي غير قادرة على استيعاب امكاناتها وقدراتها المواجهة لامكانات الجبهة المضادة ثم من ناحية اخرى لم يكن في استطاعتها استيعاب الظروف المحيطة بالقبائل العربية . وحين تكشف لهم من خلال التجربة اثناء حركتهم السياسية ان رؤياهم كانت قائمة على وهم لا يلامس الواقع او يقترب من حقيقة الاوضاع العربية القبلية ، ووجد اليزنيون أنفسهم امام حقائق جديدة تكشفت لهم اثر ذاك الموقف العربي السلبي تتطلب منهم اعادة تقييم الامور بحسب مقتضيات الظروف المستجدة ، وكان عليهم ان يحسبوا قبليا لمثل تلك الاحتمالات والنتائج . الا ان امكاناتهم الذهنية المحدودة لم تسمح لهم بوضع الاحتمالات واستكشاف بدائلها ولم تتم العملية عملية السعي الى فارس والاستعانة بها الا في اللحظة الانية انذاك وجاء ذلك توفيرا للشرط الموضوعي المطلوب بحكم الحاح الحاجة وتغطية لجوانب الفراغ والنقص في الشرط الذاتي والذي خلقه الموقف العربي السالب .

ان تحرك سيف على رأس وفده الى فارس لا يأتي ضمن قناعات بالعمالة او خيانة لاماني الشعب اليمني بل طموحا لتحقيق تلك الاماني واستجابة

لمقتضيات الواقع المستجد المشبع بروح المسؤولية ، وفي الحيرة عند المناذرة تأكد له صواب الرأي الناصح بالاتجاه الى فارس ، وفيها كان ماكان من موقف كسرى واصرار سيف ومحاولاته الترغيبية لكسرى فقد كان يدرك ان فارس نهاية المطاف والحلقة الفاصلة بين تحقيق الاماني الوطنية اليمنية والانهيار الكامل لليمن بأسره ، وباصراره راجع كسرى مع مرازبته حسابات فارس ، وكان قرارهم بارسال نزلاء السجون الفارسية ، ومنهم من كانت له علاقة بالسياسة ، ويأتي اختلاط الاخبار ببعضها حول الاعداد المرسلة معه للاعانة وهل تمت على دفعة ام على أكثر من دفعة اتخذت من السجناء مظلة غطت بهم تدخلها المباشر حين وجدت الظروف تقتضي ذلك بعد أن دفع بها الرومان الى نهايتها القصوى في تدخلاتهم في افريقيا ، وخرقهم المستمر والمتكرر لمعاهدة الصلح المعقودة بينهم وبين فارس .

تأتي الاخبار مستمرة في وصف الحالة لتبلغنا بالاستعدادات اليمنية للمعركة لتستكمل الحوادث التاريخية سيرها الحقيقي والمنطقي ، وليدلل من الاستجابة السريعة التي لقيتها دعوة سيف من القبائل اليمنية على ان هناك تهيئة قبلية قد تمت . هناك احتمال كونها عسكرية وسياسية اي تبليغ القبائل واخذ موافقتها ثم الاستعداد لذلك ماديا ، وهناك احتمال اخر يتلخص في التعبئة المعنوية والتعاطف مع رحلة سيف لطلب المعونة من القبائل العربية وفارس . وهذا يعني وجود جماعة كانت تقف وراء سيف وتشد من ازره . ومن هـذه الجماعه وبموافقتها كان وفد المعونـة والذي ترأسـه « سيف بن ذي يـزن » .

لذلك كله نرفض العسف في التخريجات ، ورمي الصفات المتعننة من غير وجه حق وبلا ادنى مبرر سوى اشكالاتنا السياسية الحضارية الحاضرة ، ومواقفنا العاجزة منها ، ونصر على جماعية الحركة اليزنية ووطنيتها على الرغم من النتائج العكسية التي خلفتها فيما بعد هيمنة ابناء الفرس على مقاليـد الحكم في اليمن ، والتي أتت نتائجها السلبية على سيف نفسه .

واعتبرناها حركة قومية للتأثيرات التي تركتها سواء على صعيد الواقع العربي ، أم على مستوى الفكر الذي سيطر على الجزيرة العربية وجنوبها فحركة سيف هي التي هزت الجزيرة ، واشعلت الفتيل في النار •

واصررنا على اعتبارها حركة قومية لنتائجها التي أثرت في مجرى الاحداث في الجزيرة العربية بعدها مباشرة بظهور الاسلام ، ثم في استمرارها الزمني وفي انتقالها المكاني حيث احتضنها الجميع لتصبح في شكلها الاسطوري الروائي جزءا من الفلكلور العربي الشعبي العام والمشاعي ، بعد ان اصبح جانبها التاريخي جزءا من التاريخ العربي مباشرة ، وعن طريق الاسلام الذي تمثلها ، واستطاع ان يستوعبها •

الباب الثالث

تعريف الأسطورة

قبل ان ندخل في استطراد تاريخي للجانب الاسطوري في القصة اليزنية نرى ضرورة الوقوف للتعريف بالاسطورة والدلالات الفلسفية التي حملتها الكلمة ، لما لها من أهمية ليس فقط بالنسبة لبحثنا هذا ، وانما لعلاقتها المتجذرة بالفكر الانساني بصورة عامة والعربي على وجه الخصوص . وعلى الرغم من محاولات التقليل من أهمية الموضوع كما حصل لدى بعض الباحثين ، الا ان ما قامت به الاسطورة من دور مهم في تثبيت اركان مرحلة انسانية متقدمة زمنيا تجعل من الضروري الوقوف أمامها للتعريف .

يأتي التعريف بها باعتبارها موضوعا اجتماعيا سيكولوجيا لغويا وفوق هذا وذاك يلفها اطار فلسفي شديد الالتصاق بفكر الانسان وتفسيته على الاقل في مرحلة معينة ساد فيها التفكير في ما وراء العالم الموضوعي رغبة في الخروج من الاطار الضيق الذي حشر فيه الانسان ، ونقصد بذلك محيطه البيئي والنفسي المؤطر في حدود القبيلة وموقعها الحياتي . والاسطورة كلمة تأتي من فعل سطر وهي بمعنى ألف القصص والاحاديث التي لا أصل لها في الواقع ، وهي عادة ما تكون أحاديث مجسمة لصورة خارجة عن حدود الطبيعي والمعتاد عند البشر . وفي هذه الحكاية او القصة تمتزج مبتدعات الخيال الصورية برغبات الانسان وأمانيه النفسية بعالم مخملي الملمس حالم .

ويعتقد فريق من العلماء والمتخصصين بأن الوسيلة العلمية الوحيدة لدراسة الاساطير هي دراسة اللغة ، وقد صب اصحاب هذا الاتجاه جل اهتمامهم على الجانب اللغوي والتعريفات اللغوية للاسطورة من قناعات مفادها « ان اللغة الحية حقيقة حسية وليست القواعد اللغوية سوى قوامها التجريدي ، ويخضع هذا القوام التجريدي لظواهر عدة في الحياة • لذا فقد ارتأوا ان الحقيقة الحسية لا يمكن ان تعرف عالما يدرس اسسها المجردة(*) ، وقد كان من المتحمسين لهذا الرأي « ليفي شتراوس » الذي راح يؤكد على ان الاسطورة لغة ، فحيث ان الاسطورة تحكي فهي تعد جزءا من كلام الانسان(**) •

ولقد قام أنصار هذه المدرسة في محاولتهم لضبط مفهوم الاسطورة بتطبيق المنهج البنائي عليها كما طبقوه على الحكايات الشعبية ، وأسهب اصحاب هذا الاتجاه ليس في تعريفاتهم اللغوية وحسب ، بل وفي وضع اسس وقواعد منهجية تحلل الاسطورة ، كما تفعل مع غيرها من انماط الاداب الشعبية الاخرى •

وقام أصحاب هذه المدرسة وعلى رأسهم ماكس مولر اصحاب علم الفيلولوجيا المقارنة بتحقيق عملية المقارنة « بعد اكتشاف اللغة السانسكريتية ، وما أدته من دور للحضارة الانسانية ، حين كشفت النقاب عن جوانب كبيرة منها كانت غامضة ومجهولة ، قبل الكشف اللغوي ، بردم الفجوة التي بدت بين اللغة والاسطورة بحكم طبيعة كل منهما المختلفة عن الاخرى ، وعدوا الاسطورة مظهرا من مظاهر اللغة ولكنها من مظاهرها السلبية • فالاسطورة تمثل الجانب السيء من اللغة ، ذلك ان اللغة هي بطبيعتها منطقية وعقلية • واللغة هي الاصل التاريخي الذي منه انبعثت الاسطورة ، فتقدم اللغة هو الذي ادى الى حدوث ظاهرة الاساطير وقد يتساءل المرء

(*) د • نبيلة ابراهيم ، قصصنا الشعبية طبعة بيروت سنة ١٩٧٤ •

(**) ارنست كاسيرر ، الدولة والاسطورة ، الهيئة المصرية سنة ١٩٧٥ •

وكيف كان ذلك ؟ وتجيب تلك المدرسة بأن التقدم الذي حصل في اللغة ، والذي على اثره اغنيت مصطلحاتها ، فحمل الشيء ذاته اكثر من اسم ، وأدى ذلك الى انبعاث اكثر من شخصية كانت واحـدة منها في الاسطورة • وقد مزجت في هذه النظرية العقلانية والرومانتيكية » ، الا ان الاخيرة غلبت على المنزع العقلاني ، وبعد ان اعطى مولر الاسطورة تلك الاهمية حيث ربطها بالكلام الانساني وجعلها نتيجة طبيعية له ، عاد ليؤكد عـلى انها ، ليست اكثر من وهم كبير وهي خدعة غير واعية ترتبت على طبيعة العقل الانساني •

ذلك هو ملخص رأي المدرسة اللغوية في نظرتها الى الاسطورة وعلاقة ذلك بتاريخ الحضارة الانسانية ، على انه سوء فهم ، واساءة تفسير الكلمات والمصطلحات وتصور الحضارة على انها من نتائج وهم وشعوذة •

اما المفهوم السيكولوجي للاسطورة و الذي مثلته المدرسة الفرويدية فيرى ان الاسطورة : هي نتاج نفسـي لمحاولات الانسان العقيمة للتعبـير عما لايمكن التعبير عنه ، ووضع ما لا يمكن التعبير عنه في الفاظ تشكل بمجموعها الاسطورة ، فهي اذن تعتمد على غريزة اساسية تتمحور حياة الانسان حولها •

وقد مثلت نظرية فرويد قفزة في النظر الى الاسطورة ، وأراد ان يثبت بها التشابه بين حياة الهمج النفسية والمصابين بالامراض النفسية بتماثل كل دوافع الفكر الاسطوري مع بعض الامراض النفسية •

اما الافكار الدينية فهي في رأي المدرسة التحليلية ، ليست سوى توهمات ، والاسطورة هي نتائج تلك الافكار فبالضرورة سوف تقولب بوعائها ، وستصبح متشكلة بنفس شكلها ، ولذا فهي ليست سوى توهمات نفسية ، والصور الاسطورية من وجهة نظر المدرسة ، وهي رموز اوديبية ، فالتوتم معنى كلي لنوع حيواني او نباتي ، وهو رمز العشـيرة ، يرمز الى صورة الاب(*) وتركزت مجهودات هذه المدرسة في ابراز تأثير الجنس

(*) التوتمية هي الصورة الاولية للحياة الدينية كما يعتقد دوركايم •

في اللاشعور عند الفرد • وقد طورت مفاهيم هذه المدرسة ، المدرسة النفسية المنشقة عنها والتي تزعمها « يونج » وقد عمل زعيم المدرسة المنشقة باديء ذي بدء على تطوير مفهوم اللاشعور ، حيث اصبح يحتوي على عنصرين « فردي وجمعي » وانطلق من المفهوم الجديد لتفسير وتحليل الانتاج الشعبي ومن ضمنه الاسطورة ، والتي يعيدها الى اللاشعور الجمعي ، الذي هو نتاج صور من التأمل مولودة مع الانسان ، وفي ذلك يقول « ان مهيمنات اللاشعور الجمعي او النماذج المثالية القديمة ما هي الا القيم السائدة ـ الالهة ، أي صور القوانين والمباديء المهيمنة والتنظيمات الوسيطة ، التي تجدد في النفس البشرية تجاربها دونما كلل » • ويرى ان الانعكاسات مسؤولة عن خلق أساطير مستحدثة • كما يعتقد ان الحلم وهو الذي يجمع في تكوينه بين عنصري اللاشعور ـ الفردي والجمعي ـ يتمكن العنصر الجمعي فيه من ان يتمثل النماذج الاصلية التي تنطلق في حقيقة الامر من عناصر مهوشة ، ثم تبدأ تلك العناصر المهوشة في تحديد ملامح لها تظهر في شكل خيالات وصور مختلفة ، يعمل العنصر الجمعي عند الافراد في الجماعة على تنظيمها لتأخذ بشكل نموذجها الاصلي وقام بتطبيق تفسيرات للاحلام على تحليل وتفسير الحكاية الاسطورية التي عادة ما يحقق أهدافها بطل اسطوري لديه من الدوافع ما يحمله على تحقيق الكل الكامل ، وكل هذه التصورات في اللاشعور الجمعي • تلك هي وجهة نظر المدرسة النفسية في الاسطورة باعتبارها موضوعا سيكولوجيا الى جانب كونه لغويا ، أما الجانب الاجتماعي في الاسطورة ، فقد تعددت تفسيرات وتعريفات المدارس الاجتماعية له • الا ان أشهر ما عرف من تفاسير للاسطورة ، هي التي طرحها العالمان الروسيان « فلاديمير بروب » و « جاكوبسون » •

ولقد اختلفت وجهات نظر دارسي الاساطير في تقييمهم للاسطورة ، والمدلولات التي حملتها كل اسطورة في نفسها ، فمنهم من عدها روايات خرافية وهمية ذات منزلة فكرية وروحية ضئيلة ، وهي في هذه الحال لا

تخرج عن كونها نتاجا بدائيا لخيال مشوش وتفكير نزق ، ولذلك فهي لا تستحق منا أي جهد ، بل انكل جهد يبذل فيها انما هو جهد ضائع • وقد جاء في الخط الموازي لهذا الرأي رأي آخر للعلماء الذين تناولوا هذا الموضوع باهتمام بالغ وانطلقوا من فهم عميق لطبيعة اساطير العالم القديم على انها تمثل واحدة من أعمق منجزات الذهنية الانسانيــة ، فقد كانت الاســطورة نتاج ابداعات لعقول شاعرية خيالية موهوبة ، تأملت الكون تأملات عميقة ، قبل ان تنتجع تلك التأملات في اسلوب وقصص يحكيها ويتداولها العــامة من الناس • وهي عادة ما تحكي قصص الارباب والابطال وكل ما يتعلق بهم ابتداءا من المولد وانتهاءا بالممات وكــل ما كان بينهما في حيــاة الالهــة او البطــل •

ويقدس الرومانتيكيون الاسطورة لانهم يدخلونها في الواقع ، ولا يرون اي خلاف بينها وبين الواقع كما لا يظهــر أي انفصــال بين الشــعر والحقيقة ، هكذا في المطلق وبدون تحديد لنوعية الشعر أو وضع مقاييس للحقيقة ، وكذا الحال بالنسبة للاسطورة والواقع فالاثنان متطابقان ، وقد رفع اصحاب هذه المدرسة من قيمة الاسطورة كثيرا ومثل هــذا الاتجــاه « شلنج » •

وعليه فهل الاسطورة موضوع اجتماعــي محض ام هــي موضــوع سيكولوجي خالص او هي مفهوم لغوي مجرد ؟؟ ان الآراء التــي بروزت الاسطورة في اطار من هذه الاطر الثلاثة تحكم على المجهودات التي بذلتها بالغنى • ذلك ان الاسطورة أكبر من كونها لغة مجردة ، وأضخم من كونهــا موضوعا سيكولوجيا خالصا او اجتماعيا محضا ، ولا نريد هنا ان ندخــل في موقف نقدي لتلك المدارس ، الا ان صعوبة التعريف لتغلغل الموضوع في الزمن ، تحملنا على التمسك بتلابيب الشرح الزمني لعلنا تتمكن ، حين نلقي الضوء على مراحل تطور الفكر الانساني ، ان نفسر معنى الاسطورة ، فلا نسطح المعنى ولا نصعب ، بل نحاول ان نقدم مفهوما علميا يقارب بــين

وجهات النظر المختلفة ، ويلاشي اختلافات وجهات النظر ، والتي حدثت بسبب اختلال اوجه اهتماماتهم العلمية وتعدد مشاربهم الثقافية وتباين مواقفهم النظرية .

الفهم الشعبي للاسطورة :

أما المفهوم الشعبي للاسطورة كما يطرح في مجتمعنا العربي كل على حدة او مجتمعة فهو تعريف فيه كثير من التبسيط يرى انها تعني « الخرافة » وعادة ما تطلق على الاحاديث اللاواقعية ، وهي بطبيعتها هذه تدغدغ الخيال اكثر مما تحاكي العقل ، ولكل مجتمع أحاديثه الخرافية التي تخصه ، وهناك أحاديث عادة ما تكون مشتركة بين المجتمعات المتقاربة ، ومثل تلك الحكايات يتم التداخل فيما بينها نتيجة الاضافات المستمرة من الاجيال المتلاحقة .

ويمكننا ان نقسم الحكاية الخرافية في مجتمعنا الى تقسيمات أولية ، فنضع في المقدمة الخرافات الطويلة وهي الحكايات المسهبة المستمرة التي تبنيها الاجيال فوق بعضها ويتداخل فيه الدين والسحر .

ثم هناك الخرافة القصيرة وهي عبارة عن الغاز غير حقيقية وليس فيها حد أدنى من المنطق او المعقولية .

وقد جرت العادة في الاسطورة الشعبية او الخرافة الشعبية على ان تحكى مشافهة ، فتنتقل رأسيا وافقيا في الزمان والمكان ، ليكيفها كل شعب على حسب قياسه لطبعها بطابعه الخاص ، ولا تأتي تلك الاضافات الا في البنية الخارجية فقط . ويبقى مضمونها وجوهرها كما هو .

اما نجاحها او عدمه فيتوقف على الراوي وحذقه الذي يلعب في نجاحها دورا رئيسيا وهاما . فتنطلق الاسطورة الشعبية ضمن منطلقين لتحقيق هدفين ، هدف أخلاقي وآخر فكاهي .

متى خلقت الاسطورة :

حددت بعض الآراء الفترة الزمنية التي خلقت فيها الاسطورة بتحديدها

للموضوع المكاني لها حيث يعتقد « ميثوررو بنفي » صاحب الكتاب المشهور « البنشنتانترا » ان منبع الاسطورة هي بلاد الهند « نشأت انواع الحكايات الخرافية والاسطورية في بلاد الهند • وهي في أصلها حكايات بوذية كانت تحكى لاغراض تعليمية ثم أنتشرت في اوروبا عن طريق العرب ، وذهب البعض الى أن اصل الاسطورة من بلاد بابل وقد جاءت تقديراتهم بناء على ما وصل في أيديهم من تراث اسطوري ، كانت ملحمة جلجامش في مقدمته ، وليس هذا وحسب بل ان الشخصيات التي رسمت لوحاته الاسطورية كانت قد عاشت في الفترة الواقعة بين سني ٢٨٠٠ ـ ٢٧٠٠ ق • م • وكما عودتنا بعض السير الاسطورية فانها تحمل اسماء شخصيات من المحتمل ان تكون قد جاءت بعد خلق الاسطورة بفترات زمنية تطول وتقصر ، وهذا يعني ان اللبنات الاولى لملحمة جلجامش ، كانت قبل الالف الثالث قبل الميلاد • ومن هنا فقد حدد ، أنصار الرأي القائل بأن أصل الاسطورة هي بابل ، الفترة الزمنية أو هم بالاصح حاولوا التقريب فيها • وهناك رأي آخر يعيد كتابة الملحمة في أقدم مراحلها الى زمن (سرجون الاول الاكدي في حوالي ٢٤١٣ ـ ٢٣٦٨ ق • م • وأقرب فترة لكتابتها هي فترة حكم شولكي) والتي كانت في ٢١٠٠ ق • م •

وقد اعتمد أصحاب هذا الرأي على القراءات المختلفة ، التي حملتها الملحمة ، من بابلية وحيثية • فهل هم محقون في ذلك ؟ ومتى تمت حقيقة خلق الاسطورة ؟؟ لعل في ملاحقتها زمنيا وتتبع مدى انعكاسها على الفكر الانساني ، اجابة صحيحة يوضح مفهومها ويرد على الاسئلة الحائرة •

مرحلة السحر :

يتميز الانسان بخاصيتين اساسيتين « الادوات والكلام » تميز بهما عن غيره من الكائنات الحيوانية ، وقد زودته تلك الخاصيتان بالقدرة على التفكير والتطور • وتوصل بحكم الضرورة الحياتية التي استطاع اكتشافها والتقاطها بخاصتيه العظيمتين الى معرفة القوانين الاولية للطبيعة وتمكن بواسطة

الادوات التي بدأ يصنعها ان يخضع تلك القوانين لاهدافه الخاصة ، وبدأ يمارس سيادته على الطبيعة فيصطاد ما يرغب فيه من الصيد ، ويأكل ما تزرعه يده في الارض يساعده في ذلك كما توهم ما اصطنعه من ادوات تكنيكية وهمية راح يستر بها نواقص التكنيك الحقيقي في محاولة اولية بدائية المسلك للتحكم في حياته بطريقة ذاتية ، وقام بأعمال وممارسات وشعائر التقط صورتها الاولية من واقعه فرسم صورة اولية لحيوان مفترس معتقدا انه بذلك يسحره ويسيطر عليه ، واعتقد بجدوى ذلك العمل بعد تجربته الخاصة . ولا بد من وقفة بسيطة للتعريف بالمبدأين الاساسيين اللذين عليهما السحر كما وصفها « فريزر » في ملاحظاته : ويقول المبدأ الاول بأن « الشبيه ينتج الشبيه وهو يطبق على المرحلة الاولية من السحر : المبدأ الثاني فيقول باستمرار التأثير المتبادل بين الاشياء المتقلبة حتى بعد انفصالها عن بعض »(*) ويمكن تطبيقه على مرحلة أرقى من السحر ويستنتج منه ان كل ما يفعله الشخص الساحر بالنسبة لاي شيء مادي سوف يؤثر تأثيرا مماثلا على الشخص الذي كان هذا الشيء متصلا به . واقتنع بأن السحر الذي اصطنعه بنفسه له قدرة على اجبار العالم الخارجي على تحقيق مطالبه ، وان ممارسته السحرية لا يمكن ان تفشل في تحقيق النتائج المرجوة وكان لابد للاجادة من التخصص .

وفي تلك العصور القديمة ونعني به العصر الحجري ، حيث عاش الانسان على الصيد والقنص ظهرت طائفة من الطقوس الدينية ، شحذها وأخرجها الفكر الاسطوري ، كانت تهدف الى تدعيم ارادة الانسان وحثه على منازلة الكواسر وتحمل اخطارها والتصدي كذلك لاخطار الطبيعة باللامبالاة بها ، ذلك ان وسائله البدائية لم تكن تستطيع ان توفر له الحماية الكافية ، فاتجه الى معتقداته السحرية او « تكنيكه الوهمي » والذي حام حول الحيوانات باعتبارها مصدرا لرزقه وقوته .

(*) سير جيمس فريزر ، الغصن الذهبي ، ج ١ ص ٤٦ ، ١٠٤ طبعة الهيئة المصرية العامة القاهرة سنة ١٩٧١ .

ووقفة أمام تلك الطقوس التي أداها الانسان لفريسته المطلوبة ، وكان يقوم بها عند الصيد ، وكانت تبدأ بالتظاهر من قبله ومجموعته بالحزن معتقدا انه بذلك يخدع الحيوان ويموه عليه ، فينشب الحربة او السهم في جسد الحيوان المستهدف ثم تتقاسمه المجموعة حتى أصبح التظاهر بالحزن ، حزنا حقيقيا عندما ارتقى الحيوان الى مرتبة الالهة •

وأتصلت بالعقائد السحرية صناعات لها نفس النفس البدائي كصناعة التمائم والحفر والخدش او الثقب ، بهدف خلق نوع من التعاون لحماية وابطال فعل « قرينة » الحيوان ، وقد قام بتلوين تلك الاجزاء المخدوشة لابراز الشكل الحيواني ، ويواصل عمله فيه فثقبه لابطال أعماله وافعاله الضارة ، وتسخير الارواح المرتبطة به لخدمة غرضه ومصلحته • كانت الطقوس السحرية تتناول كل ما يتعلق باصطياد الحيوان وذبحه • وحين انتقل الانسان الى الزراعة استبدل الالهة الحيوانية بآلهة نباتية ، وظهرت طقوس سحرية جديدة للحصول على المطر • وكلما تعددت متطلبات الانسان لتحسين مستوى حياته ، تعددت وتنوعت الطقوس والمعتقدات السحرية •

ومع الزمن انحصر سحره في يد تلك الجماعة التي أوهمت الآخرين انها تستطيع ان تصنع الخير والشر لغيرها بعد ان بدأ بداية غير شريرة وهي صنع الخير للانسان نفسه صاحب الفكرة ومبتدعها • وأرتبط السحر والذي هو نتاج الفكر الاسطوري بالشعر وبالرقص الايمائي وكانت الكلمة المنغمة والحركة الموقعة خير طريقة للتعبير عن الفكرة • وجاءت الكلمة المنغمة مصحوبة بالحركة لعلها تشفع لهم عند الالهة المذبوحة او في الطور الاسمي تضرعاً للرياح حتى لا تعصف بالمحاصيل او للمطر حتى يسقط فتنمو الغلال او للغلال حتى تتفتح وتزهر • اذن فقد رافقت الزراعة طقوس سحرية جديدة معدة لاخصاب الارض والثمر متصورا اي انسان تلك الرحلة المتقدم من منطلقاته الفكرية الساذجة ان العطاء يتم بفضلها •

ويتخيل المزارعون كما يتخيل الصيادون بفكرهم الساذج ان تلك الحركات السحرية ستحقق لهم الواقع المرغوب فيه ، والذي يصبح بفضل تلك الحركات ، حقيقة راهنة ، يعيشها الفرد كما تعيشها الجماعة • ومع الزمن فصلت الحركات الايمائية عن العمل المنتج وأصبحت مجرد حركات تعبيرية يقصد بها رفاهية الجماعة • الا أن ذلك لا يعنى موات الفكرة نهائيا في المرحلة التي تلتها ، بل بقيت بعض الطقوس ، خاصة ما يتعلق فيها بالزراعة ، قائمة في ديانات الحضارات الراقية حيث خضعت ملكية الارض للارستقراطية الحاكمة ، وقد أداها وبشكل متطور الفلاح نيابة عن الذين استثمروا الارض •

ويعتمد الفكر الذي يقوم عليه مبدأين اثنين يعرفان عند علماء الاسطورة بـ « قانون التشابه » و « قانون الاتصال » وعلى قاعدة القانون الاول ، يعتقد الساحر ان في استطاعته تحقيق اهدافه بالتقليد او المحاكاة • اما مفهوم القانون الثاني فهو : ان كل ما يفعله الساحر في الشيء المادي الذي في يده ، سوف يؤثر تاثيرا مماثلا على الشخص المستهدف في ذاك العمل ، والذي له علاقة بالشيء المادي • ويعتقد الساحر بفكره الاسطوري ، ان المباديء التي يستخدمها في ممارسة اعماله السحرية ، هي ذاتها المباديء التي تنظم عمليات الطبيعة الجامدة •

ويرى تايلور ان السحر والعلم يقومان على أساس معين من تداعي الافكار الا ان هذا التداعي يتم في العلم بطريقة غير الطريقة التي يتم فيها في السحر الا ان يتحقق في الاخير بطريقة خاطئة • أما فريزر فيرى ان للسحر علاقة قوية بالعلم ، وقد كان السحر هو الطريق الطبيعي الذي سار عليه الفكر الانساني حتى وصل الى مرحلة العلم •

لقد كانت انطلاقات الانسان النفسية للسيطرة على الواقع المادي المعقد والصعب من منطلقات فكرية اولية ساذجة ، شكلت حينها حلا ولو جزئيا ومحدودا لمشاكله مع الكائنات الاخرى ، وتوهم انها تستطيع حل

مشاكله مع الطبيعة ، بل وحلت من وجهة نظره مشـاكل ذاك الواقع ، ومن مفاهيمه الوهمية لحل مشكلاته ولـد الفكر الاسـطوري ، وهو الفلسـفة الاولى والساذجة عن الحياة التي وضعها ذاك العقل البشري البدائي .

مرحلة التديـن :

وتطورت ادوات الانتاج وتطور الانسان معها لينتقل الى مرحلة أرقى في تفكيره ، وليدخل في مرحلة اخرى وهي مرحلة التدين والتـي يطلق عليها « المرحلة الدينية » . وقد شكلت هذه المرحلة نقلة تاريخية بالنسبة للانسان حيث تعلم فيها الكتابة ، وصاغ الصوت بحرف أبجدي وبنى الامبراطوريات وشيد الحضارات العملاقة وبدأ يسطر انتاجات فكره الاسطوري في اسطورة قيلت باسلوب « الحكي » مشافهة وكتابة . من هنا فالاسطورة فكرة فلسفية جاءت عبر معاناة نفسية فردية وجمعية ثم سيطرت على العقليـة البشريـة في مراحل سادت فيها الرؤيا الغيبية وهي تعالج علاقة الانسان بالطبيعة ، وقد تعددت مواضيعها بتعدد مراحلها الزمنية وتباين مواضعها المكانية ، وقـد وجدت ترجمتها في القصة والرواية والملحمة والفكاهة .. الـخ . وحتما فقد اندثر من الاساطير المكتوبة ما اندثر وفازت ملحمة جلجامش بالبقاء فكان لها الخلود . وحين انتقلت الانسانية الى المرحلة الاسمى مرحلة الدين بقيت وشائج من المرحلة السابقة في المرحلة اللاحقـة كبعض المظاهر السـحرية : الخرافية التي أعترفت بوجودها الاديان وأهمها كائنـات أخـرى كالجـن والشياطين في عالم له علاقة بالعالم الانساني .

وجاءت المرحلة اللاحقة بقيمها من معتقدات دينية وطقوس وعبادات تكيفت بتكيف الظروف المكانية والزمانية ، وانتقل الانسان من السحر الى العبادة والايمان وأصبحت الاسطورة تغلف الفكر العقائدي عند الانسان ، بعد ان انتقل بفكره واحاسيسه من مجرد المشاعر المبهمة المعتمة التي وجدت ترجمتها في السحر ، الى انفعالات أكثر تخصصا ، واسـتمرت ردود الفعـل الانسانية تجاه الصعوبات والمشاكل التي كان يعاني منها في واقعه المادي

تترجم بطريقة رمزية في الشعر والفن والاسطورة التي انتجعها الفكر الاسطوري ، وقد جاءت ليس فقط بعيدة عن الواقع التجريبي ، بل ومتناقضة معه تناقضا فجا وشنيعا ، ولا ينفي هذا مهمتها الموضوعية فالرمزية الاسطورية تموضع المشاعر فتصبح هي التعبير الحقيقي عن الواقع •

اتبع الانسان في طقوسه الدينية تأثير رغبات فردية عميقة وحوافز اجتماعية عنيفة واصبح الدين عاما وشاملا ، بعد ان كان السحر شديد الخصوصية • وحصلت تلك النقلة بفضل الفكر الاسطوري ، وحملت الاسطورة الترجمات الرمزية للفكرة ، وتمكنت قمة الهرم الاجتماعي ، رؤساء العشائر حكام الدولة ، من السيطرة على الموضوع وبدت القصة او مجموعة القصص ، والروايات تحكي أفعال الالهة المعبودة من قبل اولئك الحكام والخاضعة لتصرفاتهم والمستجيبة لمتطلباتهم السلطوية ، او تروي بطولات ومغامرات الاسلاف • كان هذا في المراحل العليا للحضارات المتطورة كالبابلية والهندية والمصرية • وباعتبار الاسطورة فكرة فلسفية جاءت نتيجة انفعالات نفسية فردية وجماعية ، شملت الانسان الكل ، وسيطرت على الحضارة الانسانية عامة • ونادرا ما تجد حضارة بدون اساطير ، بل وسوف يكون القطع بالمحال قائما على اساس موضوعي ونتيجة لاستقراء في تاريخ الحضارات الانسانية القديمة • ولا نريد هنا ان ندخل في تثبيت وجهة النظر هذه باستعراض اساطير الامم السالفة • ففي ذلك اطالة للمقال ، الا اننا سنكتفي بالقاء نظرة عامة على الاساطير المنتشرة والمهمة في الحضارات القديمة •

الاساطير المصرية :

ويعتقد ان زمن الاساطير المصرية يعود الى الالف الثالث قبل الميلاد ، وقد ارتبطت التصورات في الاسطورة المصرية بالديانة المصرية ، وحاول الانسان بها ان يدرك بعض الاحداث التي تصورها منتمية الى « العالم الالهي » هذا العالم الذي صنعه الانسان نتيجة لعدم قدرته على اعطاء

تفسيرات مباشرة بالعقل والادراك الحسي كمعرفة السماء والشمس والكواكب السماوية الاخرى والموت والحياة ... الخ . فتصورها اسطوريا واشار اليها برموز ، او ترجمها في كلمات كالترانيم والصلوات والقصص والشعائر والاداء التمثيلي في الصلوات . فهي اذن تأملية اكثر منها تخيلية شاعرية . ومن خصائص الاساطير المصرية الميل الى التغيير من جهة ، ومن جهة اخرى الثبات والاستمرار . اما ميلها الى التغيير فقد جاء من كونها غير متعصبة ويبدو عند الانسان المصري الميل الى ايجاد اكبر عدد ممكن من التصورات الاسطورية للكائن الواحد .

والاساطير المصرية على حد تعريف « ردولف انتس » هي مجموع التصورات الاسطورية بأسرها ، وقد تؤدي عبارة اسطورة الى قسم محدد من اساطير مركبة(*) .

ومن اشهر الاساطير المصرية اسطورة البقرة السماوية التي حملت الاله « رع » على ظهرها عملا بنصيحة الاله « نونو » وقد استوت السماء فاستبشر الاله وقرر زراعة الحشائش الخضراء فيها . وتحمل هذه الاسطورة حب الفلاح المصري للزراعة ورغبته في زراعة العالم الاخر .

جاءت الاساطير المصرية في مرحلة سياسية مزدهرة عاشت فيها البلاد في وحدة سياسية فادت الاسطورة دورها في توحيد الفكر الديني لدي الانسان المصري . لقد كانت اداة فعالة في البناء الايديولوجي النظري للانسان. وجاءت الديانة المصرية بنفسها الاسطوري كنتاج طبيعي للظروف الموضوعية السياسية بالدرجة الاولى ، والتي تم فيها توحيد الارضية وخلق مملكة مصر العليا والسفلى ، كما جاءت بهدف تدعيم ذاك الواقع فتصورت الملك إلاها، كما اعطت الكاهن حق لبس شخصية الاله . وقد حصل هذا التمازج « الالهي ــ الانساني » بين شخصية بعض ملوك مصر والاله حوريس ،

(*) نشر وتقديم د . صمويل نوح كريمر ، أساطير العالم القديم طبعة القاهرة سنة ١٩٧٤ .

بروح اثوقراطية عملت بكل مجهوداتها السياسية على تطويع واخضاع نفسية الانسان المصري • ولانريد شرح الاساطير المصرية ، فليس هدفنا ، سوى التمهيد والتوطئة لموضوع بحثنا القادم • واستمرت في مرحلة الحضارة محاولة الانسان بفكره المحدود تفسير بعض ظواهر الطبيعة والتي لها تأثيرمباشرعليه في كل المناطق الحضارية •

الاسطورة السومرية :

اعطت سومر كما اعطت مصر للانسانية مجهودات فكرية كبيرة متعاونة مع كافة الحضارات بصورة تلقائية ، ومن غير تخطيط او تنسيق ، لحل لغز بعض الظواهر الطبيعية ، ولمعرفة بعض علائق الانسان مع الطبيعة • فجاءت اساطيرهم تدور حول الخلق وتنظيم الكون ومولد الالهة وحبهم وكرههم وأعمالهم الخلاقة وبركاتهم ولعناتهم ••• الخ • وباختصار دارت جميعها حول عطاءات الالهة للانسان ، وأشهر تلك الاساطير هي الاساطير التي دارت حول ابداعات الاله الكبير « انليل » فهو ملك السموات والارض وفاتق الارض عن السماوات ومنبت الارض ، ولم تكن سلطاته على الرغم من مكانته الكبيرة عند السومريين مطلقة وغير محدودة • وتحكي اسطورة من الاساطير السومرية زواج انليل بالالهة « نيلليل » • ثم ينجب ابناً ذكرا سمي الاله « سن » • ويقوم اله الماء والحكمة « انكي » بمراقبة الكون ، ويتحمل مسؤولية خصوبة الزرع والضرع • وتتصارع الالهة في الاساطير على السلطات والصلاحيات ، فتدور معارك كلامية بين الالهة الطموحة المعتدية اتانوين وجمهرة في الالهات • وهناك اساطير تتحدث عن ارض الفردوس ديلمون بأحاديث وردية تعطي نفس مواصفات جنات النعيم السماوية ، ماء عذبا وحديقة غناء وفاكهة •• الخ ، وهناك تشابه كبير بين القصيدة الاسطورة في الفردوس (ديلمون) من قبل اله الشمس ، وبين صور سفر التكوين في التوراة ، تجد صورة خلق حواء من ضلع ادم مطابقتها في القصيدة « ديلمون » •

من اهم القضايا التي تطرقت اليهـا الاسطورة السومرية هي موضوع العلاقات الجنسية بين الالهات ، فعدا القصة التي حملت موضوع علاقات الالهات ببعضها ، تطالعنا اخرى من نمط اخـر تروي موضـوع العلاقات الجنسية بين الالهة فها هو « شكاليتودا » يغتصب الالهة « أنانا » وانتقاما منه على فعلته ترسل « انانا » الدمار والخراب على بلاد سومر ، ومن أبرز الموضوعات الاسطورية في اساطير سومر « قصة الطوفان » بناء على قرار الهي بارسال الطوفان وتدمير الجنس البشري ٠

وتواصل الاساطير الاكادية مشوار الاسطورة السومرية متأثرة بروحها تجاه الانسان ، وأهم اساطير حضارتها الاسطورتان البارزتان في الفكر السومري وهما قصة خلق الطوفان المرويتان على نسق ملحمة « جلجامش » وهبوط عشتار الى العالم السفلي ٠ وقد تضمنت قصيدة « الخلق » ٠

أشهر الاساطير الاكاديـة :

وتتمحور حول تمجيد الاله البابلي مردك ومدينة بابل ، وهناك اساطير تخلق الانسان الالهة « مامي » بخلقتين فنصفه رباني ونصفه انسان ٠ امـا النصف الرباني فيخلط الصلصال بالدم واللحم لاله تقتله الالهة ٠ ويسمح الاكاديون لانفسهم بأن يعدلوا في مفهوم الاسطورة بما يتلاءم ومقتضيات الزمن ، فاذا بالاسطورة تحكي تعاليم طبية في مقاطع من رو اية « الخلق » ٠ وهناك اسطورة تروي سيطرة الاله « نرجال » على العالم السفلي بعد أن أحكم قبضته على السماء ، وقد تم له ذلك بعد حوادث اسطورية ظريفة تسبغ الحياة الانسانية على الالهات وفيها صور تعاون لفيف من المردة والالهات ضد فريق اخر من الالهات ينتهي بانتصار الفريق المتحالف النازل من السماء ٠

وهناك أساطير أكادية يلعب فيها البشر دورا كبيرا ومهما وهم اما في صورة حكماء او حكام٠

وهناك نوع اخر من الاساطير الاكادية تتعلق بمحاكاة البشر من قبل الالهة على حسب معاصيهم واثامهم ، وان كان الخلاص والامل نهايتها

المرتقبة ، وابرز مثال على ذلك قصيدة الاله « ارا » المطولة ، وتبرز مع غيرها من الاساطير ذات الطبيعة التفاؤلية ، انبساط النفسية الاكادية(*) • وهناك اساطير الحضارة الحيثية ، الا أن المعروف منها فقط اسطورتان : الاسطورة الاولى المسماة باسم « القمر الذي هو من السماء » والثانية المعروفة بـ « الالـه الذي اختفى » ، وهي تحكي قصـة الالـه « تليبينو » ابن الـه العواصف • والقصص الاسطورية الحيثية وثيقة الصلة بالشعائر الدينية ، فمنها مـا لـه علاقة وصلة بشعائر السحر ، ومنها ما هـو متصل بالعبادة أشهرها اسطورة رب العواصف وعلاقته بالتنين •

تركز الاساطير الكنعانية على الاله الكونرسا وزوجته عشرتو او لشيرة وتدخل الارباب الكنعانية في مغامرات انسانية كمحاولات التجسس التي يقوم بها الاله عشتار على الاله أيل والالهة عشترة وهما في مخدعهما ، وتحكي ملحمة دورة كوماربي ، كيف اخذ هذا الالـه الحكمة ، وكيف ضاجع الصخرة التي نام تحتها وسالت فيها رجولته ، وكان نتيجة ذلك ولادة طفل • وتستمر الملحمة لتحكي كل مشاعر الاب الاله تجاه الاله ولده الرضيع بعد الولادة والذي يسميه « أوليكومي » •

وعلى كل فقد كان رب العواصف هو الشخص المركزي لكل الاساطير الحيثية والسومرية ، وتمحورت حوله الروايات والملاحم تحكي افعالا انسانية تقوم بها الالهات ويمتزج هذا الفعل الانساني بحوادث من الطبيعة وتختار أسماء واشكالا معينة لتلك الالهات فتختلط بالتصورات الاسطورية أركان الوجود الثلاثة الانسان ـ الطبيعة ـ الالهة •

الاسطورة العربية وعلاقتها بالفلسفة اليونانيـة :

كان بودنا ان نكمل الحديث عن الاساطير الانسانية القـديمة • الا ان ذلك سيطيل علينا الموضوع كثيرا ، ولذا فقد اكتفينـا في البحث عـن

(*) انظـر المصدر السابق •

الاساطير التي سادت منطقة الجزيرة العربية وما جاورها ـ او الشرق الاوسط وحتى تتمكن من الاستمرار في استطراداتنا التاريخية لتاريخ الاسطورة في تطورها الزمني داخل حدود هذه المنطقة التي تقدم اساطيرها لنا خلفية للاساطير التي كتبت ودونت عن موضوع البحث « عن سيف بن ذي يزن » •

لقد تناولنا في سردنا السابق مرحلة نشأة الاسطورة بعد ان مهدنا لها بالشرح عن المقدمات التاريخية التي انبثقت منها الاسطورة في المرحلة البدائية الاولى ، وفي حديثنا اللاحق سوف تتناولها في نماذج من العصور الوسطى في المنطقة العربية ، حيث احتلت اسطورتنا المعنية بالبحث جزءاً كبيرا في عالم الاساطير والتلفيقات الايديولوجية المنظمة •

نشطت في القرن الخامس والرابع قبل الميلاد حركة الجدل في أثينا ، ومن ضمن موضوعاتها التي تناولتها ، التصورات الاسطورية ، حيث حمل « ثوكوديديس » عليها وعلى تأثيراتها في الرؤيا التاريخية عند الانسان ، وتركزت بعض النشاطات الفكرية على الخلاص من كل ماهو خرافي ، فاتجهوا لدراسة الطبيعة ثم السياسة لفهم وتفسير حياة الانسان الفردية والاجتماعية وتلقى الفكر الاسطوري ضربة موجعة على أيدي اولئك الطبيعيين امثال «طاليس» و «انكسيمانس» و خطا « هيراقليطس » و « الايليون » خطوات قوية وكبيرة لوضع « فسيولوجية » جديدة لتفسير الطبيعة والنظر الى الالهة ، وعلى الرغم من ذلك فقد بقيت الاسطورة محتفظة بمكانة جيدة •

واستوعب افلاطون اراء الفلاسفة الذين سبقوه في النفس الانسانية وبدأ يصيغ أفكاره في كتابه « الجمهورية » ليغير النظرة السابقة في مشكلة الانسان وجعل السياسية هي مفتاح السيكولوجيا لقدرتها على تغيير روح الفرد وتشكيله بطبيعة المجتمع ، وعليه يصعب فصل حياة الفرد عن حياة المجتمع لما بينهما من صلة متبادلة ، فلو فسد المجتمع وكان شريرا لعجز الفرد عن النهوض وبلوغ الغاية الطيبة ، ولذا لابد من اصلاح الدولة ، والعثور على النظام السياسي الصحيح هو مفتاح حل المشكلة واعادت

تأملاته السياسية من دولة السماء الى دولة الارض فقام بنقد الفكر الاسطوري مصرا على ان الناس هم الذين خلقوا الهتهم على شاكلتهم ، وان صورة الالهة كما تبدو للناس ليست سوى انعكاس لحياتهم والعكس صحيح ، يمكننا معرفة كنه الطبيعة ، والنفس الانسانية بمعرفتنا لطبيعة الدولة ، ونحن ننشيء مثلنا السياسية على غرار نظراتنا الى الالهة فكل منهما يتضمن الاخر ويعد شرطا له(*) . وحارب افلاطون الاسطورة اليونانية قائلا « اننا لو اغتفرنا وجود الاسطورة في نظمنا السياسية لكان معنى هذا ضياع كل آمالنا في اعادة حياتنا السياسية والاجتماعية واصلاح أحوالها . وبقي حل بديل واحد . فعلينا أن نختار بين التصور الاخلاقي للدولة والتصور الاسطوري لها » وأعتقد ان على الدولة بحكامها وحكمائها صناعة الاسطورة ذات الغاية التي تخدم الدولة والنظام اي أن لا بد من تسييس الاسطورة واخراجها للناس بحسب الحاجة مبتدئين بالنشيء . « فهل يجوز لنا السماح ببساطة لاطفالنا بالاستماع الى أية حكايات قام واحد من الناس بتأليفها ، وبذلك نغرس في عقولهم افكارا غالبا ما تتعارض أشد التعارض مع الافكار التي نعتقد ان من واجبهم الحصول عليها .. يبدو اذن ان أول مهمة لنا هي الاشراف على صنع الحكايات والخرافات . ورفض كل ما هو غير مقبول(**).

ولقد وضعت الفلسفة اليونانية ، ومن ضمنها نظريات افلاطون واجتهاداته ، حدا للفكر الاسطوري السائد والمسيطر على الفكر الانساني بصورة عامة واليوناني على وجه الاخص ، ليستبدله او بتعبير ادق ليطالب أفلاطون باستبداله بفكرة اسطورية مقنونة يضعها الحكماء والفلاسفة على قدر الحاجة ، وتشرف عليها الدولة حتى يتم اخراجها بصورة يجنى منها الفائدة المرجوة . ودعا الى كتابة الاسطورة المسيسة . ولنا تحفظاتنا على وجهة نظره، فالاساطير القديمة كما أمكننا التقاط ذلك ليست جميعها غير مسيسة أو لا تخدم هدفا من أهداف الدولة . فكما ان هناك حكايات من تأليف واحد من

(*) الدولة والاسطورة ص ٩٧ .

(**) انظر افلاطون : الجمهورية .

الناس بلا هدف ، كما يعتقد افلاطون ، فهناك أساطير اخرى يتعاون في نسج خيوطها جماعة في السلطة أو تحت اشرافها لخدمة غاية او هدف يدعم ويثبت اركان تلك السلطة كما حصل في الاسطورة المصرية على سبيل المثال حين عد الملك إله ، وقد سبق وان تطرقنا الى هذا الموضوع حول علاقة الاسطورة بالدولة . الا ان افلاطون معذور في رؤياه فربما وصل اليه من الاساطير ما قدره هو كذلك ، او انه كان يرغب في وضع حد لكل ما قيل وما سطر في الروايات والاساطير الخرافية والتي لم تعد تستطيع مجاراة الفكر القائم انذاك أي في مرحلة اشراق الفلسفة اليونانية حين أصبح الميل الى العلوم الطبيعية كالرياضيات والهندسة والفلك .. الخ . يزداد ويتطور .

وحطمت نظرية افلاطون السياسية سلطان « الامس الابدي » اثرت افكاره في السياسة في الفكر الاوربي والعربي الوسطوي ، وتطور موضوع الاسطورة بتطور الانسان ، واختلفت اساطير العصور الوسطوية عن اساطير عصر العبودية وما قبله . وقد يكون هذا الاختلاف هو الذي أحدث التعدد في هذا المجال فأصبحت الاسطورة فنا قائما بذاته ، وهي التي تحدثنا عنها كثيرا ابطالها من الالهة ، وفصلت عنها الاسطورة التي لعب دور البطل فيها انسان ، وكانت بطولته مطلقة لا يستطيع الوقوف أمامها مردة ولا جان ، وهي ما سميت فيما بعد بالملحمة ، بعد ان تطور موضوع الاسطورة في العصر الوسيط ، وتطورت صور أبطالها فحل الانسان محل الالهة ليؤدي الاعمال المعجزات . ومن الاسطورة والملحمة خلقت القصة الاسطورية الاوسطية فجاء بعضها مزيجا من الالهة والمردة والانسان الذين راحوا في القصة يعملون جنبا الى جنب تكاتفا او تضادا على ما تقتضيه الحال والضرورة كاسطورة سيف بن ذي يزن . وجاء البعض الآخر ليعني بالانسان وبحالته النفسية ، وابعدت الجان والمردة ، وبقي الانسان والله ومخلوقاته الخيرة يصارعان الشر في الانسان لاجل انتصار الخير .

انقسمت الاساطير الى قسمين : الاساطير التعليلية «وهي التي تحاول ان تفسر الظواهر الكونية حولها وقبلها فتنسبها الى قوى غير ظاهرة في سرد روائي يربط بين الفكرة والحركة ويجسد الظواهر لتصبح كائنات متحركة تؤثر وتتأثر بغيرها »(*) • ومنها على سبيل المثال اسطورة خلق الكون • ومنها حكايات السحر والكهانة وهي من مخلفات العهود الاولى في الاسطورة •

وهناك الاسطورة الرمزية « وفي هذا النوع من الاساطير تمتزج قدرات الانسان المحدودة بطاقات طائلة تؤكد قدرته على مواجهة المجهول والتغلب عليه(**) • وفيه يتم ارتفاع الابطال ، بحكم قدراتهم او بحكم ادواتهم الى مصاف اصحاب القدرات الخارقة فيأتون بالمعجزات ويحققون لانفسهم ، او للرمز الذي يرمزون اليه ، الانتصار على القدر او على القوى المعوقة للانسان » •

وتعرف الانسان في العالم العربي في العصور الوسطوية على نوع آخر من الاساطير بعضها كان أميل الى الخرافة ، وهذا ما لسنا بصدده والبعض الاخر دخلته عناصر خارقة للطبيعي والمعتاد الا انه كان ذا موضوع هادف وبهدف سياسي او اجتماعي محدد • وتبنت الدولة ، كما أراد افلاطون ، الموضوع الاسطوري ذي الهدف السياسي المحدد ، اما بقصد تثقيف الشعب وتعليمه تاريخه القومي ، او بقصد آخر يرى ضرورة تطويع نفسية المواطن بالتضخيم او التقليل والتصغير حتى تسهل عملية قيادته ، او بهدف سياسي مغاير وهو الهاؤه عن مشاكله وقضاياه حتى يتسنى لهم ان يسرحوا ويمرحوا فوق كراسي الحكم دون معارضة او مناجزة ، او لهدف ايقاظ الشعور القبلي او القومي المتعصب حتى يمكن به الهجوم لتحقيق قضية معتدية • من أجل هذه الاهداف وغيرها خلقت الاسطورة المسيسة في العصور الوسطى التي رويت بالملحمة كملحمة الزير سالم او بالرواية الطويلة كقصة فتوح اليمن الكبرى الشهيرة برأس الغول او رواية سيف بن ذي يزن •• وهذا النوع من

(*) الدوحة ص ١٥٦٢ يونيه ٧٦ مقالة فاروق خورشيد « عند العرب » .
(**) نفس المصدر ص ٦٣ •

الملاحم او القصص الاسطورة مختلف تماما عن الأدبيات الدينية التي وردت في التوراة والانجيل والقرآن كقصة الخلق والتكوين وقصص الانبيـــاء ، ولن نتطرق لهذا الموضوع لبعده عن موضوع بحثنا من جهة ومن جهة اخرى لاحتفاظه باستقلالية نسبية تجعل منه موضوعا قائما بذاته . ومن هذا التباين في نوعية الاساطير يمكننا ان نستخلص نتيجة تحملنا على ان نقسم الاسـاطير الى ثلاثة انواع : اساطير دينية واخرى سياسية وثالثة اجتماعية وان كانـت الاولى والثالثة يسعيان لتحقيق هدف النوع الثاني من الاساطير كما ان النوع الاول من الاساطير في شطره الاول اي الخرافي قد اوغل في القدم وظهـر مرويا في المرحلة الاولى او ما تسمى بالمرحلة البدائية ثم تطور واخرج مكتوبا ومسطرا في المرحلة الارقى .

وعلى هذا الاساس فان الاسطورة مؤثر عظيم عميق الاثر في الحضـارة الانسانية وهي وثيقة الصلة بكل الافعال الانسانية في ازمنة ما قبل العلم كما انها لا تنفصل عن أي ضرب من ضروب الحياة الجمالية ، بل ولقد تمكنـت بتأثيرها القوي من الفكر الانساني في صورته القديمة ، وحتى العلم لم ينج منها فقد مر بصورته الاولية بمراحل اسطورية قبل ان يصـل الى مرحلتـه الحقيقية المادية .

ان الاسطورة باجماع اراء العلماء هي اولا واساسا جمع من الافكار والمتمثلات والمعتقدات والاحكام النظرية ينصـب في قالـب لغـوي رفيع الاسلوب شعرا ونثرا . ويستوعب في هذا القالب جميع الافكار والمعتقدات للفرد والجمـــاعة ، وتستمر عمليـــة الاثراء الفكري واللغوي بتـــدافع الايام ، وبتحولاتها المكانية . وهو ما حصل في الاسطورة التي نحن بصددها في بحثنا هذا ، وسوف نتابع ذلك من كل مراحل تطورها فالاثراء والاضافات في الجوانب الفكرية (العقائدية) واللغوية انما تم خـلال عملية التطـور الزماني والتبدل المكاني الذي لازم الاسطورة في مسيرتها .

●

الباب الرابع

الاسطورة اليزنية

لعلنا لا نبالغ ان قلنا ان الاسطورة اليزنية قد استحوذت على اهتمام كثير من الكتاب والمحللين الذين تناولوا بالبحث والتحليل بحسب التزاماتهم الايديولوجية الجانب الاسطوري في القضية اليزنية بعد ان تناول شقها التاريخي كثير من المؤرخين والباحثين ، والذين سبق ان استعرضنا مجهوداتهم في الجانب التاريخي من تحليلنا شخصية سيف • وقد يطول بنا الشرح والتحليل ونحن نتناول كل ما قيل عن تلك الاسطورة ، ومن هذا الموقف حرصنا على ان نتناول ما قيل في الجوانب الحساسة للاسطورة والتي نسلط عليها مبضع بحثنا حتى نتمكن من ان نرى مالم يستطيع الفكر المجرد رؤيته او تحديده • فقد عجز أصحاب هذا الفكر واتباعه في كل الدراسات التي وضعوها لدراسة الاسطورة عن التقاط زمن روايتها مع امتداد ذلك الزمن ، كما تخبطوا في تحديد هدف هذه الاسطورة بصورة خاصة وكل القصص الاسطورية التي شيد هيكلها على نفس نمط هيكل اسطورة سيف ، كما وقفوا موقفا عاجزا تجاه قائلها ، والوصول الى معرفة هذه الجوانب يسهل علينا تلمس طريقة المعرفة الحقة بعد نزع الغشاء الاسطوري عن الوقائع التاريخية لالحاقها بالزمن الذي سبقها وتلاها ، ومد جسور مرئية حتى فترة معايشتنا لها في الآن •

تجمع الآراء السابقةعلى ان زمن كتابة الاسطورة اليزنية ، يعود الى القرن الرابع عشر مستنتجة رأيها من الاسطورة وحوادثها وشخصياتها ، وأهم الشخصيات شخصية الملك الحبشي « سيف ارعد » وهو الذي حكم الحبشة في القرن الرابع عشر وبالتحديد بين عام ١٣٤٤ – ١٣٧٢م • وكان من ضمن من طرح مثل هذا الرأي الدكتور فؤاد حسنين علي والذي يقول « وكتابة هذه السيرة التي يرجح انها وضعت عقب وفاة سيف ارعد • اعني حوالي نهاية القرن الرابع عشر او اوائل الخامس عشر» • ويستمر في تأكيداته على زمن كتابتها وتأليفها ومكان ذاك التأليف فيقول : «في تلك الفترة الفت السيرة ، ومصر هي موطنها • وذلك ما يلمسه القارىء فيها » • ويشارك الدكتور فؤاد رأيه هذا فاروق خورشيد وقد قدم رأيه في مقدمته لقصة سيف بن ذي يزن • والتي اعاد كتابتها بما يتلاءم وروح هذا العصر وفي معرض حديثه عن تاريخ القصة في الوطن العربي يقول « بينما كانت سيرة « سيف بن ذي يزن » حوالي القرن الرابع عشر الميلادي ، وفي هذه الحدود الزمنية تقريبا يرجح ان سيرة « الظاهر بيبرس » قد تكاملت ويورد مستدلا على كتابتها في القرن الرابع عشر رأي « ابن كثير » والذي عاش في ذلك القرن وتوفي ١٣٧٣م في السير الشعبية التي كانت متداولة على زمنه ليقطع بعد ذلك في الرأي « شهد اذن القرن الرابع عشر الميلادي الذي عاش فيه « ابن كثير » تغلغل هذه السيرة الشعبية وانتشارها عند الناس ، بل شهد ايضا نوعا من المعارك بينها وبين العلماء ويثبت وجودها وخطرها » ، ويعتمد فاروق خورشيد على رأي الدكتور فؤاد حسنين في ان السيرة كتبت في ذلك القرن والذي استنتجه الدكتور في وجود شخصيات رئيسية فيها على رأي السلطة في الحبشة حالئذ •

وقد أفادتنا شخصية « سيف ارعد » في تحديد زمن كتابة هذه السيرة ، وليس هذا فحسب بل أفادت كذلك في تحديد هدف كتابتها ، حيث يواصل الدكتور حديثه « وهي تفيدنا كذلك في تجديد سبب كتابتها وسوف نأتي فيما بعد لتناول هذه النقطة حين نستطرد في شرح وتحليل الهدف الذي

كان الدافع الى تأليف هذه السيرة » • ويعلل فاروق خورشيد رأيه هذا بسوق الحوادث السياسية والعسكرية التي وقعت بين مصر والحبشة في تلك الفترة مستشهدا بالسرد التاريخي الذي قدمه الدكتور عبدالمجيد عابدين عن طبيعة تلك العلاقات وعن الاوضاع السياسية السائدة انذاك • ليخلص الى نتيجته ليؤكد عليها بحرارة « وفي هذه الفترة التاريخية اذن والتي يرجح ان سيرة « سيف بن ذي يزن » قد كتبت فيها ، كانت الحبشة تمثل عند المصريين مركزا من مراكز العدوان على العالم الاسلامي بعامة ، وعلى بلادهم بخاصة وكان من الطبيعي ان ينعكس هذا على الوعي الشعبي وان يظهر في تعبير الشعب عن نفسه » •

وقد تلاحقت الآراء بعد ذلك على نفس النسق ذلك انها استمدت من هذا الرأي مادتها فتشكلت افكارها وقناعاتها على مشاكلته ، وذهب الجميع ليؤكد نفس الرأي خاصة وان تلك الفترة كانت فترة انحطاط وجمود للفكر العربي كنتيجة طبيعية لتلبد الاوضاع السياسية اثناء حكم المماليك في مصر وما جروه من ويلات على الواقع العربي بصورة أشمل والفكر بأكثر خصوصية ، وقد أتسم هذا العصر بميسم تخلفه العلمي وعودة الحياة للسحر والخرافة والشعوذة • وكان الميل الى الرأي القائل بأنه في وسط هذا الجو البعيد عن العلم حصل الوفاق بين الفكر الاسطوري والجمود الفكري لينتجا معا القصص الاسطورية •

الاحداث التاريخية في الرواية الاسطورية :

هناك رأيان مطروحان حول الفترة التي ألفت فيها الاسطورة ولا نريد ان ندحض هذا الرأي او ذاك ، الا اننا نملك موقفا من الاثنين يحمل مزيدا من الايضاح وينقل القاريء الى العيش في جو الرواية وزمن سردها ومكانه ، وتلك محاولة لاعادة تركيب الظروف والاوضاع جميعها في تلك الفترة وهو العمل الذي قدمناه في سردنا وتحليلنا التاريخي للحظة التاريخية ، وقد ادركنا فيها قصة مصرع سيف بن ذي يزن والجهة المتحملة مسؤولية مقتله ولماذا

اقدمت على فعلتها ، تحت أية أسباب ولاي هدف ؟؟ وقبل ان نقوم بتحليل الاسطورة اليزنية سنقوم بتحليل الرواية في جانبها الاسطوري لنقدمها بفكرتها التاريخية المادية • والقصة تروي نضال الاسلام ضد الوثنية زمن الجاهلية كما هو متعارف عليه ، ويمثل العنصر الاساسي فيها الاسلام ويمثل العنصر الحامي فيها الوثنية • يمهد للسيرة بالحديث عن ملك يمني هو ذو يزن ووزيره العاقل المسمى « يثرب » وهو اسم لم نتعرف عليه في كتب التاريخ بعد أما ذو يزن فربما يقصد به ذو نواس ، لكن ظروف الرواية اقتضت ان يكون الملك هو والد سيف ، وعلى كل فمن المعروف تاريخيا ان الملك سيف هو سليل اسرة يمنية عريقة رفيعة المكان بحسب سرد المؤرخين النسابين العرب والمسلمين وعلى رأسهم الهمداني • كان الوزير « يثرب » من القلائل المطلعين على كثير من الكتب القديمة كالتوراة والانجيل • وقد انبأته الكتب بظهور شخصية في الجزيرة تدعو للتوحيد بخالق السماوات والارض مع التبليغ باسمه كذلك •

وتستعرض السيرة علاقات جنوب الجزيرة بشمالها ، وقد اتصفت بطابع عدواني ، فقد سار ذو يزن لمحاربة ملك يدعى في السيرة « بعلبك » يحاول ذو يزن في زحفه هدم الكعبة ونقلها الى اليمن، ويجابهه الفشل بسبب الامراض التي فتكت به ، وعلى اثرها وبنصيحة ومساعي وزيره يثرب يعتنق الاسلام ويقلع عن فكرته ويبالغ في اشهار اسلامه وايمانه بتقديم كسوة للكعبة ، وفي هذا الجو المفعم بالمشاعر تجاه الاسلام ، يشهر الوزير اسلامه ويبني مدينة جديدة تحمل اسمه «مدينة يثرب» وهي المدينة التي حول اسمها بعد هجرة الرسول الى المدينة وقد بناها بحسب ما انبأته الكتب • ويتقدم ذو يزن في عمق الجزيرة ويتجاوزها الى مدينة بعلبك ليسلط سلطانه ثم يتجه الى القرن الافريقي ، الحبشة • ويزحف على السودان وبذلك يشمل النفوذ اليمني الرقعة الواسعة من الارض العربية والافريقية • وتروي السيرة قصة نوح وولديه سام وحام باعتبارها من الحوادث الدينية التاريخية المهمة ثم دعوته على حام وما تبع ذلك من أساطير •

وتركز السيرة على العلاقات بين الاسرة السامية الحامية سلبا وايجابا وعلى وجه الخصوص الجانب السلبي فيها ، حيث كانت وما زالت تنشب بينهما حروب طاحنة وتحت مبررات متنوعة فحينا تشتعل بحجة الغيرة على الدين وحينا آخر لسبب عنصري وثالث قومي .. الخ .

وتلتقط السيرة صورة تبرز عمق العلاقة بين اليمنيين والاحباش فاليمني الاصل يمكن ان يكون حبشي المولد كما يحدث العكس . ولد سيف في افريقية ويحمل لقب وحش الفلا وقاد الجيوش اليمنية لطرد الاحباش في اليمن عام ٥٧٠م وبمساعدة الجارة الكبرى فارس،ويشتبك البلدان المتجاوران الصديقان العدوان في معركة ضروس يقودها عن الجانب اليمني سيف بن ذي يزن ، وهو من رجالات القرن السادس الميلادي ، وفي الجانب الحبشي الملك سيف أرعد وقد حكم الحبشة بين عامي ١٣٤٤ - ١٣٧٢م . يدفعهما في حربهما الحرص الشديد على النيل لضمان استمرار تدفق مياهه من الحبشة الى مصر .

تلك هي الحوادث التاريخية التي استطعنا استخلاصها عن السيرة بصرف النظر عن اللبس الزمني والمكاني والفكري الذي فيها بعد ان جردناها من جوانبها الاسطورية ، والزمنا انفسنا مجانبة الخيال محاولين قدر الامكان معرفة الحوادث لتحليلها واعادة تركيب جزئياتها لنتعرف على حقيقة الاوضاع السياسية والعلاقات بين البلدان الواقعة على طرفي البحر الاحمر الشرقي والغربي في تلك الفترة وكذا في امتدادها وأبعادها المستقبلية . وسوف نتطرق الى هذا الموضوع حين نأتي على ذكر الاوضاع السياسية التي كانت سائدة مع انتعاش السيرة لنتعرف منها على الاهداف والغايات التي وضعت من أجلها السيرة .

موجز عن الرواية الشعبية :

نظرة سريعة وموجزة في الجوانب الاسطورية الخيالية للسيرة لتسهيل عملية الالمام بالسيرة « الاسطورة » وبعد ان قدمنا صورة موجزة عن أهم

الحوادث التاريخية التي ركزت عليها السيرة للتعرف على عملية التركيب التي تمت في السيرة بين الحوادث التاريخية والمشاهد الاسطورية •

تقع السيرة في أربعة مجلدات ، ويقع كل من المجلد الاول والثاني في ثلثمائة وأربعة وثمانين صفحة ، أما الثالث والرابع فيحتوي كل منهما على ثلثمائة وعشرين صفحة ، تلعب فيها ادوار البطولة اثنتان وثلاثون شخصية • والشخصيات المهمة فيها ، هي الشخصيات التاريخية الحقيقية الملك اليمني سيف بن ذي يزن والملك الحبشي سيف ارعد ثم يأتي بعدهما في الاهمية شخصيات انسانية من غير المستبعد ان تكون شخصيات واقعية الا ان ادوارها السياسية غير مؤكدة تاريخيا ثم بقية الشخصيات الانسية واخرى سليلة الجان والمردة • ويدور الفصل الاول حول الملك ذي يزن ووزيره يثرب • فتوحات الملك الحميري وصولاته في المجال السياسي والعسكري • الملك يزحف بجيوشه على الجزيرة تراوده رغبة نزع الكعبة من مكانها وتحويلها الى اليمن ، وهو العمل الذي كان يرغب فيه القائد الحبشي لجيوش الغزو « ابرهة الاشرم » ولم يوفق فيه • ويفشل الملك ذي يزن في الرؤية كما فشل ابرهة الاشرم في الواقع ويصاب بأمراض لا يشفى منها حتى يقلع عن فكرته ، وتأتي نصائح وزيره كعامل مساعد للعدول عن الفكرة نهائيا واعلان اسلامه ، وهنا فقط تتفتح له أبواب الخير والفتح الميمون فيسير بجيوشه الى بلاد الشرق فيتقابل مع ملكها « بعلبك » الذي يرحب بقدومه ويستعرض كل منهما امام الآخر عظمة ملكه ويتفقان على مبارزة فرسانية ينتصر فيها الملك اليمني على ملك بعلبك ويستحوذ على مملكته •

وبعد ان فرض سلطان اليمن على الجزيرة وبلاد الشرق يزحف ذو نواس على الساحل الغربي للبحر الاحمر • حوادث هذا الفصل لا تسيرها غير الارادة الربانية ، ولا وجود للجن والمردة فيه لانها تدور في الجزيرة وهي مهبط الديانات المقدسة • يقدم الجن والشياطين على الرؤية في فصلها الثاني من افريقية وبالتحديد من بلاد الحبشة يجتمع ملك ملوك الاحباش والسودان

المعروف بالملك سيف ارعد بوزيره « بحرقفقان الريف » وكان يدين بالاسلام سرا ومعهما الحكيمان « سقرديوس » و « سقرديون » ليتباحثوا في امر الانزال اليمني في ارضهم الافريقية يفكر الملك غاضبا في الغزو والابادة للجيش والشعب اليمني « انظروا الى هؤلاء العرب عدماء العقل والادب الذين نزلوا في ارضنا ولم يستأذنونا في ملكنا ، وانا عولت ان اغزوهم واخرب ديارهم واقتل كبارهم وصغارهم ، وانهب اموالهم وعيالهم(*) . يثنيه الجميع عن فكرته وبحنكة سياسية يدبرون حلا لقتل الملك اليمني ذي يزن دون اراقة دماء بين البلدين الشقيقين . تتلخص الفكرة في الدخول من مدخل حساس وهو اللعب بعاطفة الملك اليمني ومشاعره الانسانية بارسال جارية جميلة كهدية له تحمل معها السم ، وفي اللحظة المناسبة تنقض عليه . تتجاوب الجارية « قمرية » مع مهمتها لغاية في نفسها ، ويتم كل شيء بالصورة المطلوبة .

قلنا سابقا ان الوزير بحرقفقان الريف كان مسلما في سره في الوقت الذي كان أهل الحبشة يعبدون الكواكب وعلى رأسها كبيرهم زحل ، وبحكم الرابطة الدينية التي تجمعه بأهل اليمن وعلى رأسهم الملك ذي يزن فقد ابت عليه عاطفة الاخوة الدينية الا ان يبلغ اخوته بخبر المؤامرة ، فأرسل مع عبد يثق فيه خطابا الى الوزير يثرب يخبره بالمؤامرة ، ولم تصل الجارية قمرية الا واخبار المؤامرة وخيوطها معروفة ، واستطاعت قمرية ان تتخلص من المأزق بذكاء وخبث ، كما استطاعت بجمالها وذكائها ان تحول الاوضاع الحرجة التي كانت ضدها بعد انكشاف المؤامرة الى واقع مغاير في صالحها . وهام الملك ذو يزن بحبها وتزوجها وانتقلت الى قصره الملكي .

كان الملك سيف ارعد يتابع اخبار جاريته التي تحمل في جعبتها المؤامرة الضخمة على اليمن ومليكها ، وحين عرف ان مجرى المؤامرة قد تغير غضب لذلك غضبا شديدا ، وكما يبدو من تصرفاته في الرواية فقد كان سريع الغضب

(*) سيرة فارس اليمن الملك سيف م١ ص٧ طبعة القاهرة ، د . ت .

عجولا شديد الانفعال الا ان الحكيمين سقرديوس وسقرديون كانا يهدآن من روعه ويطلبان منه ضبط النفس ، فقد كانا يدركان ابعاد خططها الجديدة في التخلص ببطء وحذر من الملك ذي يزن ، خاصة وانه كان حذرا منها للغاية .

تواصل قمرية تنفيذ مهمتها وتدس للملك ذي يزن كل يوم جرعة من سم كان معها حتى تأتي عليه ، ويوصي ذو يزن وصية وهو في النزع الاخير فيدعوهم الى الايمان بالله وتصديق رسالة ابراهيم الخليل ، ويوصي بالملك للجارية قمرية من بعده حتى تلد ، فان كان ذكرا كان الحاكم ، وان ولدت انثى آل الحكم الى من يتزوجها .

سيف في طفولته وصباه :

قفزت قمرية الى كرسي الحكم تأمر وتنهي حتى وضعت مولدها الذكر وقد سلكت لقتله جميع السبل ونصحتها جاريتها الا تقدم على الفعلة بيدها فينتقم منها أهل اليمن ، ووعدتها ان تدبر لها موضوع التخلص منه واسعفها فكرها بوسيلة معروفة ، رددها الفكر الاسطوري الشرقي كثيرا قصة موسى وهو رضيع ، ويحمل سيف كما حمل موسى ، مع اختلاف المشاعر والهدف ، الى واد فسيح مقفر ويوضع الطفل تحت شجرة ، وهو مزود بكيس الدنانير والذهب ، وتنسحب الجاريتان تحت جنح الظلام ويبقى الوليد وحيدا . عودنا هذا النوع من الاساطير ان يلعب الحيوان فيه دورا عاطفيا غريزيا . فتدركه هذه المرة غزالة تغيثه برضعة لبن حتى يدركه صياد يحمله معه الى قصر ملك المدينة المعروف في الرواية بالملك « أفراح » وهو من اتباع الملك « سيف ارعد » ويروى له حكاية حصوله على الطفل .

نطالع في الرواية رد الفعل الطيب عند الملك افراح تجاه الطفل فيقرر تبنيه ، وبينما هو في فرحته يدخل عليه الحكيم سقرديون كرسول من الملك سيف أرعد فيرى الرضيع ويعرفه في الحال من امارة الشامة التي على خده الايمن ، ويسرد عليه الملك افراح قصة العثور على الطفل فلا يصدقها الحكيم

ويطلب التخلص من الطفل حالا في جو الاستغراب والدهشة الذي وضع فيه الملك افراح ، يشرح له خطورة الطفل حين يكبر على عبدة الكواكب ذلك انه من دعاة التوحيد والعلامة التي على خده اشارته ومعجزته ، وتشبه هذه الفكرة فكرة ولادة الرسول ، كما يرويها المسلمون حين ولد مكحلا مختونا .

ويكرر الفكر الاسطوري هذه الفكرة لكل الشخصيات الحقيقية والوهمية التي يصنع منها بعد ذلك شخصيات عظيمة تأتي الخوارق والمعجزات . يشرح الحكيم للملك ما ستحمله الايام على يد سيف ، والذي سيحكم الانس والجن بسيف « آصف بن برخيا » ، وهو وزير النبي سليمان إبن داود ، ويبدو انادخال العنصر اليهودي كطرف فيالقصة كانضروريا خاصة اذا عرفنا ان للقصاصين اليهود اليمنيين ، وعلى رأسهم وهب بن منبه(*) دورا كبيرا في صياغة تلك الروايات والقصص . يبقى السيف معلقا فوق جثمان آصف فترة زمنية طويلة حتى يكبر سيف ويحصل عليه بعد صعوبات ومشاق جمة سنتعرف عليها في حينها .

يبدو الملك افراح هنا كمنقذ لحياة الطفل يصر على موقفه ، تدخل علاقاته مع السلطة الحاكمة في الحبشة مرحلة جديدة . خاصة بعد ولادة زوجته بطفلة تحمل على خدها هي الاخرى شامة . تجتمع الشامتان ، وفي اجتماع الشامتين مغزى يعرفه الحكيم ، ففي اجتماعهما نهاية لعبادة الكواكب كما فيه نهاية حكم ملك الحبش . وتحت اصرار الحكيم يفرق الملك افراح بين الطفلين ويسمي المولود الذكر بـ « وحش الفلا » . يختطف المولود من الجارية وهي لا ترى أحداً بل تسمع صوتا ثم يختفي على اثره المولود تتبناه الجان وقد ظهروا في الرواية لحل عقدة الموقف وتبقى الجنية وهي ملكة جبال القمر ومنابع النيل عندها ثلاثة اعوام ترضعه مع ابنتها عاقصة ثم تعيده الى الملك افراح . وكان لابد من توفير الحماية له فبقي في كنف الملك افراح حتى يكبر .

(*) حفظ لنا وهببن منبه في كتابه التيجانكثيراً مناخبار ملوك اليمن وتبابعته.

بدأ سيف يتعلم الفروسية حتى بلغ اربعة عشر عاما • وهنا يتكرر الموقف الحرج للملك افراح والذي عاشه قبل تلك الأربع عشرة سنة يرى الحكيم سقرديوس الصبي ويعرفه ويعنف الملك على فعلته ويطلب منه التخلص السريع من الصبي او الوشاية به عند الملك «سيف ارعد» • ومداراة للحكيم تخلص الملك افراح من الصبي بان سلمه لفارسه الشجاع المسمى في الرواية ب « عطمطم » هرب « وحش الفلا » من مدربه عطمطم بعد ان عزم على التخلص منه حين شعر بقوة الشاب الصغير وادرك من فروسيته انه الملك اليمني المنتظر • وصل وحش الفلا الى غار في داخله رجل اعجمي جلس اليه يشكو حاله : وهو لم يعرف بعد ان الرجل ينتظره منذ زمن حتى اخيره بذلك ثم بدأ يعلمه بخبر الكنز الذي ينتظره تحرسه الجان من الغار والسوط المطلسم معه •

ويلعب فريق من الجان دور المحامي والحارس الخفي للصبي حتى يتم ترتيب الرواة لاراحة المستمع في بعض المواقف • دور الرجل الاعجمي ابطال السحر والحكمة المضرة بوحش الفلا كما يقول هو • الا انه فيما تبع ذلك من احداث يبدو فيها ان ذاك الرجل كان يخادع وحش الفلا لينتزع منه السوط • ينتهي الموقف بين الاثنين بقتل الرجل الاعجمي ويبدو انه اول ضحية للملك سيف •

يواصل وحش الفلا سيره فيصل الى مدينة يراها مغلقة وكل من فيها يبكي كأنهم في مأتم وحين يتسقط الاخبار يتضح له ان شابة جميلة يعرف فيما بعد انها شامة سوف تزف عنوة الى عفريت من الجان ليتزوجها(*) ، ويحزن الناس خاصة ان المعشوقة الشابة هي شامة • ويعزم وحش الفلا على تخليصها بقوة الملك المعبود رب الوجود •

(*) زواج الجان من الانس والعكس قضية سيطرت وما زالت مسيطرة على الفكر العربي الاسطوري فما زلنا نسمع بها من البيئات المتخلفة في مجتمعنا العربي حيث تعشعش الخرافة والشعوذة •

وحش الفلا يستخدم السوط المطلسم فيقطع يد المارد ، ويخرج بدل الدم دخان ذلك ان الجن من نار يتألم المارد من ضربة وحش الفلا فينشـــر اجنحته ويطير .

مكائـــد الحكيـــم سقرديون :

ادركت شامة ان وحش الفلا هو الذي نجاها وأباها من المارد فتعلقت به واحبها وطلب من ابيها يدها للزواج الا ان الحكيم سقرديون سمع بالخبر فحذر من مغبة ذاك الزواج، يتحايل على وحش الفلا يطلب مهرها رأس عبد زنجي اسمه سعدون الساكن في قلعة الثريا ، يقبل وحش الفلا الطلب التحدي يخرج في غابة يسير وحيدا في الوادي وبعد ثلاثة ايام يقابل شامة التي تحاول ان تؤنسه في وحدته ، اللقاء هنا لراحة سيف والسامع معه ، ثم ليواصل المسيرة مع اول تحد في حياته قبله بمحض ارادته وتعود شامة الى المدينة .

يصل وحش الفلا الى قلعة كبيرة مغلقة يدخل القلعة بعد ان اختبأ وسط الرجال واسراهم يقع داخل القلعة في مأزق فيرى الموت بعينيه حين تهوى به الارض من تحت قدميه الى جب عميق . مرة ثانية يقابل شامة حبيبته التي كانت قد تبعته واختبأت مع القافلة تدله عـلى معارج وطرقات القلعة التـي كانت تعرفها وهو يتبعها الى ان وصـل الى باب كبـير لغرفة واسـعة يجلس فيها ثمانون رجلا وامامهم فارس مهول كان يأمرهم باحكـام وثاق الاسرى . يشعر هذا الفارس المسمى سعدون بخطر يتربص بهم داخل القلعة خاصـة بعد مقتل اثنين من رجاله يتقابل الرجلان ويتبارزان بمهارة فائقة يكاد الفارس سعدون ان يتمكن من وحش الفلا تسارع شامة بقذف خنجرها الى ساعده فيسقط سيفه ويتوقف وحش الفلا عن الطعان فليس من شيم الرجال الغدر .

يتبـارز الفـارسـان من جديد خـارج القلعـة تحـت الحـاح وحشـ الفلا الذي لم يكن يطلب غير رأس ذاك الفارس كمهر لزواجه من شامة وقد تمكن منه في مبارزتين ، وحين احس الفارس ببأس مبارزه استسلم له ورحل

ثلاثتهم الى الملك افراح وكان هذا اول انتصار له في التحدي الـذي فرض عليه بالمكر والخديعة • ولم يأت ذاك الانتصار الا نتيجة ايمانه بالله ورسله فما ذاك السيف الذي بيده الا سيف آصف بن برخيا وزير النبي سليمان بن داود •

يقبل الجميع على المدينة يتحصن الملك « افراح » والحكيم سقرديون وراء اسوار المدينة توقعا للمشاكل الجديدة القادمـة بقدوم وحش الفـلا وسعدون تفتح لهم الابواب بعد التأكد من الركب يدخلون على الملك افراح ويعاتبهم سعدون • يتخلص الحكيم بسرعة بطرح مبرراته في طلبهم رأس سعدون بانه اختبار لشجاعة وحش الفلا وحين تهدأ الخواطر يتقدم سـيف بطلبه مجددا يدخله الحكيم في مغامرة أخرى وهي البحث عن كتاب النيل ـ وهذا يعني الدخول في مغامرة لمعرفة منابع النيل والاطمئنان على بقاء تدفقه الى ارض مصر وتأكيـد سيطرتها عليـه ، خاصـة بعد التهديدات التي كان المصريون يتلقونها من حكام الحبشة • في هذه المغامرة تبدو عزيمة وحش الفلا منهكة وقواه خائرة يقبل الشرط الجديد على مضض فيقطع الصحارى والاكام حتى أشرف على جبل ، وفي جانبه صومعة يسكنها رجـل يسـبح بذكر الرحيم وقد سلم عليه ورد الشخص التحيـة بافضـل منها « وعليـك السلام ورحمة الله وبركاته واهلا وسهلا بملك بلاد اليمن وغيرها من الامصار والدمن الحاكم على هذه الاقطار وسائق النيل من بلاد الحبش الى اراضي الامصار مانع الظلم والفتن حاكم صـنعاء وعـدن وصحارى الحبش ، وما يتبعها من القرى والمدن الملك سيف بن ذي يزن » يعترض سـيف بـان اسمه وحش الفلا • الرجل العجوز كان يعرف القصة كلها فاسمعها للملك سيف « اعلم ان هذا الاسم جاءك من الملك افراح وأما اسمك الاصلي فهو سيف من عند الملك الفتاح » اذن فقـد كان اسمه سيف من عند الله مثلـه في ذلك مثل الانبياء فموسى بشر بعيسى لان الله ابلغـه بذلك اسمه المسيح ابن مريم وعيسى بشر بمحمد لانه عرفه من السماء المكتوب عليها اسم احمد•

والملاحظ ان الرواية تعطي لسيف نفس مواصفات الانبياء يستغرب وحش الفلا ذلك فلم يسمع باسمه غير هذه المرة • يوضح له الناسك حقيقة اسمه « يا ولدي اسمك الحقيقي سيف بن ذي يزن على أهل الكفر والمحن لانك تقيم العدل في الاحكام وتؤيد الاسلام وعلى يديك تنفذ دعوة نبي الله نوح عليه‌السلام فانت يا ولدي من الذي تعبد؟ » يرد عليه‌سيف بقدر فهمه ياسيدي انا على قدر فهمي ان المعبود هو الله ولكن لم اجد من يفهمني شيئا حتى كنت اتبعه• انا رأيت هؤلاء السودان يعبدون « زحل » • ولاهمية هذا الموضوع نرى ضرورة الوقوف امام تلدراما التي أصبحت تتكرر في أكثر من قصة •

الشيخ – « يا ولدي لا يعبد بحق الا الله عز وجل الذي خلق الارض والسماء وأجرى بقدرته البحار وفجر الانهار وهو الله الواحد القهار » • ويشدد على ضرورة عبادة الله• «فاعتمد يا ملك سيف على عبادة الله ولا تركن الى سواه » •

سيف – « يا سيدي وايش أقول من القول المبين حتى أكون من الفائزين » •

الشيخ – يا سيف يا ولدي قل اشهد ان لا اله الا الله وان ابراهيم خليل الله وان محمدا رسول الله وهو آخر الانبياء وختامهم الذي يبعث في آخر الزمان من نسل معد بن عدنان •

سيف – اريد ان تكون واسطة لي تعلمني ما علمك الله •

الشيخ – أمدد يدك في يدي • المنظر يد الناسك يحتضن يد سيف القوية •

سيف : « أقول على يديك اشهد ان لا اله الا الله وأشهد ان ابراهيم خليل الله وهو أبو الانبياء واشهد ان محمدا رسول الله خاتم الانبياء والمرسلين

وهو نبي آخر الزمان الذي يبعثه الله من نسل عدنان » • ثم يبقى سيف عند الناسك ليلة يشرح له فيها الطريق المؤدية للحصول على كتاب النيل(*) •

مغامرة سيف للحصول على كتاب النيل :

سار سيف كما تروي السيرة ثلاثة أيام حتى وصل الى بحر واسع انتقل من شاطئه الشرقي الى الغربي على ظهر دابة كبيرة ثم التقى بفارس بارزه بلا مبالاة ادهشت الفارس والتي اكتشف بها حقيقة مبارزه ، ثم يماط اللثام عن الفارس كما أميط عن سيف فاذا به شابة جميلة من الكهنة اسمها طامة ابنة حكيمة من الكهنة اسمها الحكيمة « عاقلة » • جلست طامة تقص عليه قصتها التي قرأتها لها امها الحكيمة عاقلة في الرمل وخلاصتها انها سوف تتزوج ملكا من بلاد اليمن اسمه سيف بن ذي يزن والذي سوف يصل الى بلاد الحبشة لطلب كتاب النيل وتخبره انها ستقوم بحراسته من أرصاد المدينة حتى لا يقع في يد ملكها الجبار « قمرون » • وتعطي هذه الأرصاد اشارات للحكماء اذا دخل على مدينتهم « قيمر » دخيل ، وللدخول الى المدينة ابتكروا صنعة تحمل الملك سيف من فوق سور المدينة وتمكنوا بذلك من الدخول الى الداخل الا ان الحكماء وعددهم في تلك المدينة ثمانمائة وستون حكيما ومعهم الملك « قمرون » أدركوا ان الغريب قد دخل مدينتهم فتجهزوا في حملة تفتيش واسعة ومن بيت الحكيمة عاقلة كان الملك سيف وطامة والحكيمة يتابعون الحملة • وقد خبأت الحكيمة سيف بطريقة سحرية حتى تموه على الحكماء قراءتهم الرمل • وتذهب الحكيمة لمقابلة الملك الذي يشكو اليها دخول الغريب للمدينة • تصارع الحكيمة عاقلة الحكماء بواسطة السحر • الصور السحرية هنا والتي ما زالت تستخدم عند بعض القبائل الافريقية الى يومنا هذا ، هي من بقايا المرحلة السحرية التي سبقت الاسطورة ، والتي جئنا عليها في استطرادنا التاريخي لتطور الفكر الانساني والنقلات التاريخية التي حدثت له • الصورة هنا طائر مربوط الاجنحة على ظهر غزال ومثبتة بعصا مربوطة بحبل من وسطها ، وطرف الحبل

(*) السيرة م١ ص٦٩ .

الثاني في بكرة رفعت الغزال ورفعت معه سيف الى ان أصبح في بطن الغزال وقد اربكت رؤيا الحكماء التي كانت ترى ان الغريم ابتلعت ثلثه سمكة وانقض على ثلث منه طير ولم يبق منه غير الثلث • بقيت الحكيمة عاقلة والحكماء يتجاذبون بالسحر اخفاء الملك سيف والعثور عليه وهو في وسط المدينة وقد سبب ذلك فتنة بين الملك والحكماء ، وفي نهاية الامر تتمكن الحكيمة عاقلة من ان تخدع الملك قمرون ويصل الجميع الى مكان كتاب النيل للاطمئنان على وجوده وكان معهم سيف متنكرا بزي الخدم ، وما ان شاهد اهل المدينة الكتاب حتى خروا ساجدين ، وهنا انتهز سيف الفرصة ليضع يده على الكتاب الذي ارتمى بدوره تحت اقدام سيف • يدرك الملك الخديعة • يلتف حوله الجميع وبعد معركة حامية الوطيس يقع سيف في ايديهم ويرسل الى الجب مجندلا • الصورة هنا هلاك سيف الوشيك فماذا سينتجع الفكر الاسطوري من معجزة ينتزع بها سيف من ورطته وموته المحقق •

وبينما سيف في حزنه يتضرع الى الله تظهر المعجزة ، فقد انشق حائط الجب عن شخص طويل يصل رأسه الى سقف الجب ، وكان مفاجأة قوية ومذهلة لسيف فقد طلب منه الشخص العملاق ان ينقذه في الوقت الذي كان في حاجة الى الانقاذ ، ثم كانت المفاجأة الثانية فذاك الشخص كان فتاة من الجن اسمها « عاقصة » بنت الملك الابيض وفوق هذا وذاك من المفاجآت ، فقد كانت هي وقومها يؤمنون بالله رب العالمين وقصتها انها جاءت تطلب النجدة من سيف من مارد جبار اراد ان يتزوجها : وبطبيعة الحال وكما هو متعارف عليه في العرف الاسلامي فلا يمكن لامرأة مسلمة ان تتزوج من رجل كافر وقد طبق هذا التشريع في قصة سيف حتى على الجان • المهم ان امهـا وهي امه التي ارضعته وليدا قد نصحتها باللجوء الى سيف للتخلص من المارد الكافر الذي يريد ان يتزوجها • تحمل عاقصة سيف الى صومعة الشيخ عبدالسلام والذي بقي طوال الليل يعلمه تعاليم الاسلام ، وفي الصباح اوصلته عاقصة الى قصر المارد الكافر ليجهز عليه وهناك كان في انتظاره اربعون فتاة وحين رأينه نادين عليه باسمه الحقيقي وعرفنه على انفسهن وكانت من بينهن

بنت ملك الصين الملكة ناهد وبقية الفتيات هن بنات ملوك الاقاليم الانس • وقد خطفهن المارد الكافر • اراد هذا المارد ان يتزوج من الجن والانس من عاقصة الى ناهد بنت ملك الصين والتي اسلمت وقتها على يد سيف هي وبقية صاحباتهـا • يصل في تلك اللحظة المارد ويعرف سيف فيكشر عن أنيابه للانتقام وهو نفس المارد الذي اراد أن يغتصب شامة ليلة وصول سيف الى مدينتهم • بادره سيف بضربة من سوطه احالته الى كومة من تراب وبالمقابل طلب سيف من عاقصة اعادة البنات الى اهاليهم وقد لبت طلبه وحملتهن الى أقاليمهن وبقيت الململكة ناهد بنت ملك الصين التي رفضت العودة وعرضت على سيف ان يتزوجها الا انه رفض وابلغها انه يعد العدة للزواج من شامة فدعت عليه ودعا عليها وركبت ظهر عاقصة لتعود حزينة الى وطنها •

حملت عاقصة سيف وأوصلته الى قبة عالية يخرج منها الماء من أربع جهات هي منابع لانهر أربعة اثنان يغوران هما سيحون وجيحون واثنان يجريان فوق الارض هما النيل والفرات • وقد حملته عاقصة بناءاً على مشورة « عبد السلام » الى عجائب الدنيا السبع المدائن المطلسمات ، ويستمر الخيال الاسطوري مجنحا ليتفرج سيف على غرائب الدنيا وعجائبها • تحلق به فوق المدن السبع • المدينة الاولى على ابوابها سبعة من الفرسان يشبهون بعضهم ورغم ذلك يتقاتلون • في هذه الصورة يبدو الرمز الواضح وهو يشير الى أهل منطقة واحدة مختلفين وقد بلغ اختلافهم ذروته بالقتال والطعن ، يرفض سيف أي يرفض الفكر الشعبي ، هذا الموقف العدائي وهو في مرحلة انحطاطه ، ينهاهم سيف فيمتثلون لنهيه ويوقفون الضرب والطعان • ويحشر الفكر الشعبي بفهمه فيلسوف اليونان أفلاطون ويبلغ الفرسان سيف ان أباهم افلاطون ترك لهم قبل موته تركة عظيمة كل واحد منهم يريد ان يأخذها لنفسه • ومن فهم ذاك الفكر للامور • سيف افلاطون « الحقيقة ممزوجة بفكر اسطوري » فقد ترك قلنسوة صنعت بالحكمة ، كل من لبسها يختفي عن الجن والانس وقد جربها فاختفى عن الفرسان السبعة المتسابقين ثم اختفى كذلك عن عاقصة والتي عرفت انه يلبس قلنسوة الحكمة • فقالت « ماتت

ملوك الدنيا بحسرتها ولم يقدر احد في هذا الزمان على صنعتها » • وهكذا فهم العقل الشعبي في عصر الانحطاط ذاك فلسفة افلاطون وعلى الرغم من تبسيطه لها الى حد جعلها عبارة عن قلنسوة الا ان فعلها عظيم وكبير وهي فريدة من نوعها ويتمناها جميع الملوك الا انهم لا يستطيعون الوصول اليها لامتلاكها •

الوقوف الانفوق المدينة الثانية يحرسها شخص من النحاس الاصفر يترجل حصان حديدي وفي فمه بوق من الفضة البيضاء يعطي اشاراته وقت حدوث اقتراب احد من باب المدينة يحس بسيف حراس المدينة يوقفوه ويحملوه الى ملكهم الذي يعرفه في الحال من الشامة التي على خده يأمر الملك وهو اعجمي واسمه « عبود خان » برمي سيف في البحر بعد تعذيبه يتفنن القبطان في التعذيب الا انه يعود بعد فترة من تركه سيف وهو يبكي ويعلن اسلامه على يد سيف ويطلب منه الصفح والغفران ، ويفك وثاق سيف ، هذه المرة تحصل المعجزة وينجو سيف من لحظة الهلاك المحققة باسلام الجلاد والذي تغير اسمه من عبد النار الى عبد الصمد • خاف ملك هذه المدينة من أن يأخذ سيف خاتمه المطلسم كما أخبره كهنته ووضع للقبض عليه الارصاد وألف فارس • ويأمر سيف عبد الصمد ان يعلم أهله الاسلام فيسلموا جميعا الا جارية واحدة ، اجتهد الفكر الشعبي على ان يبقيها على كفرها حتى يجعل منها الضحية التي تفدي سيف فقد وضعت تلك الجارية بعد قتلها محل سيف داخل القارب ورمي بها في البحر ، والملك عبود خان مطمئن البال متصور" انه قد تخلص من سيف • يحصل سيف على الخاتم المطلسم في بطن حوت بمساعدة عبد الصمد ويهدد به الملك « عبود خان » ويخيره بين الموت أو الاسلام يموت الملك الشرير بحسب رغبة اهل مدينته ويبقى الملك سيف في المدينة فترة من الزمن يعلم الناس الاسلام وطرائق الايمان ثم يتركهم بعد ان ينصب عليهم وزيره عبدالصمد •

طارت عاقصة بسيف الى مدينة قيمر وكانت في انتظاره طامة وامها الحكيمة عاقلة • سيف مزود هذه المرة بعدة سحرية كاملة قلنسوة وخاتم

مطلسم استخدم القلنسوة في الاختفاء عن انظار اهل المدينة « قيمر » وملكهم « قمرون » للوصول الى كتاب النيل • يتمكن من ذلك اثناء تأدية الصلاة الوثنية لكتاب النيل تعرض عليه الحكيمة عاقلة الزواج ببنتها عاقصة هذه للمرة الثانية يرفض سيف احتراما للوعد الذي قطعه للملكة شامة • تنتقم منه الحكيمة بالوشاية به الى الملك « قمرون » ، يحاول اللحاق به فيفشل ، يتمكن سيف كما عودنا من الافلات من جنود الملك قمرون •

ما زال « سقرديون » يدبر المؤامرات ويستشير « سقرديوس » في حبك المزيد من المؤامرات للحيلولة دون اجتماع الشامتين ويخرج سقرديوس برأي خطير لتحطيم كل طموحات سيف • يدخل الرواية في طور اشد تعقيدا من الاطوار السابقة مزيدا من التعقيد والعنف يسهل له الحيل من جهة ومن جهة اخرى يخرجه من الورطة التي وقع بها هو وزميله في السحر والكهانة • يطلب سقرديوس من الملك « سيف ارعد » ان يتزوج هو شامة للحيلولة دون اجتماع الشامتين حتى لا يزول ملك الحبشة وتكون نهاية الديانة التي يدين بها ملوك الحبشة وكهنتها • تجد نصيحة الكاهن « سقرديوس » هوى في نفس الملك الطاغية « سيف ارعد » يغرق الملك افراح كما جرت عادة الملوك بالهدايا ويحمل له في نفس الوقت السوط يلوح بالمغريات حينا وحينا آخر بالسوط في خيار حاد بين الطرفين ولا ثالث بينهما ، ويحمل هذه المهمة مناطحا البغال حاجباه « دربال » و « ارتاح » •

يصل دربال الى الملك افراح ويعرض عليه قرار الملك « سيف ارعد » بالزواج من شامة ، يغضب لذلك سعدون ويدخل في طعان مع دربال ينتهي بمقتل حاجب الملك • يشتبك الطرفان بعد تحريض « سقرديوس » لرجال دربال والملك افراح واستغراقا في الخيال سعدون وفرسانه الثمانون يهزمون جيوش الملك افراح للحيلولة دون زواج شامة بالملك سيف أرعد وانتصارا لزعيمه الغائب « سيف بن ذي يزن » •

يدخل المعركة فرسان دربال يصيب التعب سعدون ورجاله يسقط منهم الكثيرون • وفي تلك اللحظة الحرجة تفك العقدة فيظهر فارس ملثم هو وحش الفلا لينصر سعدون في معركته يقاتل الاثنان جنبا الى جنب سيف مزود بحسام بتار وخاتم مطلسم يطير الجماجم من على الاجساد • يخيف ذلك الملك افراح يوقف المعركة الخاسرة يترجل من فرسه يريد ان يقبل أقدام الملك « سيف » تسبق شهامة سيف الاحداث يترجل من فرسه هو الآخر ويعانق الملك صهر المستقبل يعود جند الحاجب دربال يجرون اذيال الهزيمة الى الملك سيف ارعد•وفي تلك اللحظة يدخل رجل مستغيث منجور « قمرية » في المدينةالتي استولت عليها • يرى الملك سيف ارعد بعد التشاور مع رجاله عدم الدخول في معارك متعددة تأديب قمرية من جهة والرد على تطاول الملك افراح وسعدون على فرسانه يقرر ايقاف جبهات القتال التي فتحت يحول المعركة بعيدا عنه • يرسل الامان والعفو الى سعدون والملك افراح ، ويطلب منهم التوجه لتأديب قمرية على تمردها عليه وقد وجد هذا الموقف قبولا لدى الجميع وصدى عندهم كبيرا ، فقد ارتاح الملك افراح من جهة تخلصه من غضب الملك سيف ارعد وفرح به سقرديوس لانه يتصور ان في تلك الحرب نهاية سيف بن ذي يزن وصديقه سعدون •

تلك اذن الخطــة السياسية التي اعتمدها سـيف أرعـد للتخلص من مناهضيه السياسيين بحسب التجربة الشعبية السياسية ، فكيف فهمت الذهنية الشعبية حركة سيف لتحرير اليمن ؟؟

الصراع العسكري بين سيف وقمرية :

نواصل هنـا رؤيا الذهنية الشعبيـة في الرواية الاسطورة للصراع التحرري الذي خاضه سيف ضد جبروت الملكة قمرية ومؤامراتها •

سارت جيوش الملك افراح الى اخر ارض اليمن ، الى المدينة الحمراء التي اتخذتها قمرية عاصمة مملكتها فضربوا حصاراً عليها وأرسلوا لها رسالة يطلبون فيها الاستسلام ودفع الخراج الى الملك سـيف ارعـد او فالحـرب

الوبال • تعيد الحاجب معززا مكرما وتبلغهم رفضها لمطالبهم ، ثم تلجأ للحيلة وتزور الملك سيف في خيمته ، تلجأ الى سلاح المرأة كما يخرج لنا ذلك الخيال الشعبي والذي يعجز عن ان يتصور للمرأة قدرة اخرى الا جسدها وفوق ذلك ناسيا في خضم هيستيرية الاحاسيس الجنسية المكبوتة ان وضع قمرية في الرواية هي انها ام سيف • المنظر كما يصورها ذاك الخيال متلذذا عارية تضحك في غنج وتتأوه وتتحسس ذراعيها البضين وساقيها المرمريين على حد تعبير الرواية ، « وحش الفلا » في وضع نفسي متشنج • الاثنان على وشك اللقاء فوق درب الجنس امـام بعضهمـا البعض الاسقاط النفسي الشعبي يزداد في هذا الموقف• يحل الخيال الشعبي العقدة في اللحظة الاخيرة حتى لايقع هو وسيف وقمرية في المحظور وذلك بأن تتعرف قمرية على سيف بعقدي الجوهر اللذين وضعتهما معه وقت رميه في البر الاقفر وهو رضيع • تحكي له قمرية قصته ، ارسلت في طلب حجاب ابيه الذين يعرفونه كما يعرفون أباه وتتظاهر هي بالفرح لذاك اللقاء • تعد عدتها للدخول في مؤامرة جديدة ضد الملك سيف ، لنر ماذا ينتجه لنا الخيال الشعبي من أفكار تعبر عن واقع حيلته ؟؟ الوزير يثرب يائس من أصلاح الامور يعتزل السياسة ويهاجر الى مدينــة يثرب يسير حجاب الملك ذي يزن الاربعة الى مخيم سيف بن ذي يزن ، يعرفون الملك بملامح الشهامة التبعية •

تتخلص قمرية بالقتل حتى لا يفضحوا القضية وتعود مسرعة الى الملك سيف وقد دبرت في نفسها امرا ما لتبلغه انها رأت اباه قادما عليها في المنام وقال لي « يا قمرية اعلمي اني تولاني التراب وهذا ولدي الملك سيف هو ولدك وحشاشة كبدك فسلميه القلعة والمدينة وجميع اموالي وكل ما اخذن بعدوتي من الاموال والذخائر فاعلميه به وسلميه اليه » • فقلت له «يا ملك الزمان هو غلام جاهل واظن انه ماعنده لياقة ولايقوم بالمملكة » • قال «ياقمرية هذا يملك البلاد شرقا وغربا وتخضع له الملوك بعدا وقربا وتطيعه جميع ملوك الاقطار عجما وعربا وينصر العربان على الحبش والسودان وتنفذ دعوة نبي الله نوح عليه السلام » •

وتبدي له حسن نية مفتعلة في رغبتها بتسليم الملك وامواله اليه . يصدقها سيف وقبل تسلم مدينتها حقنا للدماء وهو يتصور او بتعبير ادق والذهنية الاسطورية السائدة في ذاك الوقت تتصور من خلاله ان الله يفعل مايشاء وانه سبحانه وتعالى قد غير حال قمرية من حال الى حال فاذا بالمرأة الشريرة بالامس خيرة اليوم فتلك ارادته وهو على كل شيء قدير .

بعد ان تخلصت قمرية من حجابها الاربعة بالسم المدسوس في الشراب وبعد ان رمتهم هي وجاريتها في الجب تغرس خنجرها في قلب الجارية لتنهي بصمات جريمتها والى الابد في تفكير سياسي خبيث وحتى تتفرغ للملك سيف وتتخلص منه دون مقاومة بعد ان تخلصت من خدام ابيه ومعارضيها جميعا في داخل القصر ، يجتاحها شعور بأنها استطاعت ان تخدع سيف وتأخذه بعواطف البنوة والامومة . ينجر سيف وراءها بسذاجة للبحث عن كنوز ابيه فيخرج معها الى الصحراء تتوغل به في عمقها ، وهناك تنفذ فيه جريمتها . اسلوب القتل هذه المرة يختلف عن المرات السابقة ويتناسب ومقدماته . يلخص الخيال الشعبي تجربته في المؤامرات واساليب ارتكاب الجريمة . تضرب سيف في القفر بسيفها ، ولاتتركه الا بعد ان احست انها قد قضت عليه نهائيا . ووقفت متشفية ترقبه وهو غارق في لجة من الدم .

تتدخل المعجزة كما عودنا الفكر الاسطوري حين يقف في مواقف حرجة ولا يرى طريقة للخروج منها غير حدوث المعجزة وكما عودنا ففي الساعات الحرجة لابطاله يسارع بانقاذهم حتى يبقى الامل في نفوس أتباعه . فالنبي ابراهيم ينجو من الاحراق والموت بواسطة جبريل باللحظة الاخيرة وحتى عيسى المسيح والذي كان لابد من ان يموت على الصليب يرتفع الى السماء كما تقول الأدبيات الاسلامية . أما المسيحية فقد أماتته ثم أحيته ورفعته الى السماء بعد ثلاثة ايام . وسيف باعتباره مظهرا لدين ابراهيم تحدث له المعجزة في هذا الموقف الدقيق وهو شبه ميت بواسطة طائرين حطا على غصن الشجرة التي يرقد تحتها . الطائران يتحدثان هكذا ارادت

المعجزة ان تنطق الطيور الاحتمال الاخر هذا ان سيف كان يعرف لغة الطيور ففهم كلامهم والمعجزة الاكبر كما تخبرنا الاسطورة ان الطائرين هما الشيخ عبدالسلام والشيخ جياد فقد تحولا الى طائرين وحتى يقوما بمهمتهما على اكمل وجه كما اقتضت الظروف التي زج بها سيف وهي ارتماؤه في الصحراء البعيدة في وضع عسير جدا يتطلب ان يكون المنقذ بحسب الموقف . الشيخان في صورة طائرين يدلانه على الدواء ولتسهيل الحصول عليه وهو في وضعه ذاك فقد جعلاه في الشجرة التي كان يرقد تحتها وهو يعاني سكرات الموت . وبقيا يتحدثان ليسمعاه ان عليه ان يمضغ ورق الشجرة بأسنانه ثم يضع المضغة على جراحه . الرواية الاسطورة تضع لنا مفاجآت في كل اثناءة فيها قمة الفكر الاسطوري يتجسد في موقف عجيب على غرار اسطورة المسيح اماته واحياه الطائران ، كما سبق وذكرنا انهما الشيخان ، والادهى من ذلك انهما كانا قد ماتا ولان الله على كل شيء قدير ، تم احياؤهما من جديد ليأتيا خصيصا الى سيف ويعالجا جراحه بنصائحهما التي راح ينفذها وهو نائم على الارض الصحراوية ، تهب رياح قوية وتهز الشجرة فتتساقط الاوراق التي راح سيف يجمعها ويمضغها ويضعها على جراحه المتقيحة ، والنتيجة معروفة فما دام تسخير القوى الطبيعية والخارقة للطبيعة قد تم في المقدمات فشفاء سيف حالة متوقعة . ينهض وحش الفلا بعد ان داوى جراحه بنفسه وسار يضرب بالارض على غير هدى ستين يوما وبينما هو في تيهه اذ به يرى جبلين عاليين احدهما ابيض والثاني اسمر وبين الجبلين بحر متلاطم الامواج ، ويواصل السارد الشعبي وصف مكان عجيب في الطبيعة ويظهر له من الخلف جبل احمر وفي قمته بيت سار اليه وحيا سكانه فردوا عليه تحيته بالمثل ، ولا يغيب عن بالنا ان الفكر الاسطوري العامي يعتقد ان على الارض يتعايش الانس والجان ، وحين سلم وردت تحيته ، كانت مصحوبة يذكر اسمه وقد استغرب لذلك كثيرا فصاحب الصوت لم يكن قد رأى وجهه وبينما سيف في دهشته فتح الباب وخرج منه شخص طويل القامة على وجهه آثار العبادة هذا الشخص كان ينتظر سيف في المكان منذ عشرين عاما وقد سبقه في

الانتظار أبوه وجده جميعهم كانوا ينتظرون قدوم سيف ليقدموا مساعداتهم اليه ، فماذا قدم ذلك الشخص لسيف ؟

وجد البيت معدا لاستقباله • وفيما كان جالسا يأكل الطعام راح الشيخ يحدثه عن الكنز • الخيال الشعبي أراد ان يكون هذا الكنز من عهد سام بن نوح ، ربما كان في ذلك رمزا الى طلب المحافظة على نقاء الجنس السامي فالكنز هنا رمز الجنس • وهناك احتمال اخر الا يكون المقصود سوى الكنز فقط ، وفي ذلك تعبير عن رغبة النفسية الشعبية في الامتلاك للمال في ظروف كانت فيها اقرب للفقر منها لاي شيء اخر ، فوضعها المعيشي كان متدنيا سواء حين قدمت كقبائل من الصحراء مع الفتوحات الاسلامية لمصر تبحث عن الماء والكلأ والحياة الافضل معيشيا واقتصاديا ، ام في ايام المماليك الذين اجاعوها ولم يهتموا الا ببذخهم وملذاتهم •

يتعرف الملك سيف على الحكيم ويعرفنا عليه اسمه « اخميم الطالب » يقود الحكيم الملك سيف للتعرف على الكنز صعد سيف درجات وحلقات لم يكن يراها أحد سواه ، رأى نقشا في عمود وقف عليه ليرى جبلا أمامه وتحته بحر متلاطم توكل على الله وقفز كما طلب منه الحكيم فوق قدمين منقوشين في عمود آخر ، وأمامه القصر العجيب • وصف له ما سوف يجده في داخل القصر ، فسوف يجد لوحا في عنق جثمان الملك المسيحي مطلوب من سيف أخذه وايصاله الى الحكيم الذي أمره بالعودة ثانية الى القصر لاخذ السيف وعندما حاول تجريد السيف من غمده امتلأ المكان بصرخات كالرعد من الصدى الذي وقع من السيف وقد كشف له هذا الصدى عن ذهب خالص وسمع صوتا يحذره الا يجرد الحسام مرة أخرى ، وان يترك المكان فورا قبل أن يصيبه مكروه • رأى سيف سريرا فاقترب منه ورفع اللثام عن وجه الملك فصرخ الجثمان في وجهه منزعجا من جرأته ، ولولا تقلده السيف لمات من الخوف والفزع ولتطاوله يتخلى عنه الحكيم •

وقد حاول الخروج ولكن دون جدوى فوقع في الماء وابتلعه نفق مظلم قاتم وبقي تيار الماء يسوقه معه في ظلمة كاملة افقدته الاحساس بالزمن • وبقي يصارع الماء الى ان فقد وعيه وأوشك على الموت ولاح له فرع شجرة فتعلق به وبقي يحمل النصف الميت من جسده ، ويزحف على الشجرة •

الصورة المؤلمة لسيف ما زالت مستمرة وهو يصارع الموت يأتي الفرج هذه المرة بصورة طبيعية فقد تمكن سيف من الوصول الى غصن الشجرة ينجو سيف بعد صراع رهيب من الموت ، ويسير وحيدا في الوادي ، وعلى البعد تلوح له مدينة بيضاء فيسير اليها ، وما يكاد يقترب من الباب المغلق حتى يسمع صوتا يقول : « افتحوا البلد واطلعوا اليه ولا تعودوا الا به فانه غريمنا وجاءت به المياه الى أرضنا فلا بد ان نسقيه كأس الفنا »(*) •

حينما اختفى سيف خلف اغصان شجرة يرقبهم وهم يفتشون عنه ، يسزق الجوع احشاءه ، وقد ساقه ذلك الى تسليم نفسه الى قائد المجموعة الذي تكرم عليه بطعام ابتلعه في نهم ثم بدأ يقص قصة ملفقة حين طلب منه التعريف بنفسه • يبدو من الصوت انه صوت انثى لا ذكر لابسة ثياب فرسان ، الذهنية الشعبية ترفض ان يكون القائد انثى لذا فقد رأت ان تلبسها ثياب الفرسان ، تسرع الفتاة الى ابيها لتبلغه العثور على سيف • ومن حسن حظ المستمع وحظ سيف ان ملك المدينة هو الحكيم « اخميم الطالب » يرحب به بحرارة وينزله في قصره • يتجاذب الرجلان اطراف الحديث ويعاتب كل منهما الاخر كل واحد منهما يلقى اللوم على الآخر ، يبدو ان الحق على سيف فهو الذي كشف عن وجه الجثمان المسجى على السرير يعرفه الحكيم ان الجثمان هو جثمان سام بن نوح • يخبر الحكيم سيف بأن لوحه السحري محفوظ عنده ، يدلكه الحكيم يظهر منه مارد ضخم يصرخ كالرعد •

ـ لبيك يا حكيم الزمان ويعرفه بنفسه اسمه « عيروض » بن الملك الاحمر وهو خادم اللوح من عهد « سام بن نوح » يطلب منه الحكيم ان

(*) السيرة م ١ ص ١٦٥ •

يخبره عن زيجات الملك سيف التي تمت ان كان هناك ما تم او المقبلة منها •
يعدد له الزواج :

بالملكة شامة بنت الملك افراح •
« ناهد » ـ الصين •
و « طامة » الحكيمة •
الملكة جيزة بنت الحكيم اخميم الطالب •
وكذا « منية النفوس » •

القائد الفارس يخلع ثياب الفروسية فاذا به غادة جميلة حين تسمع كلام عيروض تتملكها الغيرة والغضب وتعتزم على التخلص من سيف بقتله • تأمر خادمها العملاق الاسود القيام بهذا العمل • يوكل الحكيم واحدا من أعوانه الجان بحراسة سيف ، فيمنع العملاق الاسود من تنفيذ رغبة الملكة جيزة بقتله ، وترسل الملكة عبدا آخر يستقصي اخبار صاحبه حتى يلقى نفس المصير • يخبر الجني الحكيم « أخميم » بتلك الاخبار فيعرف انها من صنع ابنته وحين استفسرها عن الدافع لذلك العمل يتضح ان وراءها المشاعر النسوية وهي الرغبة في الاستفراد بسيف والغيرة عليه هما الدافعان لفعلتها • ورفضها ان تكون بالنسبة له جارية من الجواري • تحاول الذهنية الشعبية في هذا الموقف ، ان تبرز نفسية المرأة تجاه الزواج المتعدد وحساسيتها المرهفة منه ، الا انه يرفض ان يعيرها اي اهتمام فالرجل يجب ان يأخذ حقه من الاستمتاع بالمرأة في حياته كلها ما دام وضعه الطبيعي البايولوجي والسيكولوجي يسمح بالحصول على تلك المتعة من أكثر من واحدة فليكن • فعلى ماذا تعترض اذن الملكة « جيزة » لتذهب برغباتها الانثوية الى جهنم •

يأخذ منها سيف اللوح وهي نائمة وحين تستفيق لا تجد اللوح المطلسم في عنقها فتدرك ان سيف هو الذي أخذه تسرع اليه لتقتله هذه المرة بيدها فلا تجده فقد طار سيف على ظهر خادم اللوح عيروض الى ارض اليمن الى المدينة الحمراء حيث ترك حاجبه سعدون •

يصل المدينة تستقبله المشاكل من جديد ، الخيال الشعبي ما زال يتحفنا ، الراوي ما زال يعطي الجديد عن المشاكل والعقد التي جابهها سيف وراح يفككها الواحدة تلو الاخرى • الفارس سعدون الزنجي نزيل سجن الملك سيف ارعد ، ويبدو ان قمرية قد واصلت مؤامراتها بعد غياب سيف فقد سلطت عليه حاجب الملك سيف ارعد « أبا الهول » والذي ذهب للتباحث مع سعدون حول الهجوم على المدينة • راح يرسم معه الخطط كما أوهمه وهم يحتسون الخمر • وراح سعدون يشربها بشره ، فقد كان لا يعرف ما وراء الاكمة وما يدبر له حتى ثمل فانقض عليه جند ابي الهول وقيدوه بالاغلال وساقوه اسيرا وقد حاول جنده فك اسره فلم يتمكنوا وبقوا يقاتلون من أجله اياما طويلة دون جدوى • ثم انتهجوا نهج حرب العصابات وظلوا يغيرون على المدينة ويتحينون الفرصة للانتقام من قمرية • ليس من حل مع سيف بعد ان عرف ان صديقه سعدون سجين عند الملك سيف ارعد في مدينة الدور ، غير اللجوء الى السحر في صورة اللوح المطلسم يطلب من عيروض حمله الى مدينة الدور • يسمع هناك أصوات طبول وأفراح يستقصي عيروض الخبر فيبلغه بحقيقة الامر الرهيب عرس شامة على الملك سيف ارعد يالهول المفاجأة والخبر لكن بصيص الامل دائما معلق كما عودنا الخيال الشعبي في طريق سيف وحياته ، وعلى كل فما زال في يده « عيروض » • ينقله عيروض الى خيمة العروس التي كانت تبكي حظها ، يفاجئها سيف والذي يرتاح من بكاها كيف لا وهي تدلل على حبها له ، تكفكف دموعها ، تحكي له القصة من البداية وهو يحكي لها بدوره ما اعترضه من مشاكل •

يدخل عليهم الملك افراح الذي جاء ليصطحب ابنته الى الزفاف يفاجأ بوجود سيف يقف مذهولا كمن يرى شبح أحد الاموات • يرفع سيف حسامه يريد الاجهاز عليه يتمكن من الافلات او هكذا يريد الخيال الشعبي فالملك افراح ما زال تحت كل الظروف والد شامة ووالده الذي تبناه في صغره • يسرع الملك افراح الى الملك سيف ارعد ليخبره بالخبر الصاعق

يسرع الجميع • المعجزة هذه المرة في مستوى الظروف الحرجة والدقيقة ، الدنيا نعم الدنيا تظلم حتى يختلف سـيف حبيبته شامة ويطيران على ظهر عيروض الى قمة الجبل حيث نصبا خيمة وجلسا داخلها • يقصده حكيم السوء سقرديوس و سقرديون ويطلبان منه ارجاع الملكة شامة باعتبارها زوجة الملك سيف ارعد فلينازل جند الملك يتقدم اليه الفرسان الواحد تلو الآخر وهو يصرعهم • خاف ارعد من الهزيمة واقترح عليه وزيره بحر قفقان الريف ان ينزل لمبارزة سعدون الزنجي ورحب الملك ارعد بتلك الفكرة وفرح بها سعدون الا انه كتم الفرحة حتى لا ينكشف أمره •

يسير سعدون في مسرحيته فينازل سيف في مبارزة حامية ، وحين نال التعب من سعدون مناله كشف اللثام عن وجهه ، وقفز الى جوار سيف وأحس ارعد بأن سعدون قد غدر فأمر جنده بالهجوم على الفارسين • بقيا يقاتلان قتالا مستميتا ، وحين بدأ التعب يدب في جسميهما تدخل عيروض خادم اللوح المطلسم فاغبرت السماء واسودت وأبرقت ، ومثل هذه الصور تعودنا ان نراها في نضال المسلمين ضد القرشيين ألم يكن الرسول يذر التراب في وجوه المشركين • الصورة نفسها في السيرة الشعبية وهي تحكي قصة كفاح سيف ضد الشرك فهكذا فهمت الذهنية الشعبية انتصاراته في معاركه وحروبه ضد الاحباش •

طار سيف وصديقه سعدون على ظهر عيروض الى شامة وحملاها معهما ، وقررا الوصول الى قمرية للانتقام منها ، واستعان سيف وسعدون برجال سعدون المرابطين منذ زمن على ابواب المدينة الحمراء وأخذوا حراسها على حين غرة ودارت بين الفريقين معركة حامية الوطيس وحين جاء احد الرجال يبلغها حقيقة الامر لجأت كما عودتنا الى الخديعة والمكر فماذا عملت الملكة قمرية ؟؟

تدخلنا السيرة في موقف درامي عجيب صورة الملكة وقد حلقت رأسها ووضعت القيود في يديها ، وخرجت من قصرها حافية تبكي وتأمر رجالها

بالكف من قتال سيف ابنها وتسير اليه وهي في تلك الوضعية الذليلة تطلب منه ان يضرب رقبتها وهي تبكي وتنتحب كان منظرها يثير الذهول وهي تطلب منه ان يقتلها بالحاح • رق قلب سيف واعتبر ما حصل قدرا لا مفر منه وفك وثاقها ودخلوا جميعا المدينة واقيمت الافراح استعدادا لاتمام الفرحة بالزواج بينه وبين شامة •

اراد سيف ان ينتهي من دوامة المشاكل التي عاش فيها واراد ان ينتقم من المتآمرين عليه مبتدئا بالملك افراح الذي تدخلت ابنته لانقاذه من تحت سيف الجلاد • كان قلب قمرية يقطر حقدا خاصة بعد ان رأت اللوح المطلسم الا انها كانت تملك القدرة على اخفاء مشاعرها والضغط على اعصابها لاتمام مخططها التآمري فاغدقت على الجميع الهبات والعطايا حتى يطمئنوا اليها اكثر ، وترقرقت عواطف سيف نحو أمه وهو يراها فرحة بزواجه تكرم الارامل والايتام فتطعمهم وتوزع عليهم الاموال وحين حان وقت دخول الزوجين الى مخدعهما طلبت منه احتيالا ان يسلمها اللوح حتى لا يحضر الليلة المشهودة شخص ثالث وهو خادم اللوح عيروض وقد طاوعها في آرائها فهذه ليلة مقدسة لها طقوسها التي لا يحضرها سوى الاثنين • يثق فيها سيف فيعطيها اللوح لتحفظه عندها • فهل كانت قمرية امينة على ذلك ؟ هذا ما سوف نراه •

مؤامرة جديدة لقمرية :

بقيت قمرية تراقب مخدع سيف حتى انطفأ النور في الغرفة ووقفت فيه الحركة وهنا دلكت اللوح فحضر عيروض وطلبت منه ان يرمي سيف وشامة في اقصى مكان يعرفه بعيدا عن بعض • فحمل سيف الى اراضي الغيلان ورمى شامة في وادي الطوذان وعاد يخبر قمرية سيدته الجديدة بما فعل فارتاح بالها بعد ان نالت منها مرادها •

ماذا حل بسيف وشامة بعد ان فرقت بينهما قمرية ؟؟ تواصل الرواية الشعبية سرد سلسلة المغامرات الاسطورية • المشهد هنا شامة في

الوادي بين الغيلان كعقلة الاصبع قزم بين عمالقة ، الخيال الشعبي بين الفينة والفينة يتحفنا برؤية المخلوقات العجيبة الطويلة من غير المستبعد ان يكون ظله وقت القيلولة هو الذي اوحى له بتلك الصورة او تضخيم الظلام للرؤيا كذلك كان المبدع في التصو . المهم ان شامة بقيت بينهم كمخلوق مسخ كان لابد من الحكم عليه بالموت وفي اللحظات الحرجة لها تتدخل بنت الملك لتطلب من ابيها ان يتركها حتى تساعدها في خدمة الاله الذي مسخها ليعيدها الى الخلقة السوية . تقودها معها الى المعبد الاله هو خروف كبير سمين . الذهنية الشعبية لاتريد ان تعترف او تصدق ان الخروف كان من العبادات القديمة للانسان وصل الى مسامعها انه عبد الا ان رفضها ان يكون الانسان هو الذي عبده جعلها تلبس تلك العبادات بالمخلوقات العجيبة الوهمية . تبقى شامة في خدمة الاله الخروف . اما سيف والذي تركناه كما تركه عيروض في الوادي فقد بقى فوق شجرة الا ان مخلوقا عجيبا كان قد كشفه واستنفر اهل الوادي الذين راموا قتله ، ولم ينقذه الا عجوز كانت تتكلم العربية ، وقد نادته باسمه عرف منها انها كبيرة الغيلان فطمأنته لينزل عن الشجرة . الظريف في هذه الغولة انها تتحدث العربية هكذا اراد الخيال الشعبي حتى يمكن سيف بن ذي يزن من التفاهم معها فيعرف انها تعرف قصته حين قدمت له الطعام وجلست ترويها له ، وتستمر في حديثها لتطلعه على قصة اولئك الغيلان ولماذا اصبحوا كذلك ، الفكر الشعبي اراد ان يبرز موضوع اخترعه بنفسه وهو الغيلان ولماذا هم على تلك الصورة . يعرف من كلامها انهم مسخوا نتيجة غدرهم بملكهم العادل الرحيم ، يبدو ان الراوي الشعبي يريد ان يحذر من عصيان الحكام خاصة الطيبين منهم ويدعو الشعوب عن طريق المستمع ان تحافظ على هذا النوع من الحكام قبل ان تمسخ كما حصل مع الغيلان ، تبلغه هي ان هلاكهم سيكون كما اخبرها الرمل على يد الملك سيف بن ذي يزن التبعي اليمني ، وقد انقذته منهم حتى يؤدي رسالته بعد ان يتزود بادوات هلاكهم ، والتي توجد في حفرة داخل حجرة في نهاية المغارة وتدله على طريقة اخراج تلك الادوات من المغارة والاداة هنا هو ديك

مصنوع بالحكمة سيستعمله وقت الحاجة • الموقف الغيلان تحيط به ينزع من الديك ريشا ويرميهم بها تحمل الريش على رؤوسها نيرانا تحرق الغيلان ويظل سيف ينزع من الديك ريشه حتى تحترق جميع الغيلان ويموت الديك بعد انتهاء مهمته • الاداة السحرية هنا مؤقتة الفعالية يخترعها الذهن الاسطوري الشعبي للانتهاء من الصورة التي ابتدعها وخلقها لتؤدي دورها في حكمة حياتية وهي عصيان اولي الامر الطيبين •

في معبد الاله الخروف تضع شامة طفلا تسميه « دمر » تغفو ذات ليلة فيحترق المعبد بنار الشمع يحكم عليها اهل المدينة بالموت صلبا فقد ادى اهمالها الى حرق وتدمير الههم ومعبده • النفسية الشعبية التي لا تقبل الاشراك تنهيه على يد امرأة بطريقة الاهمال فهي لا تستطيع بطبيعة الحال ان تستخدم القوة ضد وضعية كتلك غير مقتنعة بها • كانت تؤدى خدمتها على مضض حتى تدخل القدر بالاحراق او بتعبير ادق ادخله الفكر الاسطوري الشعبي للانتهاء من الوضعية المشينة لعبادة الحيوانات وبينما هي في ذالك الوضع الميؤس منه تواجه الموت وحدها اذا بسيف بعد ان انتهى من مهمته يقبل عليها في صحبة العجوز تدور بينهما وبين الطودان معركة قاسية غير متكافئة تنتهي بتقيدهما ووضعهما في السجن لصلبهما في اليوم التالي •

الصورة وهم في السجن لم يناموا طوال الليل فقد راحت العجوز تفك قيود سيف بأسنانها ويفك سيف بدوره قيودها وزوجته • يردمون باب المعبد ويتسلقون سوره ويظلون من هناك يرمون الطودان بالحجارة ثم حين حوصروا ذبح سيف الخروف تحت سمع الطودان وملكهم مما زاد في هياج الطودان لان الههم يذبح أمام انظارهم تلك اذن حصلت الطامة الكبرى فلابد من الوصول الى سيف وقتله مهما كان الثمن ومضوا يرفعون الباب الحاجز ليصلوا اليه ، واشتبك الفريقان في عراك ايقن فيه سيف بهلاكه ومن معه واذا بسيف وزوجته وولده دمر يرتفعون من ساحة القتال ، اما العجوز فلا

حاجة لنا بها بعد ذلك لذا تمزقها رماح الطودان اربا اربا • يتضح لسيف ان الذي رفعه من وسط المعركة اليائسة هي اخته الجنية عاقصة • وقد انزلته على ارض الملك ابي تاج وهو احد الملوك التابعين للملك سيف ارعد وبلاده تقع ضمن حدود ارضه وطلب منها قبل الذهاب احضار خيل وسلاح وطعام وقد نفذت طلباته ثم تركته واختفت وبقى سيف وزوجته وابنه في المغارة فترة من الزمن •

سار سيف وزوجته وابنه مع الملك ابي تاج الى مدينته لتكريمه بعد ان انقذ حياته من اسد مفترس اعترض طريقه هو وجماعة من فرسانه في الغابة • وتجاذبا اطراف الحديث فعرف منه انه سليل حسب ونسب وقد بقي في ضيافته اياما حتى بدا الملك أبو تاج يقتنص حركات شامة في وله واعجاب • والسيرة الشعبية تجعل من هذا الملك دون جوان النساء فقد كان مغرما كما جرت العادة عبر الازمان التاريخية الطويلة عند الملوك بجمع اعداد كبيرة من النساء في قصره بين جوار وسرائر • وقد زينت له احد جواريه التقرب الى شامة لاخذها ، الرواية تريد ان تعبر عن مشاعر العربي في الغيرة على ما ملكت يده من النساء على خلاف بعض الشعوب والمقصود في الرواية الشعب الحبشي فهو على استعداد لاراقة الدم للحيلولة دون حدوث مثل ذاك الحدث والحاق العار به • يدخل الملك ابو تاج والجارية على شامة دون استئذان ، تثور ثائرتها فقد اصبحت زوجة رجل عربي هذا عدا الحب الذي كانا يحملانه لبعض وتحاول ان تصفع الملك وهو يراودها عن نفسها •

الصورة الان دخول سيف ومفاجأته الملك ، وكان قد اتى ، بعد ان مل انتظار الملك في مجلسه • يتألم لاعتداء الملك على كبريائه وهو يعرض عليه التخلي عن شامة نظير مايرغب فيه من النساء • يخرج سيف سيفه من غمده ويلوح به في وجه الملك الذي راح يعرفه بتلك العادة المتبعة في بلده وهي شراء اي امرأة من زوجها ان اعجبته • ينتاب النفسية الشعبية في

الرواية نوع من التقزز على لسان سيف من مثل تلك الاعراف اللاانسانية .
المهم ان الملك أبا تاج يسجنهم في القصر ولا يتمكنان من الخروج منه الا بعد ان تمكن سيف من الاطباق على الحارس . وحين بلغ الملك ابو تاج بهروب سيف تبعه على رأس فرقة حاصرته وظلت تدور بينها وبينه معركة شديدة . وكان في وضع استراتيجي افضل منها فراح يدافع عن نفسه وزوجته وابنه دفاع الابطال حتى رأى الملك ابا تاج طريقته في القتال وراح يهاجم وينقض على الملك بعد ان كان مدافعا ويغمد رأس سيفه في عنقه ويهدد بقتله ان حصل اي اقتراب من الجنود ، ويتساوم الاثنان ثم اتفقا على التصافي ونسيان الماضي وبينما هم على مائدة الطعام يأكلون ويتشاورون اذا بيد تختطفه هذه المرة من بين الجموع لتصنع له الشقاء . كانت تلك اليد هي يد عيروض وقد ارسلته قمرية ليرمي به في وادي السحرة .

استسلم سيف للاقدار فقد تعب من المقاومة والنضال وشاهد فوق الجبل نيرانا عظيمة ودخانا كثيفا ثم رأى شيخا طويل القامة يسجد للنار وقد كتف يد وفم ولسان سيف بسحره ، ويذهب ويعود باربعين رجلا يخرون سجدا للنار ، عبادة النار هنا مربوطة بالسحر يفك الشيخ قيد سيف ويركبه حصانا ويركب الاخر ويسرعان بالنزول من الجبل وسط دهشة سيف الذي عرف فيما بعد القصة الغريبة والمواقف المتناقضة من ذاك الشيخ والذي تورد لنا الرواية اسمه « برنوخ » فماذا حكى برنوخ هذا لسيف ؟

بعد ان ترك برنوخ سيفا مقيدا ذهب لينام فرأى في منامه شيخا اخر مهيب الطلعة يحمل في يده سيفا يطلب منه ان يفك وثاق سيف ، ويسلم على يده ليفوز بنعيم الدنيا ونعيم والاخرة وقد لحقتهما مجموعتان من الجند والسحرة تصدى كل منهما للمجموعة التي تعنيه فذهب سيف يقاتل الجند وراح برنوخ ينازل بسحره السحرة . المعركة غير متكافئة . لابد اذن من قوى خارقة للطبيعة . اخته عاقصة تصل في الوقت المناسب تختطفهما من فوق الجوادين وتطير بهما يأمرها سيف ان توصله الى زوجته وابنه .

في تلك الاثناء كان الملك ابو تاج وشامة يتراشقان بالكلمات يعرف منها ان معبودهم الواحد هو الذي يحميها ويحمي سيف يعجب الملك لذلك فيطلب منها ان تعلمه العبادة . فرحت شامة بذلك كثيرا وطلبت منه ان يتوضأ واتجها الى المغارة ليقرأ في صحف ابراهيم . وحين عرف وزيره بذلك راح يحرض عليه جنده وقد احس الملك ابو تاج بدقة الموقف فطلب من شامة ان تدعو الله لاجلاء ذاك الكابوس عنهم ، واذا بشواظ من لهب ترتمي عليهم كانت من سهام سيف والعملاق برنوخ ، وحين عرف سيف بقصة الملك أبي تاج وما عمله وزيره معه ارسل في طلب الوزير وخيره بين ان يؤمن او يشقه بسيفه ، وقد نفذ وعيده حين رفض الوزير ، وبعد مقتل الوزير انتهى تمرد الجنود واعلنوا اسلامهم جميعا ، كما آمن اهل المدينة .

يحكم ابو تاج بالعدل والايمان مدينة مؤمنة ينوي سيف مغادرة المدينة فيكرمه الملك ابو تاج ويرسل في السفينة جندا ليحموه ، ويتركهم برنوخ ليصل الى قمرية ولينتقم منها . وقد دفن السحر على باب المدينة وجلس ينتظر النتائج . وكان السحر يهدف الى شل حركتها ، وقد مرضت كثيرا ، وحين طلبت عيروض اخبرها بحقيقة ما بها ، واعلمها ان ولدها قادم اليها مع الملك ابي تاج لتدمير مدينتها وأمرته ان يختطف لها الملك سيف. وقد وصل اليه عيروض واخبره انه يريد ان يختطفه ، كما وامرته الملكة قمرية الا انه لم يتمكن من تنفيذ طلبها الاخر في الساحر برنوخ وقد ارسلت في طلب الحكيم سقرديون وتمكن برنوخ من التنكر وظهر لها في شكل سقرديون وراحت تشكو اليه ما تحس به واخذها معه الى الجبل ليبطل السحر وقد فعل ذلك حتى يكسب ثقتها وينقض عليها في اللحظة المناسبة .

بقي سيف في الجزيرة وحيدا حتى قابله عملاق طلب منه الامان ثم راح يحدثه عن امر ذاك النهر العجيب الذي تتغير الوانه ابيض احمر اصفر حتى العشرة الوان، ومن هذه الالوان يخرج السرطان. ويبدو انه كائن مائي وفيه مسحوق يمزج بماء الورد ثم يوضع على العين المريضة العمياء فتشفى . ربما

اراد الخيال الشعبي ان يصف وصفة دواء شعبي لعمى العين ، وهذا يحملنا على الاستنتاج ان أمراض العيون قد انتشرت في تلك الفترة ، وعلى كل فلا ننسى مرض « الترخوما » المنتشر في مصر وخاصة ريفها المتخلف كثيرا • التقى سيف في الجزيرة بصيادين يصطادون سرطان البحر وقد اعتقدوا انه تاجر فخافوا منافسته واضطروا الى اعطائه قاربا للخروج من الجزيرة • هذه المرة الخيال الشعبي يدخل سيف في مغامرة وسط البحر وذهب يصف كل ما تعترض الانسان من مخاطر فيه • فسيف يخبط في الماء اياما وليالي والقارب تتقاذفه الامواج واسماك القرش الكبيرة تحاول ابتلاعه • المهم ان موجة عاتية تقذف به الى شاطيء مدينة يقع بصره حين يفيق على رؤوس بشرية معلقة • يسأل عن سر قطعها وتعليقها فيأتيه الجواب ، انها رؤوس حكماء المدينة الذين عجزوا عن علاج ناهد بنك ملك المدينة • وقد جاء الجزاء قدر الخيار فمن يشفها يتزوجها ، ومن عجز يقطع رأسه • هكذا تعامل تلك المدينة حكماءها فاما الاجتهاد والنجاح في المهمة واما الموت الزؤام •

لا شك ان القاريء ما زال يتذكر قصة الاربعين فتاة اللواتي سجنهن المارد الكافر « المختطف » واللواتي انقذهن الملك سيف بعد ان قتلته واطلق سراحهن • وارادت هي ان تتزوجه فرفض ذلك قبل الزواج من شامة • ما زال القاريء يذكر انها موعودة له • اذن فقد رتب الخيال الشعبي احاديثه الطويلة واحدث تلك الاحاديث • يبلغهم سيف ان في استطاعته معالجة الملكة ، يحذر كثيرا من المصير الاسود الا انه يصر على معالجتها يسمح له بذلك السرطان فيخرج مسحوق السرطان ويمزجه بماء الورد ويبدأ في تكحيل عيني الملكة وهي تصرخ من الحركة ويجن جنون الاب ويصدر حكمه بسوق الملك سيف الى المشنقة • تبدأ الملكة تئن وتتحرك فقد بدأ النور يعود الى عينيها بعد ان سال السائل الاصفر منهما •

تتهيأ المدينة لزفاف ناهد الى سيف وفي ليلة زواجـه يصله عيروض بأمر من برنوخ ليحمله الى مدينة حمراء اليمن ومعه ناهد ليجلس على عرش ابيه . الجميع يقدم له عهود الطاعة والولاء . ويناشده اصدقاؤه ان يقتل الملكة قمرية . ما زال الخيال الشعبي يحرك عواطف البنوة ويطالب بالبر بالوالدين وعلى وجه الخصوص الام . لذا فقد جاء رد سيف عليهم جميعا بالرفض الا انه أمر بسجنها .

استقر سيف على العرش وبدأت اخباره تسـمع في انحاء الجزيرة وافريقيا الشرقية ، واتاه اصدقاؤه من كل حدب وصوب مهنئين مباركين . بدأت الاحداث في الرواية منذ ان تسلم سيف العرش تتجه اتجاها جديدا ، اصـبح في يد سيف زمام المبادرة فقـد سجن الملكة قمرية ولحق بهـا الحكيمـان سقرديون وسقرديوس بعد ان وصـلا من الحبشـة ليدبرا مؤامرتهما مع الملكة قمرية للحيلولة دون وصول السلطة لسيف ، وقـد فوجئا بالوضعية الجديدة حين قدما وهما لا يعرفان شيئا وحين حـاولا التملص وقعا في فخ الملك .

جلس الثلاثة في السجن يدبرون المؤامرات من جديد وقمرية معتمدة في خططها على طيبة سيف وصفاء سريرته . المطلوب هنا ان تتمارض قمرية ليعطف عليها سيف ويخرجها من السجن تأكل من اعشاب سقرديوس يتغير لونها حتى يغدو في لون وجوه الموتى ، يتصايح الجميع يحضر الحرس ثم يذهبون ليخبروا سيف بالخبر . يحضر سيف بنفسه ويرى حالة امـه فيحس بالاشفاق عليها ويخرجها من السجن ويضعها في حجرة خاصة بها في القصر ويقيم على خدمتها جارية تنجح اذن قمرية في تنفيذ المرحلة الاولى من مؤامرتها الجديدة .

المرحلة الثانية وهي خارج السجن تتمكن بواسطة جاريتها من وضع مخدر لهما في الماء يستغرقان في نومهما . المرحلة الثالثة من المؤامرة هي التسلل الى حجرتهما وسرقة اللوح المطلسم من سيف . اوامر قمرية لعيروض

هي ان يحمل سيف ويرمي به في مدينة الحكيم افلاطون على أسنان أواسنة رماح وسيوف اهل المدينة حتى تمزقه لاشفاء غليل نفوسهم بعد ان سرق سيف قلنسوة الحكيم افلاطون • عيروض ينفذ ما امرت به الملكة فيدبر مع عاقصة قضية انقاذ الملك سيف • كل تلك الاحداث الجسام مع التأنيب النفسي هد من قوى سيف فوقع فريسة مرض وظل في مقر والد عاقصة مريضا ثلاثة اشهر كاملة وهي ترعاه وتشرف على علاجه • يرسل سيف عاقصة الى المدينة الحمراء لتأتيه باخبار اهله تعود وتطمئنه ان الجميع في رعاية برنوخ ، وان الملكة قمرية تعاني من مرض عضال بعد ان نفذ فيها برنوخ سحره وقد اجلس على عرش المدينة ابنه دمر ووضع مساعدين له سعدون الزنجي والملك ابا تاج حملته عاقصة بعد ان تماثل للشفاء لتعود به الى مدينته •

سيف في مغامرة نسائية :

وفي الطريق اعترضه بستان جميل استفسر عنه من عاقصة فابلغته انه بستان النزهة المطلسم وطلب منها ان تنزله اليه ومما زاد من فضوله واصراره على النزول هو سماع اخباره الغريبة • وفي البستان العجيب رأى حجرة منعزلة عليها بناء جميل فيه رسوم ونقوش وارض الحجرة مفروشة بحرير منقوش وفي الحجرة خزائن جميلة يدفعه الفضول البشري الى ان يفتحها على الرغم من تحذير عاقصة له • وكان كلما ادار رأسه راى شيئا يسلب اللب ويسحر النفس اربعين كرسيا وحوضا من الرخام المتعدد الالوان وسطه نافورة يندفع منها ماء رقراق • اثارت الكراسي فضوله فاختفى في حوض للزهور يترقب ما ستحمله اللحظات القادمة ••• طيور تهبط بجوار الكراسي وتخلع ريشها فاذا بها غادات جميلة هيفاء يتمازحن ينادين على اجمل واحدة فيهم ياملكة « منية النفوس » تقع نفس سيف عليها يعمل المستحيل على الرغم من تحذيرات عاقصة له الا انها حاولت مساعدته بعد ان احست بحاله وبدأت ترسم له خطاً للوصول الى منية النفوس بنت الملك

« قاسم العبوس » يسرق سيف من منية النفوس ثوبها ويظهر لها من خلف الاغصان بعد ان تأكد ان المكان قد خلا الا منهما وراح ينفذ تعليمات عاقصة وهي انمخرجها اولا منالبستان • الخيال الشعبي يصور سيف في موقف رجولي كما يعتقد ، يجر الفارة من شعرها بكل قسوة ثم يرمي بها ارضا وهنا أستسلمت عاجزة ذليلة تحملها عاقصة الى قصر المارد المختطف وهنايطلب سيف من الملكة منية النفوس يدها للزواج وتحضر العقد كشاهد « عاقصة » وبعد ان تمت اجراءات العقد الشرعي اقيمت الافراح ، تسمح الذهنية الشعبية على الرغم من تزمتها المعروف في مثل هذه الامور تسمح لسيف ان يقوم بمثل تلك الترتيبات لنفسه ولان سيف بالنسبة لها مؤمن وشهم وكريمالاخلاق فلا يمكن ان يقدم الا على عمل شرعي مجاز • وهذا الزواج هو ثالث زيجاته وبعد ايام تحملها عاقصة الى ارض حمراء الحبش واثناء السير يضطرب طيرانها ، فقد اعترضها رصد مطلسم من الأرض تنزلهما مضطرة في جزيرة خالية • وقد انقذتهما صدفة سفن الملك « ابي تاج » وتحملهما الى مدينته حيث تجري استعدادات حربية كبيرة تهيأ للزحف على مدينة حمراء اليمن وانهاء جور الملكة قمرية • استنتجت قمرية بعد ان أبلغها الخادم بخبر برنوخ وسعدون انهما يدبران امرا ضدها • وقد حل بها خطب جلل من برنوخ ولم يستطع عيروض ان ينقذها منه فترسل رسولا الى الملك سيف ارعد تطلب منه المساعدة ويرسل لها بدوره جيشا وعلى رأسه ثلاثة فرسان وحكيمان • مثل التحالف المضاد سيف ارعد وقمرية والحكيمان وساروا في جيش يبلغ عشرة الاف جندي وعلى رأسه الفرسان الثلاثة • وكان برنوخ وسعدون والملك افراح • وكان سيف بن ذي يزن في الجهة المضادة لذاك التحالف يستعدون داخل المدينة بثبات ورباطة جأش وتعقل يتدخل في المعركة عنصر السحر ويحسم كثيرا من المواقف الحرجة التفكير الاسطوري فالبحر يحل محل الصحراء ليباعد بين جيش سيف ارعد والمدينة اليمنية ويعمل السحرة الثمانون بقيادة او زعامة سقرديون وسقرديوس على ازالة البحر والظلمةالتي احاطت بقصر الملكةقمرية • يتواجه

الجيشان ويقذف كل طرف بفرسان للنزال، استبسل جيش الجبهة اليزنية على الرغم من قلة عدده وعتاده الا انه كاد ان يباد حين ظهر لهم شبح سيف من بعيد على رأس جيش كبير ، تركناه هو والملك ابو تاج قبل فترة يعدان لخوض هـذه المعركة • يبدأ سيف قتاله بنزال فروسي يقع في الاسر فارسان من الفرسان الثلاثة وعرض الاسلام عليهما فقبلاه وأسلما •

وفي وسط المعركة ياتي الحكيم « أخميم طالب » بابنته « جيزة » الى سيف ليتزوجها حتى يكمل العدد المحلل له شرعا • كما قدمت اليه الحكيمة عاقلة بصحبة ابنتها طاقة • أصبحت النساء يعرضن عليه بعد ان تربع عرش الملك يجتمع في مجلسه ذاك جميع الحكماء والذين ساعدوه في محنته •

افكار قمرية الجهنمية :

بدأت قمرية من جديد تدبير المؤامرات هذه المرة تطلب من عيروض ان يسرع ويقتل سيف فيعود خائبا • تشحذ فكرها تخرج بفكرة جديدة جهنمية وهي تقليد اللوح المطلسم بلوح مثله ، لنرى ماذا كانت تريد قمرية بفعلها ذاك ؟ بعد ان انتهى الصائغ من عمله وكان قد اتقنه جيدا شكرته قمرية وأجزلت له العطاء وهو في جو الكرم والضيافة مبهور يكاد لا يصدق وهي في عملها ذلك تعد عدتها • كانت خطتها اولا التخلص من الصائغ حتى لا تنكشف قبل الاوان فتفشل تدبيراتها • لقد عودنا الخيال الشعبي من خلال تفكير قمرية وخططها على الحرص الشديد جدا في حركاتها وتصرفاتها لقد أراد الفكر الشعبي ان يلخص لنا تجاربه لعل الاجيال التي تقرأ او تسمع ان تستفيد منها سواء في صنع الخبث او في الحركة المضادة له • تدس قمرية السم في خبث عجيب وهدوء اعصاب غريب ، وكان المسكين يأكله ممزوجا بابتسامتها الخبيثة وما كاد يشبع من أكلة دسمة حتى ارتمى الى جوار الطعام يحتضر وسحبت جثته الى خارج القصر •

نزال حام يدور بين سيف بن ذي يزن والفارس مكمون والجميع يترقبون المعركة بقلوب واجفة ، تنتهي بانتصار سيف • ثم ينازل السحرة

بعضهم بعضاً ، وينازل الجنود والجيش بعضهم بعضا • المعركة في ثلاث دوائر : الدائرة الصغرى الفرسان ثم التي تليها السحرة والحكماء والدائرة الثالثة القواد والجيش • المهم هي ان المعركة انتهت بانتصار سيف وحكمائه وجيشه • وكانت بشرى سيف الثانية ولادة ذكر من زوجته ناهد اسماه « نصر » وأراد ان تفرح معه المدينة اكثر من فرح فتزوج جيزة في نفس يوم انتصاره وكانت الرابعة • الزواج من الخامسة وهي طامة بقيت قضية بلا حل لان الذهنية الشعبية المتشبعة بالمفاهيم الدينية ترفض اكثر مما اجازه الاسلام للرجل وهي الزواج من أربع فكيف سيحل العقل الشعبي هذا الاشكال ؟ الاحداث التي تتابع علينا في القصة ستجعل المنفذ من هذا الاشكال موجودا فكيف حل العقل الشعبي تلك المعضلة او بالاصح كيف ساعد سيف على حلها ؟ عودتنا الملكة قمرية ان تحل المشاكل التي تجابهها اعتمادا على ذكائها وخبثها • تحمل لسيف اللوح وتصل الى قاعة جلوسه حافية القدمين عارية الرأس لتعلن له توبتها وتسلم له اللوح ، وهي تدعوه الى ان يقتلها • يندفع الجميع كل يريد ان يجهز عليها قبل الآخر يعترضهم سيف تخلص من عنقها اللوح وتسلم سيف ثم تؤمن على يده اثر وصية لذي يزن رأتها في منامها • ويستبشر سيف لذلك كثيرا على الرغم من تحذيرات الجميع له ، فيعفو عنها وتعيش معه في القصر وتحققت بذلك غايتها فما هي المكيدة الجديدة التي كانت تدور في رأس قمرية ؟

يلزم الزوجان في العادة الشعبية المتبعة في الزواج حجرتهما سبعة ايام بلياليها ، وقد بقي سيف وعروسه جيزة في غرفتهما ، وفي اليوم السابع نزل يتقبل التهاني ، وقد استأذن الفرسان الثلاثة في العودة الى أوطانهم فاذن لهم • الانتصارات والافراح تنهمر من كل حدب وصوب وكأن الخيال الشعبي يريد ان يعوضه عن سلسلة المغامرات والمشاكل التي تعرض لها في حياته منذ ولادته • يصل اليه البشير ليلقي على مسامعه بشرى اخرى « منية النفوس » تضع ولدا سماه برنوخ « مصرا » • أصبح أبا لثلاثة اولاد ذكور « دمر » و « نصر » و « مصر » •

ظل اجتماع الشام ومصر في اعماق الوجدان العربي ففي ذاك الاجتماع يولد المولود الثالث « نصر » وعبر التاريخ كان في ذاك الاجتماع قوة كبيرة ليس لهما فقط وانما لعرب المشرق والمغرب • فالأرض المشطورة والامة المشطورة كذلك باجتماعهما تكتمل • أدركت ذلك الذهنية الشعبية البسيطة ، فكرست السيرة الطويلة بأسرها لتقول لنا ذلك • زفت فرحتنا مع الفرحة الشعبية بهذا المولود « مصر » « مصر السيرة » ومصر التي نحلم بمولدها وتتمناه ، دسائس ومؤامرات « قمرية » تمزق الاحلام الجميلة • تتسلل قمرية الى غرفة ناهد ، تسلط عليه زوجه ناهد فتندفع معها ، وهي تجهل ابعاد مرامي قمرية تأخذها بالرقة المفتعلة حتى تستغفل سيف وتسحب منه حزاما مصنوعا من رق الغزال كان يتمنطق به حتى تشفى من مرض ادعته ، ويبدو ان قمرية ما زالت مريضة ، مرضها اليوم يختلف قليلا عن مرض الامس لانه مرض عضال • تريد بدسائسها ان تستأصله وتنتزعه من مكانه كما انتزعت « قمرية السير » حزام سيف من يد زوجته •

السيرة ترصد الاحداث التي تلي لتسخرها لخدمة سيف في التمتع بالزواج • تتابع الاحداث في اتجاه مقتل الملكة ناهد التي تلقت ضربة مميتة من طامة ولم تكن هي المقصودة بل كانت قمرية هي المستهدفة الا ان نفس الشر كما يبدو طويل يقتنع سيف بعد معاناة طويلة بقتل قمرية في مصدر القلاقل والاضطرابات في مملكته وارضه ، والالتفات الى قضيته الجوهرية ، وهي نشر عقيدته الاسلامية لن يكون الا بالقضاء على مصدر القلق : وبالاجماع يحكمون عليها بالموت •

هذا الفصل مكرس لاقتران طامة بالملك سيف • يتم الزواج وقمرية لم تمت بعد فأين هي والى أي جهة ولت بوجهتها ؟ لقد اتجهت شطر الصين تدس هناك عند ملكها على الملك سيف بن ذي يزن وتوغر صدره بمقتل ابنته ناهد حيث توعز اليه ان سيف هو الذي قتل ابنته • يأمر باعداد حملة كبيرة تسير الى اليمن • ثم تورطه في ورطة اخرى بالزواج منها بعد ان فتنه جمالها •

تدخل في دينه لتوقعه في حبائلها وتنفذ به ما تبقى من مخططاتها الجهنمية ، وقمرية اليوم خطت نفس الخطوات واستطاعت بذلك ان تموه على الجميع حقيقة اهدافها التي وجدت من أجلها فهي لم توجد لصنع الحضارة في المنطقة اياها ولا لزرع الخير كما ادعت قمرية امام ملك الصين . عمدوا دخولها في دينهم بحفل كبير وهي سائرة بهدوء تام فما عزمت عليه تبدى له استعدادها لمساعدته . يسرق عليها برنوخ اللوح المطلسم بعد مقدمات صعبة وشاقة حتى وصل اليها وتمكن من اللوح وقد حمله لسيف كما حملت عاقصة الملكة قمرية الى مملكة سيف ليتم القصاص ، وقد تم على يد الملكات الاربع زوجاته وكن قد قررن التخلص منها حتى لا يكون مصيرهن كمصير الملكة الضحية ناهد .

اخيرا ماتت قمرية فلمن الحياة بعد مقتلها وازاحة الشرور ، تعد الذهنية الشعبية بافقها السياسي المتلهف على ان منح الحياة بعد انتهاء الشر لامراء الغد « دمر » و « مصر » و « نصر » . وجلس الامراء الثلاثة على نفس المقعد الذي انتزعته قمرية من الملك ذي يزن لتجلس عليه . وعاد الجميع كل الى بلده بعد ان انتهوا من اصعب مهمة جابهتهم في حياتهم ليسخروا فيها طاقاتهم وقدراتهم جميعا من أجل الوصول الى النتيجة : انهاء قمرية حتى يعود العرش اليزني الى أهله ، ويستتب الامر في المملكة لملكها الشرعي « سيف بن ذي يزن » .

محتويات بقية المجلدات :

لقد حاولنا ان نعطي ملخصا للمجلد الاول باعتباره يمثل قصة سيف الذاتية الاسطورية ، ورأينا عدم جدوى تلخيص المجلدات الباقية ، لاعتبارات عدة منها انها لاتحمل اخبار سيف الاسطورية الا لماما فهي تحكي قصص بنيه نصر، دمر، مصر. وزوجاته . ثم ان الجانب الخرافي فيها وصل حتى منتهاه ، والى الحد الذي أصبح فيه بعيدا عن اهتمام القاريء . رصد المجلدات لمجموع العادات والتقاليد السائدة في العصر المملوكي والتي يأتي ذكر بعضها

مثيرا للغثيان في النفوس • لذلك وقناعة بعدم جدوى تقديم تلخيص للمجلدات الثلاثة الباقية سوف نحاول اعطاء تصور عام ومحدد عن المواضيع التي تناولتها المجلدات •

يأتي المجلد الثاني ليركز كما جرت العادة في السيرة ككل على الجانب الديني ، ونضال سيف ضد عبدة النار والكواكب والصلبان ، ونضاله للاقرار بوحدانية الله • وترد في المجلد بعض القصص الواردة في القرآن كقصة سليمان وبلقيس ، وابراهيم وأبيه ، ويونس وهو في بطن الحوت ، وغيرها من القصص الدينية • وفي السيرة يستبدل بهم سيف ، تظهر في المجلد بعض القضايا الاجتماعية تقاليد ، قيم ، امراض ، ومن التقاليد الاجتماعية السائدة انذاك التعدد في الزوجات والاكثار منهن ويظهر فيها سيف صوالا جوالا لايثنيه في ذلك شيء مهما كبر ، كما ترفض التقاليد الاجتماعية ، وتمج زواج الرجل القصير بالمرأة الطويلة وتعزو رفضها الى حرصها الشديد على توفير الراحة الجنسية للطرفين وبالذات المرأة •

ومن القيم الاجتماعية الدينية التي عرجت عليها السيرة وشددت اثناء التعريج ، سن عقوبة الموت على الزاني او الزانية رغبة الجماهير الشعبية ، تسعى لتنفيذه على ابناء الملوك العابثين •• والسيرة ترفض عادة دفن الزوجات مع أزواجهن ، ويبدو انها كانت تجري في وسط الاحياء الشعبية والفقيرة في تلك الازمنة ، وتريد السيرة ان تعوض المرأة ، التي جرى عليها العرف الاجتماعي البشع ذاك ، بالزواج من سيف الذي يرفض ذلك تطبيقا لعرف اجتماعي آخر كان وما يزال قائماً الى يومنا هذا ، وهو تكملة العدة • وفي ذكر الامراض والجرائم الاجتماعية يرد الكثير منها الشذوذ الجنسي والذي وجدت له في السيرة مجمعات خاصة للجنس نفسه يقيم فيها فيما بينه علاقات ارتباط كالعلاقات الزوجية تماما • ويذكر المجلد من الجرائم الاجتماعية اغتصاب العذارى • الا ان القاص الشعبي لا يستنكر ذلك ولا يضعه باسلوب الرافض للعملية على الرغم من نتائجها الاجتماعية السلبية ، بل يزينها او بأكثر دقة يضعها في لحظتها الآنية وبمردودها الغريزي المستجيب للحاجة • اى انه

يجردها من اطارها الاجتماعي ، ويضعها كما هي ، وقد اكثر في السيرة من ذكرها فهل كان يجد في ذكر ذلك تعويضا عن الحرمان الذي كان يعاني منه في حياته بعد ان استولى المماليك ومماليكهم على كل شيء في مصر ؟؟

وتمتليء السيرة في هذا الجزء بقصص دينية تاريخية كثيرة كقصة سليمان وبلقيس ، وكنوز الملك سليمان التي يبحث عنها سيف ، وأسماء لملك وعباقرة في التاريخ وشوهها القاص الشعبي بحكم طبيعة ثقافته فهو يظهرها بصورة جن ومردة وشياطين بعد ان حرف اسماءها قليلا فالملك السبئي الكبير « يرعش » هو في السيرة المارد مرعش • وافلاطون فيلسوف اليونان يحمل قلنسوة هي سر حكمته وفلسفته • وأكملت المجلد الثالث بعض الاسماء كالملك كنعان • يمتليء بموروث سحري يصل حد المج له في صورة سيف وقد تحول بعامل سحر الى غراب ، وهنا تغيب اخباره •

يعرض المجلد الثالث تجربة ابناء الملك سيف مصر ونصر ودمر خاصة بعد غياب الملك سيف عن الساحة بعد تحوله الى غراب ، ومع غياب سيف وانعدام التجربة لدى ابنائه الثلاثة تلعب حكيمة عجوز تسميها السيرة « عاقلة » دورا كبيرا في تسديد النصائح لهم ، وتقدم تجربتها الذاتية لخدمتهم واخراجهم من محنهم ونصرتهم في الوقت المناسب • يدور جزء من المجلد حول معركة فاصلة تقع بين التحالف المؤمن الملك افراح الامير سعدون الكاهنة عاقلة ضد التحالف المضاد سيف ارعد وحكمائه ، ينتصر الحلف الاول بفضل الحكيمة • وبعدها تكرس الحكيمة جل جهدها لتخليص الملك سيف من محنته بعد ان تحول الى غراب • تدور الاخبار في المجلد حول الاستعدادات للانتقام من الملكة التي حولت سيف الى غراب ، وبعد الانتقام منها يتحول الجميع الى حمراء اليمن •• وهي المدينة التي تسكنها الملكة قمرية والدة سيف • تفتح المدينة ويلغى اسمها القديم وتسمى مصر •

يشتد نضال سيف وقد عاد الى حالته الطبيعية ضد اهل الكفر بكل انواعهم التي حددتها الذهنية الشعبية ابتداءا بعبدة النار وانتهاءا بحملة

الصلبان • ونحن لاننسى ماكان في تلك الفترة الزمنية مـن فتنة اهلية بين مسلمي ومسيحيي مصر • ولذا جاءت السيرة الاسلامية في جوهرها لتحرض على المسيحيين وتضعهم على نفس أرضية الكفرة وتحرمهم مما وهبهم اياه الاسلام من مميزات باعتبارهم اهل كتاب ، الحليف الطبيعي للمسلمين كمـا تبرزه السيرة هم أحفاد سليمان فذكرهم لا يرد الا من خلال سليمان ويمثل في السيرة هدفاً وغاية تسعى الذهنية الشعبية للوصول الى كنوزه وحكمته ، فيقاتل الملك « سيف » بسيف آصف بن برخيا نائب الملك « سليمان » • ولولا سيفه المجندل لما انتصر على المشركين ، ومنهم حملة الصلبان • المواقف العقدية تحل العمل الاسطوري ، وبأدوات سحرية •

يحمل المجلد الرابع اخبار سيف بن ذي يزن وهو في ايامه الاخيرة ، ويتطرق المجلد الى قضايا دينية واجتماعية وانسانية عامة يلفها اطار كثيف من الموروث السحري ، وعن القضايا الانسانية العامة بيع وشراء العبيد والجواري والاتخاذ منهن خليلات وجليسات منادمة وتسرر ، « وهو ماكان يحدث في العصر المملوكي ، فقد بلغت جواري الملك الكامل شعبان بن الملك الناصر محمد بن قلاوون خمسمائة جارية كان ذلك في ٧٤٧هـ وتقول الاخبار التاريخية ان الملك الكامل وبعض اخوته قد شغفوا بالجواري السودان »(*) ومن الاخبار التاريخية التي وردت في المؤلفات في العهد المملوكي ، وجـاء ما يشبهها في السيرة الشعبية المجلد الرابع كقيم اجتماعية ديس عليها ، ايامهم الزواج العرفي غير الرسمي ، واعتبرته الذهنية الشعبية زنا ، وظهر في علاقة بولاق الابن الاصغر لسيف بينت ملك سمته السيرة الروض وسمتها الروضة ، وكاد ان يقتل من جراء تلـك العلاقـة لولا تدخـل الملك سيف بنفسـه ، ثم ما تم بعد ذلك من الاعتراف بأن الزواج قد تم بصورة سرية دون شهود عيان •

على الصعيد السياسي العسكري تدور الحرب الاخيرة بين سيف بن ذي يزن وسيف ارعد كل يستعين فيها بكهنته ، تصول الحكيمة عاقلة بسحرها في

(*) جمال الدين الاتابكى النجوم الزاهرة م ١ ص ١٥٠ •

هذه الحرب وتجول ، وتقتل افيال الملك سيف ارعد ، وكثيراً من رجاله • وفي خاتمة الحرب يقتل الملك الحبشي سيف ارعد على يد دمر احد ابناء سيف بن ذي يزن الذي يحتل عرش الملك الحبشي سيف أرعد •

يناضل الملك سيف وابناؤه من أجل ابطال عبادة الاحجار والاصنام ويتمكنون من الحاق الهزيمة بأتباعها عن طريق المردة والجان المؤمنين منهم • تظهر السيرة في هذا المجلد على ان الدين هو الاسلام ويمثله سيف بن ذي يزن عدو الحكماء •

تستمر في هذا المجلد متابعة الملك سيف للحكيمين سقرديون وسقرديوس وتستمر فتوحاته ، رغما عن مكائدهما واسحارهما • وحين كان يجرب صدق اسلام شخص ما فانه كان يستخدم سيف آصف بن برخيا فيضعه على رأسه ، وهناك حركة للسيف يعرف بها صدق اسلام الشخص أم خداعه •

في هذا المجلد يخلص سيف بسيف آصف بن برخيا الناس من ابناء ابليس ويدفنهم جميعا في البئر التي كانوا فيها كما يقوم بمطاردة الشياطين • تظهر السيرة سيف بن ذي يزن على مستوى رفيع من الاخلاق في تعامله مع اعدائه فهو يرفض الغدر بهم ، ويطلب المواجهة الشجاعة معهم •

وفي نهاية السيرة يقتتل الملك سيف وابنه دمر من أجل امرأة ويبدو ان الكيل قد طفح بابنه دمر فراح يخاطبه بلهجة حادة « كل هذا منك وبسببك لانك كلما رأيت بنتا اخذتها وفي عاجل الحال تزوجتها هذا اذا كانت ذات حسن وجمال وبهاء ودلال واذا كانت بغير اوصاف حميدة تركتها ولم تسأل عنها وأنا احق بذلك لانك حدث كبير ومالك بهذا الامر النكير »(*) ، وانتهت المعركة بالافتراق بين الاب وابنه •

ملاحقة الحكيمين تصل الى الاقليم الخامس وهو اقليم يونان يطلب سيف من المارد صاروخ كما يرد اسمه ايصاله الى هناك ليقبض عليهما ، وحين لا يجدهما يرتحل الى الاقليم السادس وفي نهاية السيرة يأتي بهما عفاشة الى سيف فيصلبان ويرد في السيرة حديث يرويه الراوي على لسان راو مجهول

(*) المصدر السابق م ٤ ص ١٢٩ •

« وان الوادي السادس فيه حكيمان حكيمة يقال لها رخمة وزوجها حكيم يقال له رخائم وهما اكبر تلاميذ الكاهن يونان الذي اصل هذه الاقاليم لـه وان رومان الازرق وأخاه روم هناك »(*) • هكذا فهمت الذهنية الشعبية الفلسفة اليونانية حيث يسلم الحكيم يونان عدة حكمته للملك رومان حتى يسلمها للمسلمين وبالذات لسيف بن ذي يزن ، وفي هذه الاقاليم التي مروا عليها يتزوج الاخوة الذكور من اخواتهم الاناث •

يصبح سيف في هذا المجلد جدا بعد ان ينجب ابنه نصر ولدا اسموه « الدمرياط » وعلى الرغم من ذلك ما زال يتابع القتال • وفي اقليم رومان يرى الهول بأم عينه فأصحابه يتساقطون الآخر تلو الاول ، الحكيمة عاقلة الشيخ عبدالقدوس •• الخ •

اصبح تحت امرة سيف بن ذي يزن سبعة وثلاثون ملكا كلهم ملوك على قرى ومدن في الحبشة والسودان وثلاثة وثمانون سلطانا ومقاوما •

تحكي السيرة في ختامها سيرة سيف بن ذي يزن كما أرادتها الذهنية الشعبية وأخرجتها بصورتها الشعرية في مئتين وخمسة عشر بيتا • تحدثت عن تاريخ أجداده التبابعة اليمنيين ، ثم تعرج على حياته في مراحلها المختلفة منذ طفولته وما جابهه من أهوال ، وحتى شبابه وفيه تمت العديد من الزيجات له ، ومغامراته الحربية بالعتاد السحري المتنوع فهو لوح وسيف وخرزة وسوط مطلسم •

ثم يأتي الشعر على ذكر انتصاراته وأخيرا ما قام به من توزيع للامصار بين بنيه واصدقائه المقربين •

وبتعبير دقيق تلخص الابيات الشعرية السيرة وتتطرق الى مختلف جوانب الحياة التي عاش فيها انسان ذاك العصر وأقلقه تعرض أي جانب فيها للخطر ، فورد كل ذلك في صور النضال والصراع الذي عاشه سيف البطل الاسطورة في الرواية •

(*) المصدر نفسه م ٤ ص ٢٠٠ •

الباب الخامس
تقييم السيرة الشعبية

انتجع الفكر العربي الاسطوري في القرون الوسطى العديد من القصص والروايات ، بعد ان اعتملت في داخله العديد من المؤثرات من الشرق بأوسطه وادناه ، مصر وبابل وكلدان واليمن ، وفارس والهند والصين .. الخ . في مرحلتي السحر والتدين ومثلت السيرة الشعبية اليزنية مع اسطورة الف ليلة وليلة قمة ذاك الانتجاع ، فقد أشبع القاص الشعبي الجو فيهما بالعجائب واتى بالغرائب من اعمال الجن والمردة ، الى جانب خوارق العنصر الانساني وهو الذي اكسب السيرة مكانة عالية ، حيث اتت في مجملها لتنفيذ الارادة الالهية . لم يكن البطل فيها سوى اداة تنفيذ جهزت مسبقا بكامل عدتها لتنفيذ مهام ثلاث :

الاولى : اقتصادية وهي تحويل مجرى النيل من الحبشة الى مصر .

الثانية : سياسية اخضاع الحبشة في مرحلة صراعها المحتدم مع مصر في القرن الرابع عشر لمصر ، واسقاط اكبر عروشها انذاك .

والثالثة : دينية وتسعى لنشر الاسلام الابراهيمي تمهيدا لنصرة الاسلام المحمدي ، وتحطيم وتدمير كل ما عدا ذلك من ديانات باستثناء اليهودية .

وقد وضعت تنفيذ هذه المهام الثلاث على عاتق البطل اليمني سيف ، وامدته بكل الصفات الضرورية لانجاح مهمته التاريخية . فهو الشجاع

وهو الذكي وهو الشهم الى آخره •• من المواصفات • وقد قسمت السيرة القوى المتنازعة في جبهتين ، جبهة الخير ومثلها سيف وتحالفه السياسي الديني ، والجبهة المضادة وقد جمعت كل قوى الشر بزعامة سيف ارعد الملك الحبشي السليماني الذي عاش في القرن الثامن ، ودخل الجميع في الصراع وامدت السيرة سيف بكوكبة من الانبياء ، سام ، سليمان ، وزيره آصف بن برخيا وفي مقدمتهم ابراهيم • جميعهم ، مدوا سيفاً بما احتاجه من عدة للنضال ضد الجبهة المضادة وانتزاع النصر منها ، كما وقفت مع سيف جمهرة من السحرة والكهنة والجان والمردة من الذين جمعتهم واياه وحدة العقيدة والهدف ، وهو الاسلام وانتصاره • وبالمقابل كانت الجبهة المضادة تتألف من قوى يجمعها هدف واحد ، وهو مقارعة الاسلام وعدم تمكنيه منها ، ودخلت ضمن التحالف في الجبهتين وامتزج العنصر الانساني مع الجان بادواتهم السحرية كما جاء ذلك تعبيرا عن ميول الرواة النفسية ، والمزاج الشعبي في تلك العصور ، فقد جاء مؤثرا فيها غارقا اياها في عالم غير عالمها لاهداف خطط لها ، ووجدت في الواقع استجابة لتنفيذها •

يلعب السحر كما أراد رواة السيرة دورا كبيرا فيها فلدى السحرة قوة تضاهي قوة الالهة ، خاصة المسلمون منهم • لانهم يستمدونها من قوة الذات الالهية الواحدة التي ارتضوا بها وأسلموا أمورهم اليها ، فأمدتهم لتنفيذ مشورتها القدسية بقوة سحرية يمكن بها اذا تطلب الموقف الدراماتيكي ذلك أمحاء مدينة من الوجود ، واحلال اخرى بدلا عنها في لمحة البصر ، مشطبا بذلك على قيمتي الزمان والمكان ، وقد جاؤوا في السيرة بأعمال سحرية كثيرة •

والسيرة الاسطورية بمجملها محبوكة حول موضوع تاريخي ديني يمكننا ان نوجزه لايضاح القضية الاساسية في السيرة ، وهي الحركة الوطنية اليزنية في معركتها التحريرية ضد الحكم الاوتوقراطي الابرهي الحبشي في القرن السادس للميلاد ، وهي القضية التي دارت حولها كل تلك التفاعلات الشعبية

على امتداد القرون الثمانية للهجرة ، ومنذ ان حملها اليمنيون الى مصر في عهد الفتوحات الاسلامية المبكرة تحت قيادة عمرو بن العاص • وظلت تتفاعل بين الجماهير وفي الكتب التاريخية حتى القرن الثامن الهجري اي الرابع عشر الميلادي وقد اعارت الذهنية الشعبية مشاعرها الدينية للاحداث التاريخية ، ويظهر موضوعها التاريخي الديني على النحو التالي :

للملك الاب ذي يزن الحميري وزير عاقل يدعي يثرب آمن بالاسلام قبل الدعوة المحمدية ، وقرأ في الكتب المقدسة عن الرسول العربي محمد بن عبدالله الذي سيخرج من الجزيرة لمواصلة نشر الاسلام الابراهيمي وتمكين الديانة الاسلامية من الانتشار في الارض • عرف الملك الحميري باسلام وزيره وتوحيده وهو في طريقه الى مكة حيث عرف هذا النوع من العبادة ، وحاول تحطيمها الا انه تراجع اثر مرض ألم به ، وعاود الكرة ثانية فاتضح له عدم امكانية ذلك فتراجع وتحول الى الاسلام هو وكامل جيشه • ومع ملاحظة ان الموضوع التاريخي الديني هو نفسه نسج خيال ، ومحاولة تصوير ان حادثة تاريخية قد جرت على نسج تلك الوقائع مع الاخذ بعين الاعتبار ان الحقائق التاريخية المدونة والمعروفة لا تحمل قصة من هذا النوع • وبالرغم من ورود اسم ذي يزن كقبيلة في النقوش والمدونات التاريخية وتبدو واضحة عملية التطويع التعسفي وتستغل باستمرار في وقت الحاجة وذلك ما حدث حين طوعت اسماء تاريخية لاحداث خيالية لها طابع ديني • وهو الذي حملنا على اعطائها صفة التاريخية الدينية •

عودة الى الرواية التاريخية الدينية نرى ان وزيره المسلم يثرب يقوم ببناء مدينة في واحة عسكروا فيها سميت باسمه ، وهي مدينة يثرب التي عرفت بعد هجرة الرسول اليها والى اليوم بالمدينة المنورة • ثم توجه الملك الحميري الى الحبشة وقرر بناء مدينة فيها اثر اعجابه بجمال الطبيعة فيها وتعلقه بها • الا ان الملك سيف ارعد ـ وهما الاستعارة الثانية والتطويع التعسفي ـ يرفض تأسيس دويلات اجنبية في أراضيه ، ويقرر الحرب

لايقاف الاعمال الاستيطانية ، ينصحه مستشاراه بتجنب اراقة الدماء ، والدخول في تحد من نوع آخر للملك الحميري ذي يزن . والتحدي هنا هو اللجوء الى الحيلة والخديعة . وعليه فقد ارسل الملك الحبشي سيف ارعد جاريته قمرية لتفتك بالسم بالملك سيف ، تفشل المؤامرة بعد انفضاحها فتعتمد على جمالها في المراوغة . يتزوجها الملك وقبل وفاته يجعلها وصية على عرشه لتنجب الملك سيف . فتقرر التخلص منه وترميه في الصحراء وهنا ترتفع درجة حرارة الفكر الاسطوري وينعطف في زاوية حادة مخلفا وراءه الافكار التاريخية الدينية الغيبية داخلا في محور سحري ـ ديني جامعا بين السحر والدين خالقا منهما مادة واحدة تبتديء منذ ترك سيف وهو المسمى في السيرة بوحش الفلا في الصحراء ، وتتدخل العناية الالهية باغاثتها للطفل بغزالة ترضعه ومن هذا الموقف حتى خاتمة حياته وسيف محل عناية الذات الالهية التي تتدخل في الظروف الحرجة لمصلحة من اختارته ارادتها منفذا لمشيئتها في الارض ، وكانت أول المهام الملقاة على عاتقه هي تحويل مجرى نهر النيل . لقد ربطت الرغبة المصرية الشعبية والرسمية المشتركة ذات المصلحة الاقتصادية الواحدة بالارادة الربانية . فالله هو الذي يريد تحويل المجرى لذا ارسل سيفاً ووفر له الحماية اللازمة لتنفيذ مشيئته . والنيل هو احد الانهر الاربعة التي تجري على الارض فيغور اثنان منها وهما الفرات والنيل تحت الارض ، ويبقى سيحون وجيحون يجريان على السطح . والاسطورة بعد ان صبغت الرغبة المصرية بصبغة قدسية باعطائها أبعادا دينية ، أرادت كذلك ان تضفي بعدا تاريخيا يحمل تبريرا لتلك الرغبة وهي ان النيل كان يجري من قديم اصلا في مصر انه ينبع من أرضها ويجري فيها . وتظهر اسطورة تحكي ان زعيم مدينة تعاني الجفاف ويدعى « جابلكا » هو الذي حول النيل بقارورة ملأها من ماء النيل وقد تكررت عملية التحويل سبع مرات متتالية فكان لا بد من وقف العملية المتبعة بكتابة كتاب تاريخ النيل وخبيء في مكان معين كانت على سيف مهمة الوصول

اليه • الا ان انجاز المهمة الاقتصادية التاريخية الدينية في مظهرها كانت تستوجب اخراجا اسطوريا بأدوات اسطورية فكان لابد من :

١ ـ الحصول على كتاب النيل •

٢ ـ الدفاع عن النفس ضد جبهة الجن والمردة الاشرار باختراع سيف آصف بن برخيا •

٣ ـ حصان سحري يحمل سيف بن ذي يزن •

٤ ـ فأس يافت بن نوح ليستطيع شق طريقه وسط الجبال الوعرة •

٥ ـ الخرزة المسحورة للملك كوش بن كنعان •

٦ ـ لوح يخدم تحت امرته الجني خليجان وأخوه •

٧ ـ والعفريت المسمى بالرهق الاسود •

وكان لابد من توفير هذه الادوات حتى تتحقق الرغبة المصرية في السيطرة على مياه النيل خاصة بعد تهديدات الملك عمدا سيون وابنه سيف ارعد بتحويل نهر النيل عن مصر • وقد ارتعب لذلك الشعب المصري وحكومته معا • وترد على لسان سيف ابيات من الشعر ضمن القصيدة الشعرية الطويلة التي تحكي القضية اليزنية باكملها فيقول :

وقد سهل الرحمن في فحر ارضه   واجريت ماء النيل اعظم انهار

وابطلت اعمالا لبقرة تطلسمت   لافساد جري النيل اسوأ ابقار الخ •

ويحاول سيف في الفكر الاسطوري ان يسخر الرهق الاسود لتحطيم السدود السبعة التي تمنع ماء النيل من الجريان في الاراضي المصرية ، ويتطلب ذلك الحصول على فأس يافت بن سام ، وحين تم العثور على الفأس قام بتحطيم ستة من السدود وامتنع عن تحطيم السابع ، وبعد الحاح تابع مهمته فتدفق الماء وتفرع في فرعين الاول نحو دمياط ، والثاني نحو رشيد ، وتتدخل العناية الالهية لتذليل الصعوبات التي نشأت من جديد ، ولتوصل

الهدف الى نهايته فيجري النيل دونما سدود ويصب في البحر • وهكذا تحقق الهدف الاول •

اما الهدف الثاني وهو تركيع الحبشة لمصر المملوكية فقد دارت المعارك الكثيرة بين سيف وانصاره من الملوك الصغار الذين اسلموا على يده ــ بين الملك سيف ارعد العدو الشديد المراس للحكم المملوكي في القرن الثامن والمتصدي في الاسطورة هو سيف بن ذي يزن الحميري • وقد استخدمت في تلك المعارك كل انواع الخداع والحيل السياسية ، ولعب الكهنة في هذا الجانب ولتحقيق هذا الهدف الدور الكبير • فقد كان الى جانب سيف الحكيمة عاقلة ، وبالمقابل استخدم سيف ارعد الكاهنين سقرديون وسقرديوس •

عكست التطورات السياسية على صعيد الواقع نفسها في السيرة ممزوجة بالاماني والطموحات الشعبية ، والاطماع السلطوية المملوكية المصرية في الحبشة لتمتعها بوضعين اقتصاديين حيويين لمصر الاول منابع نهر النيل الواقعة فوق هضابها الوسطى • والثاني اشرافها على مداخل البحر الاحمر الغربية • ومن هنا جاءت تدخلاتها السياسية في الشؤون الداخلية للحبشة • وتشجيعها الكيانات الاستقلالية ذات الوجه الاسلامي على السواحل البحرية وفي الهضاب الوسطى ، وقد جئنا على ذكر ذلك سابقا •

اتحدت في الاسطورة كل القوى المتحالفة لتحقيق الهدف السياسي في الواقع المادي وأخرج بطريقة اسطورية • فسيف ارعد كما صورته الذهنية الشعبية هو من عبدة زحل وهنا تداخلت كثير من القضايا التاريخية الدينية لان عبادة الكواكب كما تحكي الاخبار الدينية قد حدثت في عهد ابراهيم(*) ، الذي شن معركته المقدسة ضدها ، وباءت بالفشل محاولات قومه وعلى رأسهم

(*) رأينا في القضية الدينية بركنها الاساسي التوحيد قد استعرضناه من كتابنا « التوحيد في تطوره التاريخي » طبعة دار الطليعة اكتوبر سنة ١٩٧٧ م •

أبيه وملكه نمرود الذي قتل حرقا ، كما تحكي الروايات الدينية ، واستمر هو في معارضة ديانة قومه وعبادتهم الكواكب • ويبدو ان سيف بن ذي يزن قرر مواصلة النضال الذي كان قد بدأه ابراهيم ضد عبدة الكوكب زحل وهم وفي هذه المرة الاحباش على عهد سيف ارعد • مع العلم ان « سيف ارعد » وجماعته القبلية « الامهريين » كانوا من اتباع المسيح ، ومن حملة الصلبان على حد رأي الذهنية الشعبية في السيرة • فكيف تحولوا الى عبادة زحل ذلك ما أرادته الاحداث انذاك وعكس نفسه في الرواية • والمهم ان سيف بن ذي يزن اخذ على عاتقه نصرة ديانة ابراهيم على عهد سيف ارعد والانتصار للذات الالهية فهي المرغوب الاسمى لانها الخير الاسمى والمعقول الاسمى ، وهي الجوهر الكامل الذي منه كل كمال وهي العلة السرمدية الازلية • ومن هنا كما يبدو جمعت الازمنة الثلاثة المتباعدة فقدرتها القدسية قادرة على ادغام الزمن في بعض ذلك على مستوى التصورات الدينية الغيبية •

اما على مستوى الوقائع التاريخية المادية فقد قمنا بشرح ذلك مسبقا وبينا من وجهة نظر علمية مادية لماذا حدث الادغام الزمني والاعارة البطولية والتحريف للحقائق التاريخية واظهار سيف ارعد بمظهر الوثني عابد الكواكب الا ان ما حدث هو التطويع التعسفي للزمن لخدمة الهدف السياسي الملح آنذاك

وتعكس القصة ميول الرواة النفسية وتربيتهم وثقافتهم الاجتماعية فتفوح برائحة الشبق الجنسي يترجمه الجميع، وفي مقدمتهم سيف البطل ويبلغ ذروته بالقتال بين دمر وابيه سيف ، وهما يتصارعان حول امرأة يريدها كل منهما لنفسه • وعلى الرغم من مهمته الصعبة التي كلفته حياته بأسرها الا ان الجنس بقى قضية قائمة واستحوذت على جزء كبير من حياته ونضاله الشاق •

وجاء التجانس بين عناصرها قائما على وحدة في العقيدة ، وقد جمع الاسلام جبهة سيف بن ذي يزن ، في الوقت الذي لم تستطع النصرانيـة ان تجمع

الجبهة المضادة ، وتعمد الفكر الاسطوري الشعبي على ان يظهر سيف ارعد وجماعته انهم من عبدة الكواكب ، وقد يكون ذلك ناتجاً عن جهل لحقيقة العبادة الرسمية في الحبشة ، او خلطا للعبادات السائدة هناك ، او ان هناك هدفا سلطويا سياسيا لاظهار حكام الحبشة وكأنهم عبدة الكواكب وتجريدهم من صفتهم الايمانية بديانة سماوية وهي المسيحية ، ومن ثم لتبرير معاداتهم • ونحن بدورنا نميل الى احتمال تداخل كل المسببات المذكورة ، وان كنا نرجح السبب الاخير • وعلى كل كانت الجبهة المضادة للاسلام مشرذمة دينيا • فهناك اكثر من دين وله اتباعه وقد قامت السيرة باستعراض كل العبادات الرئيسية الكبيرة التي تعرف عليها الانسان في مرحلة تدينه ومنذ بواكيرها الاولى ، وبتعبير ادق العبادات التي تعرف عليها الشرق في « مرحلة التدين » ممزوجة بالسحر من بقايا مخلفات « مرحلة السحر » • ففي السيرة تدخل جبهة سيف الاسلامية الابراهيمية في خوض نضال مرير وعنيف بأدوات قتال طبيعية وسحرية وقوى بشرية تاريخية وغير تاريخية الى وهمية ادبية مع قوى اسطورية غير آدمية هم « الجن والمردة » وهم قوى تعترف بها الديانات السماوية ومنها الاسلام ، أي ان هناك اعتراف بعالم هو عالم الجان ، وقد اجتمعوا مع سيف وقواه الآدمية في وحدة اساسها الدين ، وفيها وبها ذابت كل الفروقات والاختلافات الاخرى ، وقد جابه هذا التكتل الاسلامي « الآدمي ــ الجني » ــ معارك كثيرة في نضاله المرير ضد الجبهة المتشرذمة فقاتل عبدة النار لوحده ، ومن دون ان يسندهم لمعتنقي ديانة اخرى •

وحين دخلت جبهة سيف في قتال ضد عبدة الصلبان استفردت بهم ، وسددت اليهم ضربات موجعة دون ان يجدوا من ينصرهم من أصحاب الديانات الاخرى لعدم وجود أية علاقة بينه وبين عابد النار فحاملو الصليب هم في نظر المسلمين ــ المسيحيون المشوهون للمسيح عيسى بن مريم ، وهم اولئك الذين ثلثوا الله الواحد فأفقدوه وحدانيته ، وحين يقوم الفكر الانساني بعمل كهذا يكون قد خرج عن جادة الحق فاستحق غضب الله وغضب

الجماعة الموالية له المؤمنة به • ومن هنا اتت الغضبة اليزنية عليهم والتي ارادتها الذهنية الشعبية •

اما معركته الدينية مع سيف ارعد والتي استحوذت على نصيب الاسد من الرواية الشعبية فقد كانت لأنهاء عبادة الكواكب واتباعها •

ومن صور الشبق الجنسي الاكثر أثارة هي صور الافتراع (فض البكارة) يثيرها الراوي بحماس وانفعال ، ويتجاوز بها الاعراف الاجتماعية السائدة وكانه يريد بذلك ان يعوض كما جسد بها معاناته الجنسية نتيجة حرمانه وكبته في كماشة التقاليد الاجتماعية المفروضة من قبل الذهنية الدينية الغيبية والضغط السلطوي والذي كان يبيح لنفسه اشباع غرائزه وايصالها الى قمة الادمان ، والى الحد الذي امتلك فيها بعض المماليك المئات من الجواري والعشرات من الزوجات ليس ذلك فحسب بل اضافة عليه ممارسة الجنس من قبل المماليك والذي كان يتم في سن مبكرة جدا فلا يصل الفرد فيهم سن العشرين الا ويكون الجنس قد ارهقه ، ونال منه فوق قدراته واحتمالاته •

ولقد اظهرت السيرة الجموح للجنس الى الحد الذي كاد فيه سيف ان ينام مع امه وهو لايعاني اي كبت الا انه يعاني من الشبق الجنسي ، كما يريد الرواة ان يصوروه تنفيساً عن مشاعرهم في شخصيته • فجاءت قضية رغبته الجنسية الجامحة في النوم مع امه ولم يرتدع الا في اللحظة الاخيرة حين تأكد له انها امه • وهكذا اسقطت نفسية الروائيين معاناتها الجنسية على السيرة في شخوص ابطالها الذين ينتمون الى الطبقات العليا وهم بالتحديد من اسر ملكية ، ولم تشاهد اي عملية افتراع واحدة تمت على يد شخص او مواطن عادي ، كل العمليات تمت على ايدي شخصيات رفيعة المستوى ، فقد كان على الراوي والمستمع ان يتلذذ بما كان يتم على ايدي ذوي المكانة الرفيعة اجتماعيا•ويبدو ان الشبق جاء هنا نتيجة الكبت والحرمان على مستوى الراوي والمستمع الشعبي ، وصور على المستوى السلطوي

يعاني من ادمان للجنس يصل حد الابتذال اي ان الجنس يعاني من الانقسام الطبقي في المجتمع فكما امتلكت الطبقات العليا وسائل الانتاج فقد امتلكت كذلك الجنس والحق في التصرف به كيفما ارادت ورغبت ولم تردعها في ذلك اخلاقيات ولا قيم اجتماعية في الوقت الذي فرضت كل انواع القيود عليه وطبقت القيم الاجتماعية على الجماهير الكادحة اي على الطبقات السفلى في المجتمع وعانت هي من بؤس جنسي وعانى الجنس عندهـا من بؤس اجتماعي ووجد تعويضا له في الصور والخيالات اللامحدودة فجاءت متعته الذهنية الجنسية ممزوجة بالمرارة لعدم قدرته على ترجمتها في واقع حياتـه بحكم ما فرض عليه طبقيا وايديولوجيا (القيم الدينية الاجتماعية) .

لقد جاءت السيرة هي والعديد من القصص والروايات الاسطورية لامتاع المستمع والقاريء . فهي الادب الروائي المنتشر والمعروف في العصور الوسطى ، كما اتجه الهدف الثاني صوب الاشباع لحاجة النفس الجماعية الى ابطال يحوون جماع فضائلها واخلاقياتها الاجتماعية ببعدها الطبقـي على مستوى البنى التحتية والفوقية ، وان تغلبت اخلاقيات البنى الفوقية لانتساب كثير من الابطال اليها .

ولقد وجهت سيرة سيف كغيرها من الروايات الاسطورية لمسايرة العقليـة الاسلاميـة التـي بعـدت منذ القـرن السـابع عـن العقلانيـة ، وغـرقت في الغيبيـات الدينيـة الاسـطورية ، ولم تتعـارض قصصهـا الصغيرة المؤطرة داخل سيرة سيف مع ما جاء به القرآن من قصص بل انها خدمته انذاك لان مضمونها توجيهي اسلامي محض ولاتخلو السيرة من النفس الاسرائيلي الديني الاسطوري كما يثبت ذلك الدور الكبير الذي تلعبـه في السيرة شخصيات عاشت في العهـود القديمـة الاسـرائيلية كالملك سليمان بن داود ووزيره آصف بن برخيا . كما ان موضوع الانهر الاربعة النيل والفرات وسيحون وجيجون اسرائيليات متداولة ، وان كان لها اصول مصرية قديمة، الا ان تأثيرها في الفكر الاسلامي من المبكر ثم الوسيط قد جاء من الكتب الاسرائيلية المقدسة .

وسيطرت الروح المصريةالقديمة فقد استعارت الذهنيةالمسطرة للسيرة من ذاكرتها التاريخية بعض اعمال السحر وكشف الغيب وكان لهما دور اساسي في السيرة • ذلك اننا نجد ان ثلث الكتاب مخصص للنشاطات الغريبة للكهنة والسحرة والمردة • فالاسطورة تمنع النيل وفيضانه ، وبقاؤه في مجراه الطبيعي قائم على التمائم والتعويذات • ولا ننس ان النيل منذ القديم كان قد استنفد من الانسان المصري كل تفكيره وحامت حوله اغلب الاساطير المصرية بل وقد مثل مراحل متعددة ومختلفة ربا دينيا عبد وقدمت له القرابين • وقد الغى التوحيد او الوحدانية الالهية عن طريق الأديان الثلاثة الشرقية السماوية العبادات القديمة واعتبرها من بقايا العهود الوثنية فانتهى امرها الى الزوال والاضمحلال وبقي القليل من طقوسها ، تكيف جزء وصبغ الديانات الثلاث وآخر بقي ضمن العادات والتقاليد الشعبية المتوارثة كان منها ما جاء من اعمال السحر وكشف الغيب الوارد في السيرة ، وبذا تمت عملية التحام السحر والدين • واتصلت عن طريقهما مرحلتاهما ببعض اي « مرحلة السحر ومرحلة التدين » • وتلك عملية طبيعية وغير مستغربة ان رأيناها في امتداد زمني تراثي الى الآن في المجتمعات ذات التشكيلات المتعددة وذلك لبقاء التعدد في أساليب الانتاج فيها •

الباب السادس
الظروف التاريخية للسيرة

استعرضنا الآراء التي قيلت حول الفترة الزمنية التي الفت فيها الاسطورة ولا نريد ان ندحض هذا الرأي او ذاك الا اننا نملك موقفا من تلك الاراء ومدى مجانبتها او ملامستها للحقيقة والصواب ، ولقد اقدمنا من اجل ذلك على محاولة اعادة تركيب الظروف والاوضاع جميعها في الفترات التي قدرنا حسب التحليل انها الازمنة التي قيلت او كتبت فيها السيرة . ولتقديراتنا بأن غموض مصرع سيف والجهة المتحملة مسؤولية مصرعه والاسباب والاهداف التي دفعتها الى الاقدام على فعلتها ، هي التي شحذت الفكر الشعبي فبدأ بالتساؤل ثم استمر ينسج حول التساؤل تساؤلات اخرى واجوبة عليها في صيغة روايات بدأ اطارها يتسع ويكبر فخرج من الحدود اليمنية بهجرة اليمنيين بعد مقتل سيف واستحواذ « الابناء » على السلطة في صنعاء الى الجزيرة العربية ، ورمى الجيل الاول مجموعة التساؤلات الى الجيل الذي حمل راية الاسلام ، والمعروف تاريخيا ان اليمنيين كانوا عماد الجيوش الاسلامية وحملوا السيوف وهم مقتنعون انهم ينشرون الدين الحق الذي سبق وان تعرفت عليه اليمن وتسمى أتباعه بالحنفاء . الى جانب الديانات الاخرى من وثنية ونصرانية ويهودية ، وبفعل الزمن تبدأ الحوادث في السيرة تتداخل في بعضها ، فسيف كان مسلما حنيفاً على دين ابراهيم ، واعداؤه هم المشركون بما فيهم المجوس اي أهل

فارس عبدة النار ، اما حملة الصلبان فهم من الاحباش • وتدغم الحوادث فالمهم ان الفرس اعداء لسيف لعبادتهم النار • أما متى كانوا اصدقاء ومتى حدث التحول في موقفهم من سيف والسلطة في اليمن ، اما لماذا هم اعداء فذلك كله غير مهم بالنسبة للذهنية الشعبية •

استمرت هجرة القبائل اليمنية في زحفها على الجزيرة واتجاهها نحو الشمال تحت ظل الجيوش العربية الاسلامية التي قادها خالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص وغيرهم وانضوت تحت الويتهم بدوافع شتى دينية واقتصادية واجتماعية حاملة راية الاسلام من جهة ، ومن جهة اخرى مخلفة وراءها الجفاف الصحراوي وعدم الاستقرار السياسي والاجتماعي ، وقد احتسبها العلماء موجة من موجات الهجرة السامية الا انها حسب تقديراتهم كانت الاخيرة •

نظم جيش عمرو الفاتح مصر تنظيما قبليا فتكونت الكتيبة الواحدة فيه من أفراد قبيلة واحدة او من أفراد مجموعة من القبائل المقاربة ، وقد اتخذت من الفسطاط مقرا عسكريا في البداية ثم تحولت الى مدينة سكن لمجموع القبائل التي عاشت فيها ونخص بالذكر القبائل اليمنية او ذات الاصول اليمنية فمن قبائل كهلان اليمنية جاءت همدان ، وخولان ومذحج ومراد وعك وتجيب وغيرها من القبائل والعشائر والبطون الصغيرة ، اما ذات الاصول اليمنية والتي تنتسب الى كهلان فهي الازد وخزاعة ولخم وجذام وغيرها من الافخاذ الصغيرة •

وجاءت الى مصر في الحملة الاسلامية من القبائل اليمنية ذات الاصول الحميرية قبائل المهرة ، والهميسع وحضرموت والصدف ويافع وذبحان • ومن الاذواء جماعات من الكلامع وجماعات اخرى من آل ذي يزن •• وحملت تلك الحملة قبائل ذات أصل يمني حميري سكنت في أعالي الجزيرة والشام ، كبلى وقضاعة وبني كلب وغيرها من البطون الصغيرة والتي لا يسع المجال هنا لعدها وحصرها •

كيف انتشرت قصة سيف :

كانت عملية الارتباع(*) التي مارستها القبائل العربية في مصر المدخل الحقيقي لانتشار قصة سيف في مصر ، وقبل ان نستطرد في كيفة حدوث ذلك تجدر الاشارة الى عملية الارتباع التي كانت تحدث في الربيع وتقوم بها تلك القبائل المشتركة في مرتبعات واحدة او المستحوذة على اكثر من مرتبع ، وحركة الارتباع هي هجرة داخلية يتم فيها اتصال القبائل العربية المهاجرة بالمصريين ، ومع التطور الزمني لعملية الارتباع حدث التزاوج الثقافي بين المؤثرات الادبية والمادية للقبائل العربية والمؤثرات المادية والادبية الخصبة للشعب المصري ، وكان من نتائج المداخلات تعريب المصريين وتمصر العرب ليخلق الانسان الجديد الواحد بالاشتراك . ثم أصبحت المرابع او المرتبعات منازل ومحط اقامة ثابتاً ومستقراً . والى جانب عملية الارتباع التي احدثت التداخل كانت هناك طريقة أخرى قوت عراه احدثتها عملية الرباط ، وقد كان يتم بين الجند المرابطين وبين الاهلين اثناء فترة مرابطتهم في معسكراتهم قرب المدن ، ونخص بالذكر الاسكندرية ، وهي اكثر المدن المصرية تأثرا بالعملية . فقد رابط فيها بعد الفتح اثنا عشر ألف جندي ارتفع هذا العدد الى اكثر من الضعف اثناء حكم معاوية . اما العملية الثالثة والتي حدث فيها التمازج المصري العربي فهي الضيافة الجماعية لتلك القبائل من قبل قرية او مدينة . وعن طريق العمليات الثلاث الارتباع في دلتا مصر وعملية الرباط في الاسكندرية والمدن الساحلية والضيافة الجماعية في مصر من اقصاها الى ادناها حدث التداخل والتمازج بين المصريين والقبائل العربية المهاجرة . فماذا كان يحدث اثناء ممارسة العمليات الثلاث ؟

اثناء حدوث التفاعل اليومي لعملية الاختلاط التي كانت تتم بالتدريج بين المصريين والقبائل العربية الفاتحة ، والتي بدأت أول ما بدأت بالصورة المقدمة سابقا ، أثيرت من قبل القبائل العربية الفاتحة مجموعة مطارحات

(*) الارتباع يعني التنقل من المناطق الخصبة في الربيع راجع د . عبدالله خورشيد البري ، القبائل العربية في مصر ص ٤٤ ـ ٥٦ القاهرة سنة ١٩٧٧ .

فكرية واجتماعية ، ولنا ان نتصور مطارحات ذاك العصر ، وفي ظروف كظروف القادمين الجدد المختلفي المشرب والمنزع من حيث انتماءاتهم السلالية والعرقية تجمعهم في نفس الوقت عقيدة واحدة وهدف واحد التقوا جميعا عنده •

طرح اولئك القادمون مطارحاتهم في ثلاث اتجاهات ليمهدوا السبيل من اجل تشكيل واعادة تشكيل قناعات الانسان المصري الفكرية والنفسية • كانت اول محاولاتهم هي اجتثاث ما خلفه الروم من ثقافة فكريـة بقيت عالقة في ذهن الانسان المصري الى ما بعد الفتح الاسلامي ، ويستدعي منـا اثارة هذه النقطة الوقوف قليلا امام حريق مكتبة الاسكندرية والـذي دار حوله كثير من الكلام ، وطرحت فيه عدة اراء منها ما يقول ويرى ان الحريق كان قد حصل قبل الفتح الاسلامي بعدة قرون وهذا الرأي لا تعنينا مناقشته أما الرأي الآخر فيرى ان الحريق حدث بعد الفتح الاسلامي • سوف نقف امام هذا الرأي قليلا لعلاقة موضوع الحريق بموضوعنا • ولا نستبعد ان يكون قد حصل فعلا او حصل ما يشابهه من بعثرة للكتب الموجودةفي المكتبة ، نتيجة عدم جدواها للفاتحين • خاصة وان هناك رواية تقول بأن رجلا من أهل الاسكندرية ، ومن قسوس الاقباط واسمه (حنا النحوي) تقرب الى عمرو وقربه الاخير بدوره طلب من الفاتح العربي نقل ملكية المكتبة الى حوزته ، وهناك احتمالان :

اما أن يكون عمرو قد استجاب لطلبه وبذلك انتهى مفعول المكتبة الفكري والثقافي وتأثيرها على عامة الناس ، فقد بقيت في خزائن ذلك الرجل ينهل منها ما يريد ويرغب • وبذلك يكون العرب قد استطاعوا اقتـلاع الوجود المادي للثقافة الفكرية الرومانية ليحلوا انفسهم كبديل للروم ، ولم يكن في يدهم غير « الكتاب » وتاريخ آبائهم واجدادهم المروي • أما ترجيح الاحتمال الاخر الذي يقول بأن العرب قد اقدموا عـلى احـراق مكتبـة الاسكندريـة • فمـن المحتمـل ان يكـون قـد حـدث فعـلا ، وليس في ذلك ما يعيب العرب الى الدرجة التي تتصورها ذهنية انسان هذا العصر ،

ولا نريد هنا ان نبرز مثل ذاك العمل على الرغم من تمسكنا بالرأي الاول ، مع عدم استبعادنا لحصول الاخير ، فقد حدثت في التاريخ الانساني الطويل حوادث احراق واتلاف للمكتبات وللكتب تحت العديد من المسببات والمبررات والدوافع ، منها ما كان بدافع الهمجية والبربرية المحضة(*) او بسبب ظرف ما وتحت مبررات عدة وبأهداف مغايرة • ويحدث هذا النوع من الاتلاف او الاحراق في التاريخ كثيرا ، وما زال يحدث حتى عصرنا الراهن بل ويومنا هذا ، وهو الاحراق بقصد اجتثاث الثقافة السابقة واحلال ثقافة المحتلين او الدعاة الجدد(**) •

وكان ما كان من حادث مكتبة الاسكندرية بحجة اجتثاث الفكر الوثني من جذوره واحلال العقيدة التوحيدية محله ، ولا ننسى ان ذلك كان في اعقاب مرحلة تاريخية انسانية مهمة انتقل فيها الفكر الانساني الى مرحلة الماورائيات والوحدانية الكونية التجريدية ، وكانت ضرورة المرحلة تستدعي اتلاف كل مخلفات الماضي والذي اصبح الانسان نفسه سليل الاجيال السالفة ينظر اليه باستحياء فتجاوب مع حل التخلص من التركة المثقلة خاصة وانه يشعر نحوها بالمهانة والخجل وعليه فأن احتمال حدوث الحريق وارد • فقد يكون حدوثه حاصلا من الدعاة الجدد ، وقد يكون من المتحمسين من أهل البلد للدعوة الجديدة ، وعلى كل فقد وجهت للثقافة الرومانية صفعة مميتة بعد أن اجتثت كتبهم دفعة واحدة ، وحل محلها الدين الجديد بفكره وثقافته المتركزة في تاريخ الاجداد وانسابهم وبطولاتهم وأمجادهم العسكرية والحربية وجاء ذلك مصحوبا بسلوك مضبط ومعاملة حسنة من قبلهم وعلى رأسهم قائدهم عمرو بن العاص والخليفة عمر بن الخطاب والذي كان يلح في رسائله على المعاملة الحسنة

(*) وهو ما حدث عندما فتح الانجليز مدينة مجدلة الحبشية فقد حملوا كتبها ، وعندما اعياهم الحمل وهم يسيرون ، تركوها في الطريق وحملوا ما استطاعوا حمله واوصلوه الى المتحف البريطاني •

(**) حدث ذلك عندما احرق الفرنسيون مكتبة القسطنطينية ليحلوا ثقافتهم محل الثقافة العربية •

لاهل مصر ، وهم يحاولون اعادة تشكيل ذهنية الانسان المصري ونفسيته ، بعد ان تمكنوا من انتزاعها من الماضي • كانوا في اطروحاتهم النظرية يبالغون في تعظيم وتضخيم دور أجدادهم ، وما صنعوه من حضارات وقيم كما راحوا يذكرون بتفردهم في حمل الرسالة الدينية المقدسة والداعية الى التوحيد واحلال مبادىء الاديان الجديدة وهي التي عرفت « بالسماوية » لرفع شأن انفسهم وللتقليل من قيمة ومكانة المحتلين القدامى من الفرس والروم مثبتا ذلك ومرسخا لدى الانسان المصري سلوكهم المنضبط ، والذكرى المريرة العالقة في نفس الانسان المصري من معاملات جميع المحتلين القدامى له في بلده •

كما ارادوا ان يظهروا بطرحهم ذاك والذي هدفوا من ورائه اعادة تركيب ثقافة الشعب المصري وافكاره ولتسهل عملية قيادته هو التذكير بأفضليتهم السلالية والعرقية ، خاصة وانهم ظلوا محتفظين بخصائصهم البدوية والقبلية ، والتي كانت وما زالت حتى يومنا هذا عند كثير من الناس تعني النجدة والمروءة والشجاعة والكرم الى آخر الاوصاف • واقنعوا الانسان المصري بذلك فقبل فكرهم ، وقبل دينهم وتحول كثير من القبط الى الاسلام وهم المعروفون بتمسكهم الشديد بعقيدتهم • كانت القبائل العربية الفاتحة اذن بطرحها للعقيدة ولتاريخها المرتبط باجدادها تروض نفسية الانسان المصري وعلى وجه الخصوص فلاح الريف ليتقبل وجودهم في أرضه ممنونا فرحا مستبشرا بهم خيرا • راضيا بوجودهم لا كغزاة او محتلين وانما اصحاب رسالة اريد بها تحريره من كل انواع الظلم والاستبداد الذي لحق به في العهود السابقة من اولئك الغزاة •

أما الاتجاه الثالث في المطارحات فقد نحى منحا آخر مختلفا كلية عن اتجاه المطارحات التي تقدمت عليه ، ودارت بين القبائل العربية ، فقد تكتلت مجموع القبائل المعروفة بالعدنانية في جهة ، وقابلتها في الجهة الاخرى القبائل ذات النسب القحطاني اليماني ، وهي التي جئنا على ذكر بعضها فيما سبق ، مستعرضة نسبها ومفاخرة به المجموعة القبلية المضادة لها ، ومن هنا نشأت

التكتلات السياسية والقبلية المعروفة في التاريخ بين القيسية والكلبية ، وكان من جملة ما طرحته القبائل اليمنية للتفاخر بعد المبالغة والتضخيم والتفخيم لتاريخ اجدادها ، أحاديث وقصص عن الحميريين والتبابعة وآخر حدث كان ما زال عالقا في ذهنها قضية نضال سيف بن ذي يزن ضد الاحباش وعلاقته بالفرس وموقف القبائل اليمنية قبل حربه ضد الاحباش وأثناء الحرب وكان للجماعات القبلية سليلة آل ذي يزن وذي كلاع دور كبير في الترويج لتلك القصص التاريخية خاصة وانها انحدرت من الاقيال والاذواء ، ولذلك فقد كانوا يشعرون برفعة مكانتهم القبلية ، والتي كان لابد من فرضها اجتماعيا على القبائل الاخرى والمجتمع المصري حتى يمكن بذلك انتزاع بعض المكاسب السياسية التي استحوذت عليها القبائل العدنانية وبالذات القرشية •

بدأت المفاخرة مع بداية حدوث عملية التداخل بين القبائل العربية واهل مصر ، والتي تمت بالطرق التي سبق وان اشرنا اليها ، وبقيت تلك العملية في تفاعل مستمر تجنح اثناء تفاعلاتها الى مزيد من التضخم والتهويل ، يتدخل في ذلك الخيال الذي يسهب في معطياته الادبية الى حد طمس الحدث التاريخي المعين والمحدد واحلال حدث آخر كان في الاصل نفس الحدث ، الا ان ما علق به من تضخيم ابدله بصورة اخرى تبدو وكأنها لا تمت للاول بصلة •

استمرت تلك العملية الترويجية التفاخرية تنتقل من جيل الى جيل تعين المتمسكين بها في صراعاتهم السياسية القبلية خاصة حين أشتد أوارها في عهد الامويين ، وأذكت كثيرا من الحروب في مصر وسورية والجزيرة والعراق • ذلك لانها لم تقف عند حد التفاخر بل تجاوزته الى التكتل السياسي من أجل الاحتفاظ بالسلطة او انتزاعها • أما الجماعات التي بقيت خارج السلطة فقد كانت تشعر باضطهاد سياسي لحقها من السلطة فاستعين بالامجاد كتعويض نفسي جاء نتيجة المعاناة والحرمان من ناحية ، ومن ناحية

اخرى التذكير بأمجادها ودورها في الفتوحات الاسلامية ،ليكون لها نصيب من السلطة ولو جزئيا وتحت كل الظروف • كما ان الضرب على هذا الوتر كان ضروريا للالتفاف حول الجماعات التي استغلته ، ونغمت عليه للعمل على تحقيق اهدافها السياسية ، وأصبحت التكتلات السياسية تسترشد بالقبلية • فقد استعان « معاوية بن ابي سفيان » في حربه ضد « علي بن ابي طالب » ثم في توطيد أركان حكمه بالكلبية اليمانية ، على الرغم من عدم انتمائه اليها من الناحية السلالية • وحين دغدغت الاحلام والمطامع « زفر بن الحارث » في العراق استعان بالقيسيين لطرد امير قنسرين والمنتمي الى كلب ، وبعد ان بايع الامويين وأنصارهم من القبائل اليمنية « مروان الاول » تصدى له القيسيون في محاولة للانقضاض عليه قبل ان يتمكن من الوصول الى دمشق وتثبيت حكمه وسلطته هناك وبقي زفر بن الحارث بمساندة القيسية • كما بقيت القيسية بزعامة زفر تناجز مروان ونظامه في العراق • واستمرت العداوات السياسية القبلية طوال العهد الاموي كما حملها الامويون بعد ذلك حتى الاندلس • وكان من الطبيعي ان يستند كل اتجاه سياسي قبلي الى خلفيته التاريخية سواء كان على المستوى النظري الايديولوجي او الواقعي المادي • وقد بقيت تلك القضية متأججة حية بين الناس يتداولها الجميع في حياتهم اليومية حتى بدأت حركة التأليف في أواخر القرن الثاني وبدايات الثالث من الهجرة • بدت تلك الحركة نشطة وواسعة لمساهمة مجموعة من المفكرين والمؤرخين في تكوينها وبلورتها •

القرن الثالث والتأليف :

حاول المؤلفون قدر الامكان تقصي الحقيقة التاريخية في كثير من الاحاديث والوقائع والقصص التاريخية في جو كان مشبعا الى حد كبير بالخيال للقضايا التي جئنا على ذكرها فيما سبق ، فجاءت جهودهم الكبيرة على الصورة التي رويناها في الجانب التاريخي من شخصية سيف ، ولم يكن في الامكان تقديم افضل مما قدم لاسباب عدة منها منطلقات المؤلف النظرية نفسها • والتي انطبعت بطابع انحداره الاجتماعي والطبقي والقومي

على الرغم من الاطار الحضاري العام الذي كان يجمعهم • والذي وحد بينهم نسبيا بسبب الغلاف العام الشعبي الاسطوري الذي غلف الاحاديث التاريخية وطبعها بطابعه الخيالي واللاواقعي في كثير من الاحيان ، فجاءت اكثرها وكأنها بعيدة عن الواقع تماما مغلفة بالغلاف الاسطوري والخيالي السميك والذي اعجز اولئك المؤرخين ، على الرغم من محاولاتهم تمزيقه وتحطيمه لاظهار الحقيقة المختبئة وراءه ، وكل ما كان في مقدورهم ان يعملوه هو ما قدموه لنا في كتبهم خاصة ما جاء منها في امهات المراجع • هذا اذا لم يغب عن أذهاننا انهم انفسهم قد خضعوا بهذا القدر أو ذاك لتأثيرات الذهنية الاسطورية العربية ، والتي لم يكن من الممكن ان تكون الا بالصورة التي تطالعنا في الكتب ، وهي بطبيعتها امتداد للمرحلة الفكرية الانسانية السابقة لها والمتعايشة معها ، ونقصد بها تلك التي سيطرت على الفكر الانساني العام الومضات المضيئة التي أنارت الطريق امام العقل الانساني المادي • وتشبعت بطبيعة الحال افكارهم بالتيار الفكري الانساني العام فلامس طرحها الخيال على الرغم من الجهود الكبيرة المبذولة في كتاباتهم •

ولقد شارك المؤلفون اليمنيون بنصيب وافر في تقصي الحقائق حول شخصية سيف والظروف التي أحاطت بها وهم يدونون تاريخ اليمن أبان حركة التأليف في القرن الرابع ، وتعب مؤرخ اليمن العملاق ابو الحسن بن يعقوب الهمداني وهو يقوم بمحاولاته لتحديد شخصية سيف وطبيعة دوره الوطني من جهة ومحاولة اجلاء الغموض الذي غلف حركته ، وفتح الباب على مصراعيه للاجتهادات والتخريجات الذاتية لكل مؤلف وكل راو •

لقد أراد الهمداني بجهوده الكبيرة التي بذلها ان يقترب من الحقيقة ويقربها للفكر العربي الاسلامي وللمؤرخين والمؤلفين العرب والمسلمين ، وقد أورد في ذلك عدة تعريفات في نسب آل ذي يزن والتي جئنا عليها سابقا •

ولا شك ان المؤرخ اليمني الكبير الهمداني قد بذل جهودا جبارة في تتبع سلالة سيف لمعرفة شخصيته ، ومن المحتم ان ذلك لم يأت للترفيه والتسلية او بدون هدف لما وراء تلك العملية التاريخية المعرفية ، بل لقد جاءت ضمن حركة تأليف واسعة النطاق جرت في القرن الثالث الهجري واسهم فيها فطاحلة التأليف والترجمة من مؤلفي العروبة والاسلام ، وكان لا بد من مساهمات يمنية تصب في المجرى العام للنشاط الفكري والثقافي العربي الاسلامي ، ورأى الهمداني كمؤرخ يمني ان ينير الطريق بامكاناته المعرفية للموضوع اليزني فجاءت اسهاماته كاسهام يمني يصب في المسيلة الفكرية والثقافية العربية الاسلامية للتعريف من ناحية اخرى للاثراء والاغناء الفكري العربي الاسلامي لهذا الموضوع • وقد أصبحت مجهوداته فيما بعد مرجعا مهما وأساسيا للمؤلفين الاسلاميين الذين عاشوا بعد القرن الثالث • بل لقد اضحت كتاباته اليمنية بأسرها من اهم المراجع العربية للقضايا اليمنية • اما اليمنيون فقد اعتمدوا مجهوداته الثقافية والفكرية مراجع وأسسا ثقافية تاريخية شكلت العمود الفقري لكتابة أغلب التاريخ اليمني • فلم يتناول أي مؤلف او مؤرخ اية قضية تاريخية يمنية الا وعاد الى كتابات واسهامات الهمداني خاصة فيما يتعلق بالموضوع اليزني والذي جاءت اجتهاداته فيه كوقائع تاريخية حقيقية مسلم بصحتها وغير قابلة للنقاش او الاخذ والرد • ولا يمكننا ان نلمس حدود التأثيرات الهمدانية الا اذا عدنا الى كتابات المؤلفين اليمنيين المتلاحقين فيما بعد بل وحتى اليوم • ومما له أهمية مبدئية ودلالة خاصة ان عطاء الهمداني الفكري والثقافي قد جاء في مراحل التأليف الاولى في العالم العربي الاسلامي ، وعلى مقربة الى حد ما من الاحداث المبكرة في تاريخ الحضارة العربية ، كما انه كان المصدر الوحيد للتاريخ اليمني في تلك الحقبة ، ولاجل تلك الاستفرادات مجتمعة استطاعت كتاباته ان تنتزع المكانة الاولى عند المؤلفين اليمنيين والعرب •

ارتاح الفكر العربي بعد ان دون تلك الاخبار في المؤلفات التاريخية ، وحين انتهى دورها السياسي قبعت في الكتب وحصرت في الخاص بدل العام ، وتداولها المتخصصون والقراء بفهم أقرب الى الحقيقة الموضوعية ومجرد الى حد ما من الخيال والاسطورة بدلا من التداول العام البعيد عن الحقيقة والمقترب كثيرا بحكم المبالغة والاطناب في السرد الى الخيال والاسطورة . ويبدو ان بقاءها في المكتب وعدم تداولها من قبل العام . ظلت كما كانت تجري الجانب التداولي منذ القرن الثالث وحتى القرن الثامن عن المؤرخين المعاصرين والمهتمين بالاداب الشعبية قناعات من ان السيرة لم تدون الا في القرن الثامن ، ولم يضيفوا على ذلك شيئا . والحقيقة التي يمكن ان تتصورها ان تتبعنا سير الاحداث وبعض الوقائع التاريخية ، ان الاحاديث عن سير الماضي ونريد هنا ما لنا علاقة به ـ وهي سير الحميريين والتبابعة والاذواء وعلى رأسهم سيف ـ وقد جاءت في القرون الثلاثة الاولى للهجرة كنتيجة طبيعية للقرب من الحدث والواقعة ، ثم انها استخدمت بعد ذلك للاغراض السياسية التي سبق وان نوهنا بها . وحين انتهت ، او بالاصح : تقلصت فعاليتها السياسية نتيجة للاوضاع السياسية المغايرة للاوضاع السابقة المؤججة لها تقلصت تأثيراتها فلم تعد متداولة كما كانت . على الرغم من بقائها كقصص أدبية تسامر الناس حولها ، او كحكايات بطولة تستدعي في المواقف السياسية الحرجة للاستنجاد بها لاشباع الشعور القومي المتألم من واقعه المعاش خاصة في فترات التمزقات السياسية التي اجتاحت العالم العربي الاسلامي في القرن الخامس .

الاحوال السياسية في القرن الخامس :

من المعروف تاريخيا ان موجة الشعوبية بدأت في القرن الثاني ضد الامويين في شكل دعائي وتنظيري . وظلت تتفاقم حتى استطاعت ان تقنع بقضيتها عناصر عربية ممزوجة بتلك الشعوب . فكانت ثورة العباسيين على الامويين ، فعكست وغيرت المفاهيم السائدة رأسا على عقب ، فاذا بفعالية

العنصر العربي السياسية المؤثرة تتدحرج الى الوراء ، وتندفع في خط مواز له أهمية العناصر غير العربية ليصبحا معا في درجة واحدة من حيث الاهمية والتأثير ، ومع الزمن تندفع المؤثرات الجديدة الى الامـام بينمـا تتقهقـر المؤثرات العربية الى الوراء لتمارس احقادها الشعوبية من على السلطة ٠ هذا عدا الحركات والتمردات والثورات التي نشبت خارج الاطار السلطوي المركزي ٠ وما يعنينا هنا هو ممارساتها الحادة على مستوى سلطة المركز ، فقد ترجمت شعورها المكبوت بعد ان وصلت الى السلطة بشـكل حـاد وشرس وراح ضحية الحدة كثير من اولئك الناس ٠ بل وصلت عنجهيتها الى رؤوس السلطة نفسها وامتدت يدها الى الخلفاء ، ويصعب علينا ان نستطرد في سرد قائمة ضحاياها وحيث لم تكتف بخلعهم عن كرسي الخلافة وتعيين بدائل عنهم بل وتفننت في تعذيب الخلفاء انفسهم فابتدأت قائمة ضحاياهم منذ عهد المتوكل ، فكان ابنه الاكبر المنتصر عـلى رأس قائمة الضحايا ٠ ثم سيروا الخلفاء حسب اهوائهم وأمزجتهم جاعلين مما حدث عبرة للآخرين ، فاستسلم الجميع لهم وتمادوا بدورهم اكثر فأكثر خاصة في أواخر القرن الرابع ٠ فطالعتنا الاحداث التاريخية بأن الخليفة المتقي (٩٤٠ - ٩٤٤م) لم يكن بأكثر من العوبة في أيدي القواد الاتراك ٠ فقد اعتقله بسهولة الامير التركي (توزون) وسمل عينيه بمجرد ان عرف بأن الخليفة المتقي يحاول الدخول في مفاوضات مع اخشيد مصر ، وكذلك فعلوا مع ابنه المستكفي ٠

وفي عهده أطل شبح المجاعة على العراق ، وبقيت الاوضاع المعيشية تتدهور باستمرار على عهد من تبعه من الخلفاء ، والذين لم يزيدوا على أن يكونوا مجرد دمى يلعب بها القواد ٠ وقد ازداد الوضع المعيشي للناس سوءا فوق سوء ٠ خاصة بعد ان اثقلوا كاهل الشعوب الاسلامية والعربية بالضرائب والمكوس التي جمعوها لخزائنهم وخزائن أهلهم وذويهم ، وراحوا يسددون العجز في موازناتهم من عرق الشعوب دون حساب ٠ ولم يكن أمام الدولة وحين كانت تعجز عن تسديد نفقات الجند وقوادهم غير ان تقتطع

لهم من اراضي الامبراطورية • واستفحل امر هذه الظاهرة الجديدة فكانت مقدمات لنشوء الدويلات في طول الامبراطورية وعرضها كما فعل « بويه » حين أسس « دولة البويهيين » شرق الامبراطورية وامتد نفوذهم حتى بغداد نفسها واصبح الخلفاء في ظل نفوذهم وهيمنتهم مجرد دمى يلعبون بها كيفما شاءوا •

في ذاك القرن وبعد أن تقسمت الدولة الكبرى الى دويلات تبع بعضها في المشرق وآخر في مصر كالطولونيين والاخشيديين وثالث في المغرب كالفاطميين الذين زحفوا بعد ذلك على مصر ثم رابع في سوريا وقبل ذلك الحمدانيون في القرن الرابع وكذلك الفاطميون في ظل الاوضاع المهترئة والممزقة هاجم الروم شمال سوريا وغَلَبوا وغُلبوا ثم عقدوا حلفا مع بقايا الدولة الحمدانية في حلب ضد الفاطميين لدفع خطرهم ، وكانوا بذلك اول من عقد حلفاً مع اجنبي لا يربطهم به دين ولا رابط قومي ، كما انه كان بقصد دفع خطر تربطهم بأهله صلات قومية ودينية •

في ظل هذه الظروف السياسية المضطربة أزدهرت العلوم والاداب والفنون ووصلت موجة التأليف والترجمة اقصى مداها ، وخرجت القصص والاحداث التاريخية مجددا من الكتب الى حياة الناس العامة لتؤدي دورها السياسي المختلف الان عن دورها السابق • فوجهت بحسب الحاجة وكيفت على حجم الاوضاع والاحداث ، خاصة وان الشعوب وبالذات العربية اضحت بحاجة لمنقذ في ظل الاوضاع الساقطة مقدراتها في القواد والدهاقنة من الشعوب الاخرى بروحهم الشعوبية ، وليس ذلك فحسب بل والامبراطورية التي شيدها الاجداد ممزقة الاوصال والاطراف • والحكام والخلفاء المسلمون والعرب يقاتلون بعضهم بعضا والثورات الداخلية المتعددة المشارب والاهواء ، والتحالفات المشبوهة بين حكامهم وحكام الافرنج تعقد لنصرة الاجنبي • أخرجت هذه الوضعية سيفاً كما اخرجت غيره من ابطال العرب والمسلمين من كتب التاريخ المحصورة في الخاص الى التداول العام مرة اخرى ، لتوجه هذه المرة ضد الشعوبية الفوضوية الداخلية والعشوائية

والغوغائية والطيش عند الحكام العرب الذين مزقوا الامبراطورية فوأدوا الامل ووأدوا الكرامة • انتفض الخيال الشعبي ليبحث عن الكرامة والعقل والاتزان والحكمة فلا يجدها الا في الاسلاف الذين نامت سيرهم في كتب التاريخ • فانبرى سيف يناجز اهتراء الاوضاع السياسية •

على صعيد الادب والثقافة ، فبعد ان تزاوجت الثقافة العربية بالثقافات الاسلامية الاخرى تجاوزت البوذية الخصبة الخيال الحدود الجغرافية للهند ، فدخل الفن القصصي الهندي الى الثقافة الاسلامية فأشبعها بخصوبته الخيالية • فألفت القصص الخيالية وكتبت الكتب وحفظت النوادر ، وكان ممن سبق في هذا المضمار الجاحظ في كتابه « الحيوان » ، كما صيغت حكاية الف ليلة وليلة وسيرة سيف وغيرها من القصص التي كان في الامكان اطناب الخيال فيها باسلوب بلاغي مسجوع • ومع تفاقم المشاكل السياسية كانت الحاجة تزداد الى ذاك النوع من الزاد المعنوي والنفسي ومع تدهور الاوضاع كان الاغراق في الاداب القصصية الخيالية يتفاقم فتنتشر على مستوى العامة ويهبط مستواها الادبي بعمد او بغير عمد حتى تتمكن الجماهير من هضمها واستيعابها وتداولها • وكان ذلك في القرن الخامس من الهجرة وهو القرن الذي شهد تمزق الامبراطورية الاسلامية وانحطاطها وانتهاء هيبتها بين الشعوب الاسلامية •

في اواخر القرن الخامس اضطربت الاحوال كثيرا في العالم العربي والاسلامي ، وعلى وجه الخصوص في مصر • فقد حكمها من العبيديين حكام ضعاف النفوس متخاذلون اشد التخاذل مكنوا العدو الاجنبي من الديار المصرية والعربية فتسلل الافرنج في ضوء المؤامرات الداخلية لاولئك الحكام من صقلية الى مصر وبلاد الشاموفلسطين ، حين وجدوا الظروف مواتية بل على احسن ما تكون • بدأوا يملون شروطهم على الاطراف المتنازعة المتخاصمة ، وحالوا دون وصول السلجوقيين لتحقيق اهدافهم ، ومنعوهم من العبور من خليج القسطنطينية الى الشرق العربي حتى تسلم انطاكية اليهم •

فأذعن الحكام الضعفاء لشروط الاجنبي بعد ان مد له العبيديون ايديهم وتعاونوا بل وتآمروا معه .

بدأ الافرنج يجنون ثمار الخلافات العربية الاسلامية في الشرق ، وقد دنى قطفها في انطاكية اولا فسلمت دون ان تكلفهم كبير عناء ، في وقت دفع فيه المسلمون الاف الضحايا والابرياء ، وقد احسوا بنضج الثمار في الوطن العربي فساروا الى معرة النعمان وحاصروها حتى سقطت فاستباحوها كما حلا لهم فلم يكن هناك مايخيفهم او يردعهم او يمنع ارتكاب الفظائع ، والجرائم . فالواقع العربي ممزق تتجاذبه شتى الاهواء لشتى الامزجة المتربعة على كراسي الحكم والسلطة في كل دويلة على حدة سلكت الطريق امامهم فساروا الى غزة فامتنعت عليهم وشكلت بذاك الامتناع سدا وقف في وجه اطماعهم التوسعية فعجزوا في حمص كما عجزوا في عكا . في ذاك الوقت كانت القدس تعاني من التنافس والتطاحن السلجوقي ـ الفاطمي اما منطقة الرها فقد خرت على قدميها امام الافرنج فأعملوا السيف في رقاب اهلها وقتلوا ، كما تقول الاخبار التاريخية ، سبعين الف مواطن في اسبوع الاستباحة ، ونهبوا ما امكن نهبه وحمله من خيرات البلد . كل ذلك وبغداد عاجزة لظروفها الذاتية الشديدة التعقيد ان تنجد أية امارة اسلامية، وظلت المدن التابعة لها تتساقط الواحدة تلو الاخرى حتى سقطت القدس . تألمت مصر لحادثة الرها كثيرا فأرسلت الى الافرنج احتجاجاتها الشديدة ، وبدأت تعد العدة لمجابهتهم . فجمع الافضل الجيوش الجرارة وسار الى عسقلان يأمل في هزيمة الافرنج وحين عرفوا بضخامة الجيوش المصرية لجأوا الى المناورة السياسية والخديعة العسكرية وأوقعوا الافضل بعسقلان بعد ان اطمئن الى خروجهم من الرها وأهلكوا كثيرا من جنده . فعاد الى مصر يجر اذيال الهزيمة ، وارغم على التصالح معهم مقابل عشرين الف دينار .

زرع الافرنج الخراب والدمار في كل ركن من الشام وفلسطين ، وأكملوا مشوار الخراب على يد حكام ضعفاء من المنطقة « كمنصور بن صليحة » عامل

طرابلس ، ومن بعده « أبو علي ابن عمار » والذي دعاهم لاحتلال « جبلة » فقدمت لهم لقمة سائغة وأطمعهم ذلك كثيرا ، فسار ملكهم من بيت المقدس ٤٩٤هـ الى سروج وقيسارية فاستباحهما كما استبيحت المـدن العربية التي ايديهم وصلت اليها ، وعاث « صبيخيل » بطرطوس ، وحين حاول « جناح الدولة » التصدي له عاجله احد المأجورين بطعنة كانت بمثابة ناقوس خطر يدق فوق السماء العربية فقد بدات الخيانة تنفشى بين الصفوف وأعين الاجنبي من الداخل وعليه لابد من اليقظة والحذر •

كانت مصر اول من تنبه للخطر فأعدت الجيوش في محاولة لكسـر شوكة الافرنج ، ومحاصرة خطرهم ، قبل ان تنهار قيم أهل المنطقة، فتصبح الخيانة ومساعدة الدخيل على الاهل والوطن قيمة فضلى ، تستوجب التنصيب والنصب • أمر الافضل على الجيوش المصرية « سعد الدولة القواسي » مولى ابيه ثم ابنـــه « شـــرف المعالي » وقاتلهم حتى هزمهم قرب الرملة ، شجع النصر الافضل فبعث باسطوله لحصار يافا من البحر • الا ان (تاج العجم) رفض التعاون مع قائد الاسـطول « القاضـي بن دقاوس » فكان السبب في فشل الخطة العربية لطرد الافرنج •

كأن الافرنج لم يرضوا بتسليم اهل جبيل لهم حين فتحوها وملكوها بالامان ، فغدروا باهلها جزاء لهم على ما فعلوا بوطنهم وأنفسهم ، وأمعنوا فيها تخريبا وتدميرا وقتلا ، كما فعلوا بعكا التـي امتنعت عليهم • تطاول الافرنج اكثر فاكثر وهم يشاهدون حكام المدن يتساقطون امامهم ويسلمونهم مقاليد الامور ، ومنذ متى كان للخائن والجبان قيمة او وزن • وكلمااستفحلت أمور الخيانة والتآمر ازداد طمع الافرنج ، وقد وجدوا الفرصة مناسبة حين افتتن قواد السلجوقيين فاستمالوا « بكياش بن قتش » ضد عدوهم الاكبر «طغركين الاتابك»• واصبح الافرنج ملجأ كل العابثين فقد هرب اليهم «خلف بن ملاعب » والذي استحثهم لملك أفامية فحاصروهـــا حتى اجهد الجوع اهلها • فاستسلمت ٤٩٩هـ ، وحين ادرك « طغركين » خطر بقاء الافرنج في

الديار العربية خاصة وانهم كانوا يؤوون المتخاذلين مع الزعماء والقواد ، قرر مقاتلتهم في كل ناحية يظفر بهم فسار الى « طبرية » ٥٠٢هـ وهزمهم هناك وسقطت حصون كثيرة للافرنج بيده . ما لبث الموقف ان أنقلب مرة اخرى لصالح الافرنج . فقد وصلهم مدد من اوروبا فاستولوا على طرابلس وبيروت وصيدا وجبيل وبانياس . وصالحهم حكام حلب وصور وشيزر وحماة على ضرائب محددة . بقيت مصر تدافع عن عسقلان في وقت كان فيه حكام بغداد السلجوقيين في موقف المتفرج من الاحداث ، وكأن الامر لا يعنيهم في شيء ، حتى قصدهم جمع من المستغيثين قدموا من حلب ، وهناك تحرك الخليفة فسير جمهرة من الامراء على رأسهم الامين « مودود » صاحب الموصل و « مسعود بن السلطان » .

بقي النصر والهزيمة كرتين طائرتين تتأرجحان بين الافرنج والمسلمين ، وليس من شك ان الحديث والسرد عن الحملات الصليبية طويل يحتاج لدراسات موسوعية فيه ، ولسنا بصدد ذلك كله . لكننا اردنا ان نبين حقيقة الاوضاع السياسية التي استدعت من وجهة الشعور الشعبي ان يشحذ همته فيجود بالسير الشعبية التي غلب عليها الطابع البطولي ووشمها بطابعه ووسامه . بقيت الجماهير العربية الاسلامية تبحث لها عن بطل في الذاكرة بعد ان اصيبت بخيبة امل في الواقع ، فلم ينبر قائد عسكري يحرز العديد من الانتصارات الحربية حتى يهزم من جديد او يقتل بفتنة او خيانة داخلية يذهب فيها ضحية يد اثمة تمتد للاغتيال او الطعن من الخلف . كما حدث « لمودود » . وقد استخلف « السلطان محمد » بدلا عنه « اقسنقر البرسقي » واندفع اقسنقر يطارد طغركين يقتفي خطاه من بلد الى اخر فاسيا امر العدو الحقيقي . وجد العدو الفرصة مناسبة لافساد الضمائر والايقاع بالقواد المسلمين فيما بينهم وراح يسترد من المسلمين ما استولوا عليه منه فاستسلمت الرميلة لهم ٥٢٠هـ .

تغير ميزان القوى بعد ٥٢٠ لصالح القوى العربية الاسلامية فاستولى صاحب انطاكية « اسمند » على حصن القدموس وهزم صاحب طرابلس

وتمكن « شمس الملوك اسماعيل » حفيد طغركين من استرجاع بانياس وشقيف بيروت واكتسح طبرية والناصرة وعكا فأفزع ذلك الافرنج فسارعوا بعقد هدنة معه ، استردت سوريا انفاسها بعد سلسلة الحروب والمعارك المتواصلة ، اما الافرنج فقد اداروا وجوههم هذه المرة شطر افريقية ، واستولوا على جربة وهي مدينة تقع بين طرابلس الغرب وقابس ، ثم وضعوا ايديهم على طرابلس نفسها ٥٤٧هـ • وفي طرابلس لعبت القضايا والامور الشخصية دورا كبيرا في السياسة العامة للحكام وحركت كثيراً من الاحداث ، فكان من نتيجتها فتنة داخلية وقعت ضحيتها المهدية ودخلها الافرنج دون عناء •

الاوضاع في مصر :

عاشت مصر أيام حكم المستنصر اوضاعا متردية فقد ضربها القحط والوباء بقسوة وهي المعطاء دوما ، فغلت المواد الاستهلاكية غلاءا كبيرا لندرتها بعد ان انقطع ماء النيل ، واشتد الجوع بالناس حتى أكلوا موتاهم ، وكما تذكر كتب التاريخ ، فقد كان يموت كل يوم عشرة الاف انسان • وتوسعت رقعة المصائب فزحفت على الشام ثم انتقلت الى بغداد فجاع اهل دجلة كما جاع اهل الفرات وبردى والنيل • ولم يقف البلاء عند حد الجوع بل حمل معه كافة الاوبئة ، ففتك الطاعون ببخارى وسمرقند وبلخ ، ثم انتقل في النصف الثاني من القرن الخامس الى الحجاز واليمن ، وعمل هناك عمله ، وعاد الى مصر ٤٥٦هـ ليعشعش ويفرخ فيقتل كل يوم ألف انسان ، وتعاون القحط والجوع والنظام القائم في مصر على الشعب المصري • لم يكتف المستنصر بالبلاء الذي أصاب مصر بل راح يستزيدها فدخل في معارك طاحنة مع « المعز بن باديس » في المغرب بعد ان ابطل الدعوة لهم وتحول بولائه للقائم بأمر الله العباسي • وتطاول الجميع على حكمه • استمر الغلاء والقحط يفتكان بمصر منذ عام اربعمائة وثمان واربعين حتى العقد السابع من ذاك القرن وازداد الغلاء حدة وخرج عن الحد فبيع اردب القمح بثمانين دينارا • انعدم وجوده سنة ٤٦١هـ من الاسواق نهائيا ، وحين وصلت الحال

الى تلك الصورة المأساوية تسرد عليه ولاته في الجزيرة وأبطل صاحبا مكة والمدينة الخطبة باسمه •

يتتابع الدمار والخراب على أرض الخلافة الفاطمية من كل جانب ، وكان البلاء يجر ورائه الف بلاء ودمار ، فقد اصيبت الرملة بزلزلة هائلة هلك من أهلها خمسة وعشرون ألف مواطن • كل ذلك والمستنصر غارق في اللهو والشرب والطرب ، كأن شيئا لا يعنيه فلم يكن يهمه ما آلت اليه البلد من بلاء عظيم • فلم يقف عبثه عند حدود بل توجه بأن أمات العلم وقتل العلماء ، وكانت أشهر حادثة وقعت لهم مقتل العالم « ابن ابراهيم العلوي » فقد مزقه وزير الدولة « بدر الجمالي » وسلخ جلده مع رغبة خليفته واقتداءا بـه في معاملة العلماء من أهل ذاك العصر •

لقد دفع سلوك المستنصر بالولاة الفاطميين دفعا للتمرد عليه وليت القضية وقفت عند ذاك الحد ، بل لقد استنجد بعضهم بالافرنج وتجاوزوا كولاة مهترئين حدود الاستنجاد فسلموهم مدنهم ، كما فعل والي صقلية حين سلمها لهم ٤٦٣ هـ •

وامعانا في تحقير الشعب المصري وتمزيقه ، فقد فتن بين أهل الذمة والمسلمين فاقتتلوا وهم الاخوة وأوجد الفرقة واصطنعها حين « الزمهم بلبس الغيار والزنانير وتعليق الدراهم الرصاص في اعناقهم مكتوبا على الدراهم « ذمى » وتجعل هذه الدراهم ايضا في اعناق نسائهم في الحمامات ليعرفن بها ، وان يلبسن الخفاف فردا أســـود وفردا احمر ، وجلجـــلا في ارجلهن »(*) تلك كانت حال مصر في عهد المستنصر •

وتتابعت المهازل على عرش الخلافة في مصر فجاء عام ٤٨٨هـ « المستعلي » • فكان مجرد دمية في يد « الافضل » فقد أتى به الى الخلافة وأجلسه على عرشها ، بعد ان طارد اخاه الاكبر « نزار » • تنقلب المقاييس

(*) النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١١٣ •

والقيم السياسية فيحكم الوزير الخليفة ويسيره كما يريد ويشاء • فخارت قواها وأصابها الضعف فتمرد عليها الداخل وطمع فيها الخارج ، فسقطت مدنها بيد الاتراك والافرنج الذين أخذوا انطاكية ٤٩٠هـ ، ثم الحقوا المعرة بها بعد سنتين من الزمن ، كما وقعت القدس في أيديهم في نفس السنة ، واستشهد من أهلها ما لا عد له ولا حصر • أما الداخل فقد افلت من بين ايديهم ، وتمرد نزار على السلطة فهرب الخليفة ووزيره الى الاسكندرية ، وأخذ نزار البيعة لنفسه وبايعه « افتكين » عن أهل الثغر كما قدم « ابن عمار » ولاء الطاعة اليه • الا ان يد الخليفة المستقوي في الداخل فتكت بهم دون رحمة وبقوة ظاهرة ، لم يستطع استعمالها ضد العدو الخارجي راح يتغلغل في أرض الخلافة دون مقاومة تذكر ، بل ودون تصد لزحفه المتواصل المستمر فأخذ « نيقية » وافتتح الحصون الواحد تلو الآخر مدمرا مخربا كل ما يجد في طريقه من صور الحضارة العربية الاسلامية قاتلا عشرات الالاف من العرب والمسلمين كل ذلك والخلفاء لا يحركون ساكنا والحكام والولاة لا يقوون على شيء •

مثل فتح القدس قمة الكارثة فلم يستطع الحكام الحركة وهم يرون أقدس الاماكن الاسلامية تسقط فريسة ويذبح أهلها ، وحركت المأساة الجماهير العربية الاسلامية خاصة المصرية منها فضغطت على حكامها ، فحرك « الافضل شاهنشاه » الجيش المصري خجلا • الا ان تلك المحاولة المرتجلة العشوائية الخجول باءت بالفشل ، كما هو متوقع في الاحداث غير المخطط لها والظروف غير المدروسة ، وتصدى الافرنج للجيش المصري وقتلوا منه الكثير طعنا واحراقا ، وتابعوا الجيش المهزوم حتى عسقلان وأعملوا في أهلها السيف ، وتذكر كتب التاريخ وقائع وحوادث تقشعر لها الابدان فلم ينج من أيديهم صغير ولا كبير ولا عجوز ولا مسن ، ولم يبق مسجد أو محراب الا واحرق او دمر ، وتحمل الجندي ابن الفلاح المصري النتيجة المأساوية للسياسة العشوائية والتكتيكات العسكرية الغوغائية ، ودفع الشعب المصري الثمن غاليا مالا وولدا • اعاد الافضل النظر في حساباته العسكرية بعد ان وجد

رجالا شجعان انبروا يقدمون انفسهم الى الجيش المصري وعملوا على خلق جيش آخر كتعويض عما حل بالجيش المصري وبنوا قوة مصر الجديدة ووضعوا انفسهم في مقدمة الصفوف . على رأسهم « سعد الدولة القواسي » .

سار سعد الدولة في أواخر القرن الخامس من مصر يطلب بروحه ومن معه ، رد اعتبار مصر وشرفها التاريخي وكرامة شعبها ، فالتقى الجيش المصري بجيوش الافرنج ، وتلقى سعد الضربة الاولى بصور فخر قتيلا لكن رجال مصر وابطالها وقفوا أمام العدو وقفة رجل واحد وثبتوا امامه واستماتوا في قتالهم فهزموا جيوش الافرنج ودحروهم الى قيسارية . كانت تلك الاحداث في أواخر عهد المستعلي والذي خلف في الخلافة ابنه «الآمر بأحكام الله منصور» ولم تستطع مصر النهوض مرة اخرى على قدميها في أواخر عهد الخلافة الفاطمية فقد هزم النظام الفاطمي ، كما شاخت السلطة ورجالها ، فقد جاء « الآمر » من بيئة كانت فسدت ونخر السوس في اخلاق ابنائها ، فكان سلوكه امتدادا لسلوكهم وسقط في الفسق واللهو ، كما سقطوا وزاد عليهم ظلما وجبروتا وتعسفا ، وشغلته قضاياه الذاتية وملذاته الشخصية عن العدو المتربص بمصر في الساحل الشرقي للبحر الابيض فقد كان يتناهى في العظمة والفخفخة ويتقاعد عن الدفاع عن الوطن .

خرج الافرنج للقتال ، كما تذكر الاحداث التاريخية من الرها ٤٩٧هـ ، وهم في أوج جبروتهم وتعنتهم ، وانقسموا قسمين قسماً قصد حران والقسم الاخر توجه الى الرقة فلم يتصد قاضي طرابلس « ابن عمار » لهم وكيف يفعل ذلك ؟ وهو يدرك ان مصر قد هدها الوهن ، بعد ان حطم حكامها الضعفاء قوتها ومزقوا جيشها ، وألقوا بما تحت أيديهم من سلطان ومال وصالحهم ابن عمار بشروط صلح مهينة على أن يكون لهم ظاهر البلد ، ويكون له داخلها ، أي ان يصبح تابعا لهم يسير امور الناس الداخلية ، بينما يتحكمون في سياسة البلد ، ويخضعون سواحلها لمخططاتهم الاستراتيجية العسكرية ، وعلى الرغم من ضعف ذاك الصلح وكونه يخدم بالدرجة الاولى مصالحهم أي

الافرنج ، الا انهم رفضوا ذلك وتمادوا بحكم قوتهم وتطور الاحداث الى انتزاع البلد نهائيا ٥٠٢هـ • ان قانون تطور الاحداث يطمع المنتصر بالمزيد ، ويقدم المهزوم مزيدا من التنازلات ارضاءا للمنتصر ، فكلما قدم الاول قربانا طلب الاخير الاستزادة من القرابين ، فقد قتلوا رجالها وسبوا نساءَها ونهبوا أموالها وخرج ابن عمار سالما بعد ان سلم البلاد • أقدم ابن عمار على فعلته وهو يعلم ان لا أحد سيحاسبه • فمصر في غاية الوهن والضعف وخلفاؤها مشغولون بأمورهم الشخصية الرخيصة • وحين حاولوا كما جرت عادتهم ارسال اسطولهم كان الوقت متأخرا فقد دخل الافرنج المدينة • ثم انتزعوا عرقة وبانياس وتبنين ، وحين رأى حكام الشام المحليين تقاعس حكام مصر الفاطميين بدأوا يسلمون مدنهم للافرنج الواحدة بعد الاخرى كما فعل ابن عمار فقد سلم صاحب دمشق الامير طغتكية لهم •

وقاوم أهل صور طويلا وصمدوا فترة من الزمن امتدت أكثر من عشر سنوات ، لم تنجدهم فيها مصر رغم حاجتهم الضرورية والقصوى للنجدة العسكرية والمؤونة الغذائية ، حتى كادوا ان يهلكوا جوعا • فتفرقوا بين غزة ودمشق ، ودخل الافرنج البلدة خالية من أهلها خاوية على عروشها • وبالغ حكام مصر المنهارون في خذلان الشام فتواطئوا مع العدو الخارجي وحملوا والي دمشق « سيف الدولة مسعود » الى مصر تسهيلا لمهمة الافرنج ، وضربوا بذلك الاماني القومية المتعلقة بهم في الصميم •

أتاح أهمال الفاطميين لامور الدولة على عهد خلافة الامر للافرنج فرصة ذهبية ظلوا طويلا يحلمون بها ، فلم يكتفوا بما أخذوا ، بل واصلوا زحفهم على بقية المناطق الساحلية املين الوصول الى مصر نفسها وتركيعها • وبدأ « بغدوين » حسب الخطة الموضوعة الزحف من القدس الى عكا ثم حاصر صيدا من البر والبحر وقد صمدت مع واليها « زهر الدولة والجيوش » رغمخذلان مصر ، وسقطت في تلك المعارك اغلب المدن الساحلية وتابع الملك « بردويل » الخطة فشارف على السواحل المصرية نفسها فدخل

« الفرما » وهي مدينة مصرية تقع في الجهة الشرقية من بحيرة المنزلة واحرقها، وقد صالح الافضل بردويل لعجزه عن منازلته قبل مقتله •

جاء الى الخلافة الفاطمية ثامن خلفائها العبيديين الخليفة الحافظ لدين الله ٥٢٥هـ وبلاد الخلافة ممزقة محطمة ، والافرنج يحتلون اجزاء كبيرة منها ، وشعوب الخلافة في قمة تذمرها واستيائها ، وكان لابد من لملمة الاوضاع قبل الانهيار الكامل والمؤكد الذي كان ينتظر الخلافة الفاطمية • فعمل الحافظ قدر جهده على تغيير الاحوال السياسية المنهارة واستطاع ان يحشد ويعبيء الطاقات المصرية والعربية للوقوف في وجه الزحف الاجنبي الشرس ، فانقلبت الموازين وتغيرت الاحوال فاذا بالافرنج في موقع الدفاع بعد ان استردت مصر زمام المبادئة والهجوم واعتمدت استراتيجية متحركة هجومية فأسرعت بحملة كبيرة لنجدة والي عسقلان تمكن بها من ايقاف حركة الافرنج وتغلغلهم ، وخلق ذلك الامل في النفوس ، وأعادة الثقة بالقدرات الذاتية للخلفاء الفاطميين فتحرك ٥٢٧هـ « شمس الملوك بن تاج الملوك بوري ابن الاتابك طغتكية » وهاجم الافرنج في بانياس ودحرهم منها مسترجعا اياها للحظيرة الفاطمية في مصر • وتبعه ٥٣٩هـ « زنكي بن امن سنقر » فخلص الرها من أيديهم بعـــد حروب ومعارك طاحنة ، ثم افتتح « نور الدين محمود »صاحب الشام ٥٤٢هـ حصن ارتاح وغيره من الحصون الشامية واستعادها من الافرنج بقوة السلاح ، وكان هذا أول أمر الفتوحات الزنكية الايوبية •

هزلت الخلافة الفاطمية بعد موت الحافظ كثيرا فنصب الصبيان والاطفال وتولى عرشها بعد « الحافظ » « الظافر » ابن السابعة عشر عاما ثم « الفائز » طفل الحضانة ومن بعده « العاضد » وترامى بهم مستوزروهم ذات اليمن وذات الشمال ، ثم تخلصوا منهم بصور مفجعة ، فمات الظافر مقتولا ، ومات الفائز تحت نوبات الصرع التي اصيب بها يوم توليه الخلافة طفلا • اما ثالثهم وكان الاخر فيهم فقد اختلفت الروايات في موته الا انه

مات متأثرا بهمومه وهو بعد لم يزل شابا لا يتجاوز من العمر الثلاثة والعشرين ، وقد استوزر له كما تذكر الكتب التاريخية « شاور » بعد ان قتل المستولي على السلطة فيها « رزيك » ابن الملك « الصالح » طلائع بن رزيك ، وكون رزيك وهو في السلطة بطانة على رأسها امير يقال له الضرغام فتنازع السلطة في ظل حكم الخليفة الشاب كل من « شاور » و « الضرغام » واستنجد شاور « بنور الدين محمود بن زنكي بن اق سنقر » فأرسل له « أسدالدين شيركوه بن شادي » عم « صلاحالدين » .

سار أسدالدين لنصرة شاور ضد الضرغام ، كما توجه نورالدين الى دمشق ليشغل الافرنج عن اسدالدين في خطة عسكرية محكمة اريد بها تغيير مجرى الامور السياسية المتردية ، وهزم الضرغام وكان ذلك أول الغيث لمصر وللامة العربية ، على الرغم من خيانة شاور فيما بعد لمنقذه اسد الدين ، وتعامله مع الافرنج ، وليس ذلك ، فحسب بل وقد بذل لهم المال لاستعمار مصر مستهينا بكرامة الشعب المصري ، ضاربا في سبيل اطماعه واحلامه الشخصية في السلطة الاخوة العربية الاسلامية طاعنا الظهر الذي امتد اليه لينقذه ، وسارت جيوشه بجانب جيوش الاستعمار الافرنجي لقتال أسدالدين فحاصروه في بلبيس ثلاثة أيام الا انهم لم يظفروا بشيء ، بل وقد فشلت المؤامرة الانهزامية ، حين شدد نورالدين ضرباته في الجهة الشرقية ، فهزم أصحابهم على ابواب مدينة خارد وفتحها ، وبعد معارك ضارية ومتفجرة في كل مكان ضد الحلف الثنائي الافرنجي والشاوري دخل أسد الدين الديار المصرية منتصرا واضعا لمهزلة السلطة حدا بقتله شاور ، وأرغم الافرنج على التقهقر الى الوراء ، فتركوا الديار المصرية وعادوا الى الشام .

كانت الاحداث في تلك الفترة داخل مصر في غاية الفوضى والاضطراب والخليفة العاضد لايملك من امرة شيئا ، فالافرنج يعملون السيف في الشعب المصري ويأمر شاور باحراق مصر منفسا بذلك عن أحقاده . وقد بقيت النار تلتهم ما أبقت عليه أيدي النهابين مدة شهرين وحينها استصرخ العاضد

نور الدين • فوجه نور الدين اسد الدين الى مصر لنجدة اهلها من الفناء المطبق عليها بكماشتي شاور والافرنج ، وتحرك اسد الدين مع مجموعة قواد شجعان على رأس ستة الاف رجل الى مصر وما ان دنوا منها وقاربوها حتى انسحب الافرنج على غير عادتهم في كل حروبهم السابقة ، فقد ادركوا ان ميزان القوى قد تغير ، وانهم امام اناس من صنف اخر غير اولئك الذين تعودوا عليهم بل تعودوا ان يحكموهم ويسيروهم •

ارتحل الافرنج راجعين الى بلادهم ودخل اسد الدين وقواده مصر ، ولم يبق امامهم من عقبات غير التخلص من شاور بعد ان حاول كسر الاتفاق المعقود معهم وراح يخطط لاغتيال اسد الدين • الا ان مخططاته انكشفت قبل تنفيذها فترصده « صلاح الدين » والقائد « عزالدين خرديك » وقتلاه قبل ان يقوم بفعلته • وبذلك ضربوا رأس الفتنة ، كما سبق وان كسروا ظهرها بقتلهم الضرغام فسلم العاضد امور دولته الى اسد الدين ليؤسس بها ما حلمت العرب بتأسيسه طوال قرنين من الزمن • موكلا امورها بدوره الى اعظم شخصية وطنية قومية عقدت عليها الامال القومية فيما بعد •

جن جنون الافرنج بعد ان ملك عدوهم اسد الدين مصر • وخافوا من استرجاع ارض الشام منهم عنوة ، بعد ان ادركوا خطورة الاوضاع السياسية الجديدة ، ورأوا ان خير وسيلة للحفاظ على الممتلكات هو ضرب مصر نفسها ، فاعدوا العدة وطلبوا مساعدات صقلية وفرنسا ، وبعثوا قساوستهم ورهبانهم الى كل ناحية وصوب في حملة سياسية مكثفة لاستنفارهم من جهة وامدادهم بالمساعدات من جهة اخرى ، واطمعوا المتعاونين معهم بدمياط ليقفزوا منها على مصر • وحين اكملوا استعدادهم ساروا الى دمياط وحاصروها الا ان خطط الايوبيين العسكرية المحكمة ، والتي كانت تعتمد على الضرب في نفس الوقت في جبهتين قد افشلت مخططهم فضرب صلاح الدين من الجبهة المصرية مستعينا بنجدات نورالدين ومهاجمته الافرنج في الجبهة السورية وقاتلاهم حتى اكتسحا مناطقهم •

العلاقات بين مصر واليمن :

قبل ان نلقي الضوء على العلاقة المصرية اليمنية في تلك الفترة التي شهدت متانتها وتجذرها ورسوخها نرى ضرورة تعرية الواقع السياسي في اليمن على قدر ما سمحت به المعلومات التاريخية المتوفرة في الكتب القليلة والشحيحة العطاء والتي تحكي تعايش دويلات عدة في نفس الفترة التاريخية التي تهمنا ونعلق عليها اهتماماتنا ، لاجتهاداتنا التي نبذلها ، في سبيل الوصول الى معرفة الواقع الموضـــوعي الذي افرز كثيراً من السير الشعبية المعروفة وفي مقدمتها السيرة التي نحن بصددها • وتأتي مجهوداتنا لمعرفة الواقع السياسي في اليمن حتى نمسك بالخيوط جميعها لتساعدنا على الاستنتاج فالعملية معقدة وصعبة اولا تجميع المعلومات والحقائق الممكنة ثم التحليل واعادة التركيب لها لتظهر النتيجة المطلوبة والغامضة في الاساس • ولذلك فان اعطاء صورة ولو موجزة ومختصرة ، وربما تكون مقتضبة عن واقع الحال في اليمن سيسهل لنا ولو جزئيا الوصـول الى النتيجـة المطلوب اثباتها وتثبيتها •

انفصل اليمن عن دولة الخلافة في بغداد في القرن الثالث وانهارت المركزية فيه فتكونت عدة محاور اتخذت العديد من المراكز راح بعضها يحكم ويدير السلطة باسم المركز الكبير في بغداد ، اما البعض الاخر فقد جعل من نفسه محور حركته فلا هو باليمني القـادر على الحـكم الشـامل للوطن باسره ، ولا هو ضمن اطار الوطن العربي والامبراطورية الاسلامية المتسعة ، وكاد يطبق على نفسه الخناق حتى بدت ملامحه بطابع الاقطاعية المحلية المنغلقة ، بل بسمات اكثر انغلاقا مثلث القبلية والعشائرية في اضيق صورها وسماتها • فحكم بنو نجاح بعد ان انتزعوا السلطة من مواليهم بني زياد في ٤٠٣هـ ، واتخذوا من زبيد عاصمة لهم ، وقد اعلن مؤسسها «نجاح» ولاءه للدولة العباسية، وكان الولاء بالنسبة للمن واليمنيين خطبة الجمعة في المساجد ، فحتى ما يفرض تسليمه من خراج او جزية كان بين مد وجزر يحكم طبيعة البعد المكاني بين اليمن ودولة الخلافة ثم المزاج الفردي للحاكم او

الوالي ، واخيرا بحسب ظروف خزانة الدولة وميزانيتها غير ثابتة او المستقرة ، والمتحركة بطريقة تنازلية تصاعدية على حسب الدخل القومي المتذبذب لليمن ، وتذكر الوقائع التاريخيةحوادث حربية عديدة وقعتبين بني نجاح والصليحيين وبين بني المهدي وبني نجاح • كما تذكر الاخبار الضغوط المتزايدة التي مارسها آل الصليحي ضد بني نجاح واضطر فيها سعيد الاحول والى زبيد الى الهرب متجها صوب الحبشة فالهند عائدا من جديد الى عاصمة دولتهم زبيد •

في تلك الاثناء ، نجد انفسنا مضطرين بما فرضه علينا البحث ان نتجاوز التسلسل الزمني للاحداث ، برزت دولة عشائرية قبلية اخرى هي دولة بني زريع في عدن وكان مؤسساها وهما « العباس » والمسعود بني « المكرم الصليحي » بالتبني قد خرجا عن طاعته بعد ان ولاهما اجزاء ومدنا من البر والبحر ، واهم تلكالمدن مدينةعدن وضما القسمين ليؤسسا دولة بني زريع وجعلا عدن عاصمة تلك الدويلة ، وقد تداول الحكم فيها احد عشر سلطانا واميرا ، في فترة لاتتجاوز الثمانية عقود ممتدة من ٤٧٠ هـ الى ٥٦٩ هـ •

اما دويلة بني المهدي القصيرة العمر والاجل فقد اسسها علي بن المهدي على انقاض الدولة النجاحية وقد حاول سلطانها الثاني توسيع رقعتها الجغرافية فبالتوسع تكبر الدولة بشكل اخطبوطي يمكنها من البقاء والاستمرار ، خاصة وان جذورها كانت واهية التأسيس ، وان الميل العام للتوسع والذي ينتقل من مدينة الى مدينة سيزداد ليشتد عود الدولة • الا ان عملية الضم والتوسع لم تقو الدولة الضعيفة بل عجلت في فنائها فلم تتمكن من الصمود او البقاء اكثر من عقد ونصف من الزمن • خارت وتحللت جذورها الضعيفة امام اول ضغط حقيقي اصابها قدم من مصر لينهي واقع التجزئة والكيانات الصغيرة المزقة المهترئة • فقد احس القادم اهمية اليمن الجغرافية والبشرية في تلك الفترة ففي اليمن طاقات بشرية

اكتشفها القادمون من خلال علاقات اليمن السابقة بالدولة السابقة العهد عليهم في مصر فقد ارتبطت اليمن بمصر في عهد الخلافة الفاطمية والحكم الصليحي والذي جاء متوجا لتلك العلاقة العضوية بين الدعوة في اليمن ودعوة الفاطميين في مصر بل ، ولقد مثلت اليمن حلقة من الحلقات المهمة الرئيسية للدعوة الام فقد ارسل المستنصر العبيدي علي بن محمد الصليحي الى اليمن للتبشير بالافكار الفاطمية لربط اليمن عضويا بمصر وواجه الفكر السياسي الجديد مقاومة كبيرة وشديدة من الكيانات الصغيرة القائمة انذاك التي اتينا على ذكرها سابقا ، مضيفين اليها الهاشمية المسيطرة على صنعاء وذمار خاصة حين لمسوا في تلك الدعوة اخطارا سياسية كبيرة فهي ليست فقط دعوة عقائدية من دون حركة ديناميكية سياسية بل هي اولا تلك الحركة السياسية المتحركة بنشاط وفعالية الفكر العقائدي . الا ان داعيه العبيدي استخدم جميع تكتيكات ذاك العصر ، فمن الدعوة الى اصلاح البلاد الى الدعوة لاقامة الشريعة الاسلامية بسلوك وممارسة فعلية ونشاطات يومية حتى تمكن في عام اربعمائة وتسع وثلاثين تأسيس اللبنة الاولى في الحكم الصليحي الفاطمي داخل اليمن .

تجنب الصليحي اثناء حكمه الاخطاء التي وقع بها دعاة الدعوة الاسماعيلية الاول في اليمن بزعامة علي بن الفضل القرمطي والامام المنصور مستفيدا من دروس الماضي منتهجا منهجا مغايرا تجنب فيه الميل الى العنف والدعوة ما زالت في ايامها الاولى فدخل الناس باسلوب ذلك العصر . حيث كان يبدو انالنوازع الدينية هي المتحكمة ، بل والمسيرة لحياة الناس والمتنفذة في اذهانهم ، وترجم فكرته الجديدة في سلوكه فترأس مرارا قوافل الحجيج الى مكة ، وفض نزاعات القبائل وزعمائها ، واصلح بين الناس باسلوب ديني تقليدي كان يتقرب به الى قلوب الناس ليطرح دعوته عليهم كاتما في نفسه مقاصده الحقيقية ، وما ان نضجت الظروف الموضوعية حتى سار الى جبل مسار بحراز وهو احد الجبال الحصينة بالطبيعة في اليمن فتحصن

بها وايدته قبائل بني همدان العلية(*) المذهب فكون جيشه منهم ، ومن القبائل والافخاذ الصغيرة المتعاطفة معه ، وبدا يصول ويجول في الساحة اليمنية مبتدئا بابن جهور وجعفر بن الامام القاسم فهزمهم ، وانهى حكم بني يعفر في صنعاء فسقطت العاصمة التاريخية الروحية للشـــعب اليمني وكان من الطبيعي بعد الاستيلاء عليها ان تتساقط المدن اليمنية بين يديه الواحدة بعد الاخرى .

ان الانتصارات التي حققها الصليحي في اليمن رفعت مكانته الشخصية عند فاطميي مصر ، وعلى رأسهم المستنصر الذي سبق وان اضاع حدود الرقعة الجغرافية للخلافة الفاطمية بسبب ضعفه ، وقد اشرنا الى ذلك سابقا فكلفه امر مكة فتقبل الصليحي بذهن متفتح الاوامر السياسية ، وسار الى مكة وهو العارف بشعابها للعلاقة الوطيدة السابقة بها ودخلها ٤٥٥هـ فتغيرت احوال البلاد كثيرا ، وانتقلت من مرحلة الانهيار الاقتصادي الكامل اثر موجة الغلاء والوباء التي اجتاحتها ٤٥٣هـ الى مرحلة انتعاش اقتصادي مثله توفر المواد الاستهلاكية ورخص الاسعار ، وكما تذكر الاخبار التاريخية فان الصليحي اظهر مرونة في الحكم وعدالة في التنفيذ ، فاطمأن اليه الناس واطمأن اليهم فلم يحتط في الحراسة ، مقتنعا بان ما قدمه للشعب اليمني وشعب الجزيرة العربية كفيل بحراسته ، ناسيا الجبهة المضادة ، والتي احست بخطره في اقتلاع جذورها من الارض اليمنية فكمن له الاحول النجاحي في طريق مكة وقتله وجميع افراد عائلته الذين كانوا في صحبته . اشعل القاتل بفعلته نار فتنة داخلية بعد ان اطفأ الصليحي بحنكته السياسية وقوته وصرامته في الحكم ، ما كان مشتعلا في ارض اليمن والحجاز .

جر الاحول على عشيرته بلاءا كبيرا فقد حمل عليهم المكرم بن علي الصليحي حملة كبيرة فقتل منهم اعدادا هائلة اخذا بثأر ابيه ثم تولى مقاليد الامور في اليمن وحاول على قدر امكانه الاستمرار في سياسة ابيه ومتابعـة

(*) نسبة الى علي بن ابي طالب فقد تشيعت له منذ اختلافه مع معاوية .

خطته • فحكم اليمن اكثر من ربع قرن ليأتي بعده السلطان سبأ بن احمد بن المظفر سقطت صنعاء في قبضة بني حاتم مؤسس حكمهم هناك حاتم بن علي المغلس الهمداني ، وأثار ذلك اطماع الائمة الزيدية من جديد بعد ان كانت مطفأة في حكم علي بن محمد الصليحي وابنه المكرم •

اشتبك الائمة مع بني حاتم في العديد من الحروب قادها عن جانبهم الامام المتوكل احمد سليمان رافضا مد نفوذه الى صنعاء واسقاط حكم بني حاتم هناك • بعد ان لمس ضعف السلطان حاتم بن احمد سادس سلاطينهم ، واستطاع ان يهزمه هزيمة نكراء على ابواب صنعاء وادخله في طاعته بعد ان استسلم له كلية ، وحاول ابنه علي الابقاء على حكم بني حاتم في رقعة صغيرة من اليمن وساعدته الطبيعة في ذلك حتى جاء الايوبيون فاقتتل الطرفان ثم اصطلحا •

بقي الموقف مراقبا من الائمة الزيدية الذين كانت قوتهم بين المد والجزر بحسب طبيعة امامهم ومواصفاتهم فالامام الشجاع المقدام يوسع رقعة سلطانه الجغرافية ، ومن ثم السياسية ، اما الامام الضعيف او المستضعف فينكمش على نفسه وتنكمش معه حدوده الجغرافية ويتقلص نفوذه السياسي(*) • وقد وجد الامام المنصور عبدالله بن حمزة وهو من اشهر ائمتهم الفرصة المناسبة للانقضاض على السلطان علي بن حاتم قبل ان يتمكن الايوبيون من توطيد حكمهم في اليمن فهزمه شر هزيمة وامعانا في الاذلال واظهار الجبروت الامامي فقد ادخله تحت طاعته كما جرت عادة اولئك الائمة بانه يدخله ضمن ممتلكاته والتي تتحكم في سعتها وانكماشها مواصفات الامام الذاتية الشخصية •

أما الدولة الصليحية فقد اعطت لليمن بعد السلطان سبأ المع اسم في تاريخ اليمن الوسيط ، وقد لمع ذاك الاسم الكبير لما قدمه لليمن من عطاء ، فقد استقرت الاوضاع السياسية في ظل حكم تلك الشخصية الى حد كبير ،

(*) كان من اهم شروط الامامة عند الزيدية هي الشجاعة الى جانب المواصفات الاخرى التي يجب ان يتحلى بها الامام وهي اربعة عشر شرطا •

واتنعشت الحياة الاقتصادية وازدهرت الثقافة واستقرت حياة الناس الاجتماعية ، وشعروا بحماية الدولة ورعايتها لشؤونهم فقد احتضنت الشعب اليمني وعملت على تخليصه من محنته السياسية ، القائمة على الفتنة الداخلية المستمرة •

حكمت الملكة أروى بنت احمد اليمن قرابة اربعين عاما حين كانت هي الآمر المباشر وحكمته من وراء الستار حين كان زوجها المكرم هو السلطان ولقد اتاح لها الامتداد الزمني السلطوي ان تحل وتعالج قضايا اليمن المعقدة باتزان وروية وتعقل ، خاصة ما يتعلق بالعلاقات الخارجية لليمن ، وعلى وجه الخصوص العلاقات اليمنية المصرية فعملت بكل ما في وسعها على ان تكمل مشوار زوجها وأبيها محافظة على استقلال اليمن الذاتي فلم يكن في الامكان خضوعها او المجازفة باستقلال اليمن ورميه ليسقط بين أيدي حكام مستضعفين « كالآمر باحكام الله منصور » ورسلهم في اليمن فقد ضربت وبقسوة حين حاول « نجمت الدولة المصري » التمرد عليها والاستقرار بما تحت يديه من ولايات ومناطق ، وارجعته الى حظيرتها ليأتمر بأمرها لا بمزاجه الشخصي او حسب اهواء مرسليه في مصر • فقد كان عليه ان يلتزم بالقضية التي جاء من أجلها من مصر وهي الدعوة الدينية المجردة فقط •

ولقد حملها التمادي على الحذر والحيطة ، والعلاقة المحددة مع نظام الخلافة في مصر ، وأصبح الجانب السياسي الى حد كبير بعيد التأثير والتأثر • فقد كان لنظام حكم الملكة وزن كبير في المنطقة ، وكان اكبر من الانظمة المتهاوية في مصر ، فلقد استطاعت الملكة ان تفرض نظاما مركزيا في اليمن منذ ان شق اليمن عصا الطاعة على دولة الخلافة في بغداد • كما تمكنت من ان تفرض هيبة للدولة بعد ان كانت سمات الحياة السياسية في اليمن ، التمادي عليها بسهولة بل وعنجهية من قبل القبائل والعشائر وحتى الافراد • ثم كان ما تبع الاستقرار السياسي من نهوض وازدهار على كافة الاصعدة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية ، في وقت كان العكس هو الصحيح في مصر ، مع

اخذنا بعين الاعتبار الفترات المزدهرة التي صنعها بعض من الخلفاء الفاطميين ، لذا فمن المستبعد للغاية التبعية السياسية لمصر ، وأصبحت العلاقة بين مصر واليمن متكافئة ، كما بقيت العلاقات الاقتصادية والثقافية في استمرارية بل وصعود دائم فقد استفادت اليمن منها بصورة مكثفة • خاصة اذا ادركنا ان الاقليم اليمني في عهد الملكة عاش افضل فترات تاريخه الوسيط اقتصاديا وثقافيا ، فلاول مرة تربط اليمن كدولة ونظام بعلاقات تجارية منتظمة مع دولة اخرى ، وصحيح ان ذلك قد جاء بفعل الصلات الروحية والعقائدية بين النظامين الفاطمي والصليحي والذي هو جزء منه •

ان العلاقات الاقتصادية والثقافية مع مصر قد قامت وقويت وانتظمت في العهد الصليحي خاصة مع الظروف الجديدة المتشكلة مع الصراع الفاطمي السلجوقي ، والذي كان من نتيجته قفل الطرق البرية المارة عبر الشام فأرض الرافدين ثم ايران الى الهند ، وفتح الطريق البحري عبر باب المندب عدن الصليحية الى الهند والشرق الاقصى فانتعشت الموانيء اليمنية من تجارة الترانزيت بعد خمول وانعدام لحياة التجارة فيها دام قرونا طويلة منذ تحطم الحضارة اليمنية وانهيار الازدهار والتمدن في القرن الثالث والرابع من الميلاد ، اي قبل الاسلام بقرنين او يزيد قليلا من الزمن • وبعد ان تحولت الطرق البحرية وعادت من جديد الى البر الملكي والشواطيء الافريقية الموازية للشواطيء اليمنية، منذ تلك الفترة والشواطيء اليمنية تعاني الكساد التجاري• ولم يعد يجني منها اليمن أي دخل قومي، واصبح استعمالها محدودا في اطار اليمن وداخل حدوده اي للانزال البضائعي الداخلي ليس الا• وتعد الموانيء اليمنية ذات أهمية تستخدم للخارج كمحطات ترانزيت مرور لما تمتعت به من موقع ربط بين البحرين ، وتواصل مع الثالث المتوسط ابان الحكم الصليحي والفاطمي وأشراف الفاطميين على البحرية متقاسما متواصلا مع الصليحيين بالبحر الاحمر • ومع استقرار النظام الصليحي وتعقيدات النظام الفاطمي السياسية ثم حاجته للموانيء الحساسة والمهمة وبمساعدة ذاك الارتباط العقائدي الى جانب الظروف الذاتية والمساعدة في النظام الصليحي عادت

الحياة للموانيء اليمنية وخلقت علاقات اقتصادية قوية ومتينـة بين اليمـن ومصر ، بحكم المصالح المتبادلة من جهة ، وتحت تأثير العلاقات العقائدية ثم السياسية من جهة ثانية ، فقويت وانتظمت الارتباطات الاقتصادية ولحقتها ارتباطات ثقافية بين البلدين لحاجة اليمن اليها وغنى مصر فيها ، فوصل اليمن العلماء والفقهاء ، مكنوها من النهوض الثقافي • فانتشرت المدارس ودور العلم والمساجد الكبيرة بفقهائها المتضلعين في علوم ذاك العصر واحتضنت « جبلة » عاصمة « الملكة أروى » النهضة العلمية وما زالت آثارها باقيـة حتى يومنا هذا •

كان من جراء العلاقات الثقافية بين البلدين موضوعنا الذي نحن بصدده اي انتقال السيرة الشعبية الى اليمن من مصر حيث نشأت نتيجة الظروف السياسية التي عاشتها مصر ، والتي أتينا على ذكرها سابقا ، الحاجة الى بطل يخرج الاوضاع العربية من مآزقها الذاتية والموضوعية الداخلية والخارجية وبحث الذهن الشعبي في ذاكرته التاريخية عن المنقذ فاختار سيف بن ذي يزن لاعتبارات عدة تستحق منا الوقوف امامها على سؤال يبدو أمام الجميع ملحا •

الاختيار الشعبي لسيف في القرن الخامس :

لماذا اختير سيف بالتحديد ليكون هو البطل الشعبي في السيرة المتنفس الامل؟؟ لقد كمن وراء التحديد الشعبي العديد من الاسباب ، التي كان يدرسها الشعور الشعبي ، فقد كـانت في اعماقه الجمعية وحين دعت الضرورة تم استدعاؤها فاذا بها تتحدد بجوانبها الموضوعية والذاتية في الظروف السياسية المتشابهة بين مرحلة ماقبل الدعوة الاسلامية في الجزيرة ، واواخر عهد الخلافة الفاطمية وقبل الاجتياحات الخارجية • فقد عاش الوطن العربي في العهدين الجاهلي ، كما تعورف على تسميته ، والفـاطمي نفس ظروف التمزق فقد خضعت مصر لبيزنطا والتي سيطرت كذلك على الساحل الشرقي للبحر الابيض المتوسط ، واستسلمت العراق لفارس اما المناطق التي لم تكن خاضعة الخضوع المباشر في الشام والجزيرة وخليجها او الجنوب فقد اعطت ولاءاتها لهذه

الامبراطورية او تلك وارتبطت معها حماية ودفاعا فأعطت قبائل الشام العربية الولاء لبيزنطا وربطت بها وجودها وديسومة بقائها واستمرارها بصرف النظر عن كيفية ذاك البقاء والاستمرار •

لقد حافظت الدولة الحامية والمحتضنة على وجود القبائل من حملات الابادة التي كانت تشنها القبائل ضد بعضها او تلك التي كانت تأتي بجيوش امبراطورية ضخمة بقصد التأديب ، كما كان يحدث باستمرار من قبل الاحباش الموالين لبيزنطا تجاه اليمن وقبائله ، وقد تتطور الحملات الى الابادة لتأمين اطراف الامبراطورية او للضم الجديد والذي كان يحدث باستمرار ولم يكن امام تلك القبائل الا ان تعطي ولاءها للدولة الكبرى المحاذية لاراضيها او المحتلة لها ، كما اعطى الغساسنة في الشام الولاء لبيزنطا ، فوفرت لهم الحماية ساعة حاجتهم اليها ماديا ، ومنحتهم الشعور بالطمأنينة النفسية الدائمة طالما بقوا على ولائهم لها • وكذلك فعلت فارس بالنسبة لقبائل الخليج ، أما قبائل الجزيرة العربية وجنوبها فقد قدمت لهم الطبيعة الحماية اولا بوضعهم الجغرافي البعيد عن سطوة الامبراطوريتين العظميين ثم لوعورة المسالك اليها ان قربت الاطراف او تاخمت الوجود الامبراطوري المعني فشكلت وضعية القبائل في الجزيرة وجنوبها كيانا مستقلا اندرجت فيه كيانات صغيرة كثيرة مستقلة بنفسها ، فعاشت تلك الكيانات متقاتلة حينا متقاربة بحسن جوار وصلات دم ورحم حين آخر •

ان التبعثر والتمزق في الارض العربية كان قائما ومكرسا بل ومبررا له كذلك نفسيا ، فقد اعتنقت بعض القبائل النصرانية كما حدث في الشام ومالت الاخرى لليهودية كما حدث في جنوب الجزيرة حين اعتنقها الحميريون وبقيت قبائل الجزيرة ووسطها على وثنيتها ، ومالت قبائل الخليج الى خليط من الاديان سيتغلب عليها بطبيعة الحال ديانة الامبراطورية الحامية فارس • تلك كانت اجواء الوطن العربي قبل مجيء سيف بن ذي يزن بايجاز شديد فما هو واقع الحال الموحي لعودة الروح اليه ، واختياره بطلا لفترة زمنية

يعدت كثيرا عن فترته الا انها اقتربت من حيث طبيعة الاوضاع السياسية التي سادت في تلك الفترة الزمنية المتقدمة اي في العهد الفاطمي مع الاوضاع السياسية التي أفرزت وجوده ونضاله الحقيقي والواقعي ٠ان المتتبع للاوضاع السياسية في اواخر العهد الفاطمي يلمس تمزقات كثيرة وكبيرة في العالم العربي فهو مجزأ بين الخلافة العباسية في بغداد ، والفاطمية في مصر ، والاموية في الاندلس ، والبويهية في أرض الاعاجم وما وراء النهر ، ثم السلجوقية ، تلك كانت التقسيمات الكبيرة في الامبراطورية العربية ناهيك عن عشرات الكيانات الصغيرة المبعثرة داخل التقسيمات الكبيرة ، والتي كان وجودها محدودا زمنيا ٠ ان واقع التجزئة ذاك قد فرض على الامبراطورية الاسلامية في تلك الفترة بالتحديد بعد ان ضعفت دولة الخلافة المركزية في بغداد فأصبح خلفاؤها مجرد دمى تلعب بها كل الايدي الحاقدة على الجماهير العربية والاسلامية من شعوبية منغلقة الى عربية اسلامية متزمتة لعبت بالخلافة من الداخل فأتاحت الفرصة للمحيط الخارجي ان يجرف الخلافة وهيبتها ، ويقيم فوق البقع الخالية من سلطة دولة الخلافة سلطات مغايرة كانت نواة لكيانات بدأت صغيرة محدودة الرقعة الجغرافية والسلطة السياسية توسعت على حساب مزيد من الضعف والانهيار في داخل كيان الدولة المركزية فتكونت الكيانات الكبيرة التي أعلنت نفسها خلافات بديلة للخلافة العباسية في بغداد ، واختلفت وتناقضت معها سياسة ومصالح وعقيدة ٠ فأحتضنت مصر الفاطمية المذهب الاسماعيلي الشيعي ، واعتنقت الامبراطورية السلجوقية المذهب السني بعد ان مزقت وسحقت البويهيين ومذهبهم خضعت دولة الخلافة في بغداد لتحولات المذاهب وتقلبات السياسة فحينا شيعي وأحيانا كثيرة سني بحسب تمذهب القواد والساسة المحركين للخليفة العباسي والدولة ٠

أدت كل تلك المشاكل العقائدية والسياسية الى تمزيق الخلافة وكان لذلك انعكاسات سلبية على واقع الحياة الاجتماعية فأفرزت جمعية متألمة وممزقة بحسب الواقع الموضوعي ، والذي لم يكن كذلك ٠ راح يفرض

عبر مرحلة تاريخيـة بالتدريج حتى ثبت كواقع موضوعي لم تكن تشعر الجماهير بحقيقته على الرغم من تشكله المادي ولذا ذهبت تبحث وتفتش في ذاكرتها عن منقذ يرفض واقع التجزئة ليعمل على انهائه واعادة اللحمة التاريخية بين تلك المرحلة والمرحلة التاريخية التي سبقتها • منذ قيام اللبنة الاولى للدولة الاسلامية في المدينة حتى فترة ما قبل التمزقات الكبيرة ، واصطناع الكيانات الصغيرة الكثيرة والمتعددة •

والى جانب ظروف التمزق المتشابهة ، والتي فرضت ذاك الاستدعاء فقد تكافأت معها ظروف وأسباب اخرى جعلت من الاستدعاء ضرورة لتلبية حاجة منها حملات الغزو والاحتلال التي تعرض لها الوطن العربي وبالذات الخلافة الفاطمية فقد زحف على ولاياتها الشرقية السلاجقة ثم الصليبيون • ووقع الوطن العربي في فكي الكماشة الجديدة بعد ان صنع له الاسلام القوة المطلوبة لينفك من فكي الكماشة • بل ويكون أي الاسلام الذراع الطولى التي استطاعت ليس فقط ان تفك الكماشة ، وانما لتحتضن شعوب المنطقة بحديها الادنى والأقصى ، وتشكل معها الحضارة الانسانية الواحدة ، وحين وهنت قوتها وضعفت وبهت مجدها التفت عليها من جديد كماشة الشرق والغرب ، وزحفت على المنطقة الاستراتيجية والتي بقيت طوال مراحل التاريخ تثير شهوات الغزاة والمحتلين فملك السلاجقة أجزاء من الشام ، ونافسهم الصليبيون في أجزاء اخرى ، وهدد الصليبيون مصر كما سبقهم لتهديدها السلاجقة آخذين بعين الاعتبار موقف السلاجقة المدافع بقدر امكانياتهم عن بعض المدن الشامية ضد الاعتداءات الصليبية البربرية • لدوافع كثيرة منها الرابطة الدينية التي ربطتهم بالعالم العربي ، وخلقت العداء للصليبيين •

تكثفت الحملات الصليبية فزرعت الدمار في كل انحاء الوطن العربي التي مرت من فوقها جيوشهم وجحافلهم الجرارة فاستعادت الذاكرة الشعبية معلوماتها عن الغزو والاحتلال فاذا بغازي اليوم « المرحلة الفاطمية » يحمل

نفس سمات غازي الامس بيزنطا وحلفائها الاحباش تحركهم نفس الاطماع تحت نفس الشعارات لنفس العقائد المسيحية في القرن السادس للميلاد أي قبل الاسلام بأقل من قرن ،ثم وهي بعده في أواخر الخامس والسادس منه ، وحين اتضح للذاكرة بعد الاستعراض والمقارنة التشابه الكبير في سمات العدو وملامحه حسمت امرها على ان يكون البطل نفس البطل ، ولم يكن امامها خيار فلم تكن هناك اسماء لامعة في سماء البطولة العربية غيره قائدا وزعيما شعبيا للغليان الجماهيري اليمني الممتد باشعاعه الى كل انحاء الجزيرة العربيـة .

مثل سيف ذاك القائد الشعبي الذي تحمل آلام شعبه عـلى كتفيـه وبقيء ينوء ويرزح تحت ثقلها فيظروف لمتكن مواتية له بل ومعقدة وصعبة فالارض اليمنية ممزقة والشعب اليمني محطم من ابشع احتلال عرفه تاريخه رفض ان يكون له من ذلك الشعب غير الثلث قتلا ونهبا وسبيا . وفي ظروف عربية في غاية التمزق والانهيار قبائل تقتل بعضها وتأكل نفسها في حروب طويلة بلا هدف ولا سبب ، او انها موزعة بين الدولتين الكبريين لا تأتمر ألا بأوامرهما لتحديد مواقفهم من هذا الامر أو ذاك في تلك القضية او هذه وعلى وجه الخصوص في قضية احتلال واجتياح ترعاه دولة كبرى وتنفذه دولة لها كل مقومات الوجود والدولة ، التي تجعل منها قوة لا يستهان بها في المنطقة ، الى جانب قربها من الارض العربية والذي سهل عملية الـدخول والتداخل المعقد بدوره للعملية اكثر فاكثر . وجد سيف وجماعته انفسهم وحيدين وسط كل الظروف الصعبة والمعقدة فحمل هو كرمز لهم آلام شعبه المسلوب الارادة والفعل .

راح سيف يضرب الصحراء العربية يطلب العون من بين القبائل العربية وذاك هو ما اعطى للقضية بعدا قوميا اضافة الى ابعادها الوطنية والشعبية ، على الرغم من ان حدود التعاون القومي لم تكن تخرج عن حـدود الدعاء والصلاة وتقديم القرابين لهذا الاله او ذاك لينصر سيف على اعدائه ويهـزم

الدخلاء والمعتدين بدلا من الدعاء الا ان امكانيات القبائل والشعوب العربية لم تكن تتجاوز غير ما تملكه ، ولم يكن سيف يؤمن بما تملكه لم يكن يؤمن بآلهتها فلا اللات بالنسبة له مقدسة ولا العزى فقد كان بعيدا عن وثنية الجزيرة او اليمن ، وفرضت عليه ظروف الاحتلال الوقوف في وجه المسيحية باعتبارها ديانة المحتلين والغزاة ، وتحت شعارها غزوا ارضه وعاثوا بمقدرات شعبه وكرامته • كما ان انتشارها يؤدي الى تثبيت وضع الاحتلال واكسابه صفة الشرعية ، ولم يتعصب لليهودية رغم كونها ديانة اهل اليمن الرسمية فبقي بعيدا عن التعصب الديني لعدم جدوى ذاك التعصب لظروفه ووصعه • كانت ظروفه تفرض عليه التعايش مع جميع الاديان مستثنيا مسيحية الاحباش الغزاة ، وقد واتته الظروف للعمل مع اهل الاديان مجتمعة لطرد الاحباش ، فارتفعت مكانته في النفسية الشعبية الجمعية ايام نضاله ، وبعد ان تربع على عرش اليمن ملكا متوجا فوق العرش وفي وجدان الشعب اليمني والقبائل العربية في الجزيرة •

اثرت اخلاق سيف المتسامحة مع الاديان المتحصنة لها جميعا في النفسية العربية في اواخر القرن الخامس والسادس من الهجرة فأصرت على اختيارها لسيف بطلا ومنقذا لها من التمزقات المذهبية والطائفية التي عصفت بالوطن العربي والامبراطورية • فقد اثارت التعصبات الطائفية والمذهبية الفتن واشعلت الحروب فقاتلت الشعوب الاسلامية بعضها البعض ، وتقاتل ابناء الشعب الواحد ، وقد بدأت تأثيراتها السياسية منذ حرب صفين بين علي ومعاوية ، وكان على اثرها ان انقسم العرب ثلاث طوائف ثم توسعت انشقاقاتها فازداد عدد الفرق والطوائف ووجدت في السيف فقط وضع الحلول وفرض الحدود المطلوبة امام الطرف الخصم مذهبيا او طائفيا • والدخول في هذا الحديث لن ينتهي فقد بقيت المشكلة مستمرة بل هي ما زالت قائمة حتى يومنا هذا تعطي بنتائجها السلبية للشعب العربي والجماهير البائسة مزيدا من البؤس والالم •

بعد قتال علي ومعاوية تقاتل الامويون والعباسيون ، ثم العباسيون والعلويون ، ثم الاسماعيليون والعباسيون ، وحتى تلك الفترة كان الصراع فاطميا عباسيا شيعيا سنيا ناهيك عن الحروب الطائفية الصغيرة والمتفرعة من هذا الاصل او ذاك ، والتي استمرت تتفاقم بفعل الزمن ، ولم تجد لها بعد الحل الناجع والضروري عند المتعصبين لها المتمسكين بها • أحس الوجدان الشعبي الممزق والمتألم من حكم السيف بحاجته الشديدة لشخصية سيف حتى يضع به حدا لمعاناته المذهبية والطائفية بعد ان اصبح يتجرعها صباح مساء مع خبزه اليومي وفيه •

ولهذه الاسباب مجتمعة كان استدعاء « سيف الامل » وحصر الوجدان الشعبي الحل ببطل فرد كما تعود التفكير الانساني الجنيني في المرحلة المتقدمة من نموه ، وفرض على نفسه ان يكون البطل متدينا كنتيجة طبيعية لسيطرة الفكر الغيبي الديني على مرحلة التدين الطويلة والمستمرة حتى يومنا هذا في عالمنا العربي • فتعلق الوجدان الشعبي بالفرد المتمتع كما صوره ذاك الوجدان بقوى خارقة يتمكن بها من حل المشاكل الجمعية المستعصية بقدراته الفردية الذاتية • أما « سيف المتنفس » فقد ولد مع « سيف الامل » الا ان الحاجة الملحة اليه ولدتها ظروف اتت مغايرة الى حد ما في القرن الثامن وهو الذي نراه في السيرة الشعبية التي بين أيدينا والتي سنأتي فيما بعد على تحليل موضوعها •

عودة سيف الى اليمن :

لهذه الاسباب وتلك الاعتبارات استدعى سيف من المرحلة التاريخية التي عاش فيها ، الى مرحلة تاريخية أراد الوجدان الشعبي في مصر ان يعيشه فيها من جديد ، وانتقل ذاك الشعور الجمعي المصري الى اليمن نتيجة التقارب الذي تم بين القطرين ابان الحكم الصليحي في اليمن وجزره الكبير في مصر عن طريق الثقافة والعلاقات الثقافية التي نشأت بين البلدين فابتهج بها الوجدان اليمني فقد عادت اليه مرة ثانية حقوقه وملكيته لسيف فأعاد صياغتها بطريقته

المعتاد على اتباعها فصاغها شعرا هو ما تبقى لنا من الاسهامات اليمنية في القضية الشعبية فظهرت قصيدة « نشوان الحميري » والتي يلخص فيها التاريخ اليمني والحضارة اليمنية مخففة الى حد كبير من التفكير الاسطوري مبقية على ما ارتبط منه بالفكر الديني في القصص القرآنية وقد أضاءت أمامنا النور الاخضر فدعمت الادلة قناعاتنا بأن السيرة الشعبية لسيف قد كتبت بين القرنين الخامس والسادس والا ما الذي بعث سيفاً من جديد ؟؟ ومن الذي استدعى الوجدان اليمني للمفاخرة والمباهاة بتاريخه في تلك الفترة ؟ أليست هي عودة الروح لسيف ، لتلبية حاجيات الوجدان الشعبي ؟ نتيجة لكل تلك الظروف الموضوعية التي وجد نفسه مقحماً بها • ثم انتقال ذاك الشعور بطريقة عكسية للمرة الاولى التي حدث بها الانتقال حين هاجر مع القبائل اليمنية من اليمن الى مصر مع الفتوحات الاسلامية • أننا نراه هذه المرة عائدا الى اليمن بعد هجرته الطويلة منها فوجد الترجمان قصيدة تحكي قصة الحضارة في اليمن وتفرد لسيف وانتصاره على الاحباش حيزا كبيرا ، وهي بمجملها تفخيم وتضخيم لتلك الحضارة وذاك التاريخ • والقصيدة في افكارها الرئيسية لا تخرج عن السيرة الشعبية بل هناك تطابق كبير بين الاحداث الرئيسية في القصيدة والسيرة ، فالنضال ضد الكفر والوثنية قائم منذ عهد هود وحتى عصر سيف والتفاخر بأمجاد اليمنيين فكرة مهمة في كل الاثنتين ، كما ان التبشير بالاسلام ، في ظل التحديات السياسية الكثيرة والكبيرة التي تعرضت لها دولة الخلافة الاسلامية قد استحوذ على جزء كبير من اهتمام مؤلف القصيدة ومؤلفي الاسطورة • أما المحور الذي تمحورت حوله كل منهما فقد كان الصراع العربي الحبشي ، مع الاخذ بعين الاعتبار تغير الظروف الزمنية ، التي اكسبت ذاك الصراع ملامح خاصة تباينت بينهما بسبب اختلاف الشخصيات في الجبهة المضادة لسيف •

ولقد لمسنا في ما سبق كيف ان اليمن تأثر وأثر في كتابة تاريخ سيف في القرن الثالث وهو القرن الذي كتبت فيه الحوادث التاريخية كحقائق واقعية مع الاخذ بعين الاعتبار المبالغة والحذف وكل الثغرات التي لها علاقة بالكتابة

المتأخرة للحادثة او الواقعة والمعتمدة على المشافهة والرواية ولا شك ان لكتابة الملحمة الحميرية لنشوان الحميري علاقة بما كان يجري ويدور في الامبراطورية الاسلامية من قضايا الفكر والادب • وانطلاقا من هذه القناعات تأتي اجتهاداتنا حول الفترة الزمنية التي كتبت فيها السيرة كفن من فنون الادب العربي متشبعة بالخيال المرافق عادة للادب والفنون •

مقارنات بين القصيدة والسيرة :

تأتي السيرة ، ونعتبر السيرة التي بين أيدينا متطورة عن سيرة حكيت وكتبت ثم تطورت وانتهت بموضعها القديم الى صورتها المدونة في القرن الثامن والتاسع والباقية الى اليوم لتخرج سيفاً من اطار الواقعة التاريخية لتحلق به في عالم الخيال والاسطورة محاولة بذلك من ناحية أدبية فنية الاشباع الادبي ، والاخصاب البلاغي ، والاثراء اللغوي • أما من الناحية الاجتماعية والسياسية فقد أريد بالسيرة مع غيرها من السير والقصص والروايات البطولية ان تعرض عن واقع البؤس الذي عاش فيه انسان تلك الفترة كما راحت تعيشه في عالم جميل من الاحلام التي تكثر النساء والعيش الرغيد وليس فيه من بؤس الواقع شكل ولا صورة بل صور مختلفة تماما عن الصورة البشعة التي يحيون داخل اطارها •

أما الجانب الذي أسهمت فيه السلطة بصورة أو بأخرى فقد أرادت به تحذير الجماهير ودفعها الى الاغراق في الغيبيات والماورائيات والمراهنة على تلك القوى الغيبية في حل المعضلات السياسية المعاشة انذاك • كما راحت اطروحات السلطة الغير مباشرة في السيرة توهمه في امكانية حل مشاكله دفعة واحدة في حال التمسك الشديد بالدين •

أما عطاء السيرة ذهنيا وفكريا فقد جاء ليؤكد على ان ذهنية انسان تلك الفترة هي امتداد لذهنيته في الفترة الاولى من مرحلة التدين والتي غلفت جزءا كبيرا من جوانبها الاسطورة لاعتماد تلك الظاهرة في حركتها على الماورائيات والغيبيات ، ولذلك فقد أضحى العطاء مزيدا من الخيال والاغراق في الاسطورة

الى حد التخيل باستحالة حل المشاكل المتراكمة للفرد والمجتمع الا بها ، فهي وحدها التي تستطيع ان تنقل الانسان وعلى بساط السرعة من حالة العدمية الى حالة الامتلاء ومن واقع الصفر الرافع تحته الى الكمال المنشود والذي يحلم به ويأمل فيه وهو على حالته الاولى ولقد وفرت له السيرة تلك القفزات النوعية الخارقة للطبيعي من حيث حركتها الكمية وعملية الانتقال من حالة أخرى الى حالة مغايرة تماما لها وهي الصورة التي بقي الفرد والمجتمع مشدودا اليها وهو يعيش في واقع بائس كالذي عاش فيه في تلك الفترة .

دفعت مفارقات الصورة بين حالة الصفر وحالة المائة على ان يشحذ الانسان فكره ليتصور طريق الوصول من الاولى الى الثانية محفوفا بالمخاطر ، التي سرعان ما تزول بمجرد تدخل قوى خارقة للطبيعة تنقله من حالة الى حالة ، وتوفر عليه اتعابا ومشقات كان يشعر في تلك الفترة بعدم قدرته على ركوبها وخوضها . لقد اعطت السيرة منحا وهبات روحية ونفسية كبيرة اطمئن لها الانسان واستعان بها على واقعه لا لكي تدعمه في حركة تمرد او ثورة بل لتواسيه وهو في وضعيته الاستسلامية للقوة المولودة في نفسه من ناحية ، وللقوة المهيمنة مباشرة على حياته . كانت عملية الاستعانة اذن للمواساة والتعزية عن طريق الاستغراق في التنويم المنبعث في السيرة والمدغدغ للاحلام والاماني الفردية والجمعية .

فهي عند نشوان الحميري الحبشة بزعامة ابرهة الاشرم وأرياط في بدايات القرن السادس للميلاد ، أما في السيرة فهي الحبشة المسيحية بقيادة سيف أرعد في القرن الرابع عشر من الميلاد اي الثامن للهجرة .

ولقد طرحت كل من القصيدة والسيرة القضية اليزنية باسلوب خاص بها يتماشى مع طبيعة ذهنية قائلها والمستمع اليها ، فهي في القصيدة لشاعر قد قيلت فيه أوصاف كثيرة نوجزها بأنه الى جانب شاعريته الرفيعة فقد كان عالما ومؤرخا كبيرا ويأتي انتاجه على غراره ومن شاكلته لهم بلا ادنى شك مستوى من العلم والادراك ليتجاوزوا مع الشاعر وعطائه الفني الشعري . أما السيرة

فقد كان من الطبيعي بل والضروري اتباع الاسلوب العامي البسيط لتفهمها عامة الناس ويستوعبها أقل الناس ادراكا وفهما لاسباب كثيرة منها الرغبة السلطوية او الجماهيرية للتعرف على بعض الاحداث والوقائع التاريخية • وفوق هذا وذاك فقد رواها مجهول كغيرها من السير ، وربما اشترك فيها اكثر من راو ، بل ولا نستبعد ان تكون العامة بأسرها هي الراوي وهي المستمع في نفس الوقت ، ويمكننا ان نقارنها بالاشاعة اليوم يسهم فيها الجميع كل يزيد من عنده حتى تفقد الرواية او الخبر معالمه الاصلية ، وكذا كان شأن السيرة اليزنية ولذا فمما لا شك فيه ان النسخة الاولى من السيرة ستروى باسلوب عامي شكلت النسخة التي بين أيدينا والتي يعتقد انها كتبت في القرن الثامن الهجري صورة منها ، آخذين بعين الاعتبار كل الاضافات والتي ادخلت على اخر صياغة للسيرة •

جاءت قصيدة نشوان لتكون نصيب اليمنيين في الاسهام في كتابة السيرة الشعبية لسيف كغيرها من السير ، والتي كان يبدو ضرورة اعادة كتابتها للتذكير ببطولات خلت كان أولى للجماهير العربية ان تتمثلها في فترة تدهور الاوضاع ليس فقط للتعويض عن بؤس حال او التعزية في واقع ، وانما ، وخاصة ما كتب من قبل المؤرخين والمؤلفين ، لكي تجد في السير صورا يمكن بواسطتها ، كدافع تاريخي مع غيرها من الدوافع الاجتماعية والسياسية المعاشة ، استنهاضا ونفخ روح التحدي من جديد فيها لمواجهة الاخطار الداخلية والخارجية المحيطة بها ، فقد كانت تعيش محنة التمزق الداخلي المزروع بين صفوفها ، والذي احال الامبراطورية الى اجزاء ودويلات صغيرة محدودة الرقعة والبشر ، الى جانب التحديات الخارجية التي بدأت تندفع كالعواصف المجتاحة من الشرق والغرب • ففي عام ١٠٩٩م سقطت القدس في أيدي الصليبيين وحسر النفوذ الفاطمي في منطقة صور وعسقلان الساحلية ، وفي الوقت نفسه كانت انطاكية تسقط فريسة بين أيديهم ، ومنها راحوا يزحفون على شمال سوريا ، وحوصرت طرابلس الشام ثماني سنوات طوالا لتسلم بعد ذلك زمام أمورها لهم •

وبقيت السيرة الشعبية متداولة حتى ظهور صلاح الدين الايوبي كبطل قومي في المنطقة للصفات التي تمتع بها والاعمال التي قام بها ، فقد كان ديبلوماسيا محنكا ورجل سياسة موهوبا فرفعه ذلك الى قمة القوة والسلطان ، وصفى حسابات العرب ومصر بالذات مع الفاطميين المتخاذلين تمهيدا لتصفية الحسابات مع الافرنج واقتلاع جذور استيطانهم اللاشرعي فوق الارض العربية في الشام وفلسطين ، وقد ادرك الفرنجة بعد تسلمه الحكم في مصر الخطر بدأ يتهددهم منذ ان جثموا فوق الارض العربية ، فطلبوا امدادات من أوروبا فحملت الاساطيل لهم الجيوش واستعد صلاح الدين ، ففشل حصار دمياط وانسحبوا من مصر .

بدأ صلاح الدين يفكر في فتح فلسطين فاحتل ميناء ايلة كقاعدة يستعد فيها للفتح ، وشعر صلاح ان مصر مهددة ما بقيت سورية منفصلة عنها خاضعة لملك صغير هو اسماعيل بن نورالدين ، كما ان شريط الاحزمة الامنية الساحلية التي احتفظ بها الافرنج تعد مصدر تهديد وازعاج لمصر والعرش الايوبي . فتقدم الى دمشق بحيلة سياسية وهي توطيد السلطة الشرعية للملك اسماعيل بن نورالدين ، وهناك بسط سلطانه ثم توجه صوب جنوب البحر الاحمر ليغلق باب المندب فوجه اليه اخاه توران شاه ، ودخل اليمن دون مشقات تذكر لانهيار الاوضاع الداخلية بمجملها هناك .

كانت جهوده العسكرية ضمن الخطة السياسية والعسكرية لتحطيم الاحزمة الامنية الساحلية واقتلاع الاستيطان الافرنجي في فلسطين . وقد بقي الافرنج يناوشونه من المناطق المتاخمة لحدود سلطانه في سوريا فقد كانت رأس حربة في أيديهم يؤذون بها استقرار وأمن المواطنين العرب فقرر تصفيتها ، واحتل مرجعيون تمهيدا للضربة القاضية ، وأمر قواته بالاحتشاد في حارم . وسار بنفسه الى الكرك والتقى عند بحيرة طبريا بالجيوش الافرنجية الجرارة ، فتقاتل الجيشان في سهل حطين وانزل بالصليبيين الهزيمة القاضية ، وتساقطت بعد ذلك الحصون خلال فترة قصيرة من الزمن حتى شارف على

أبواب القدس وحاصرها ، فاستسلمت في الشهر نفسه ، فدخل بطلا وعادت المدينة المقدسة مرة ثانية عربية بعد ان بقي استيطان المدينة ما يقارب التسعين عاما .

لقد تحقق في الواقع اذن أمل الجماهير الشعبية في البطل المنقذ فبعد ان كانت تستدعي ، صورا من الماضي أعطاها الواقع صورة حية فالتفت حوله ، وهدأت نفسها به ، على الرغم من معاجلة المنية له ودخلت سيرة سيف ضمن الفلكلور الشعبي ، وبعد قرنين من الزمن اعيدت صياغتها بالصورة التي بين أيدينا وأضيف من الاسماء والوقائع التاريخية ما أوحت به الاحداث المعاشة انذاك وحذف من الاسماء ما لم تكن الحاجة اليه ضرورية او ملحة فاذا بسيف ارعد يحل محل الملك الحبشي « عيزانا » ومحل قائد الحملة الى اليمن أبرهة الاشرم وابنه مسروق وهو الذي حاربه سيف وانتصر عليه في الحوادث التاريخية التي أتينا على ذكرها . فما الذي دعى الى ذلك ما هي الظروف التي فرضت ذاك الخلط التاريخي او بالاصح تلك الاستعارة من الماضي ؟؟ الى تلك الفترة التاريخية والتي حددتها بعض شخصيات السيرة بالقرن الثامن للهجرة . ذاك سؤال سنحاول ان نجيب عليه ونحن نقوم برسم صورة الواقع التاريخي كما كان عليه ، وكان منه انتجاع السيرة وغيرها من السير المتجاوزة حدود الاسطورة الجميلة الى الخرافة والشعوذة والاسفاف في الاراء والافكار الشعبية العامية والانحطاط بها الى الدرك الاسفل في نهاية تدوينها .

الباب السابع
القرن الثامن ومعطياته السياسية

لقد حاولنا في الدراسة ان نأتي على الاحداث في تسلسلها الزمني حتى نتوصل الى معرفة الواقع الذي افرز الاسطورة والخيال من المنبع حتى المصب فالسيرة الشعبية لسيف ليست نبتا شيطانيا كما نفهم ذلك من كلام جميع الباحثين الذين تناولوا هذا الموضوع بل هي عملية خلق ذهني تاريخي فيه روح الاستمرارية مع التكيف بالمكان والزمان ومقتضيات الحاجة فيهما • فسيف الواقع التقى واختلف مع سيف المحمول على رؤوس سيوف القبائل العربية الفاتحة مصر ثم المنصهرة فيها • وهو سيف المتشابه والمتباين لسيف القصيدة النشوانية وتلك المرحلة • وسيف تلك الاوضاع السياسية غير سيف العصر المملوكي وهو كذلك شبيهه • ثم هم جميعا ليسوا سيف اليوم والغد الحلم والامل مع الاحتفاظ والمراعاة للخصائص والصفات الاساسية الواحدة التي تجعل منهم جميعا اشباه بعض • لذا حرصنا على التسلسل الزمني حتى نقطع دابر القاطعين للزمن ، واستعراض الصور الذهنية في الصورة المعروضة ضمن الاحاديث والقصص الشعبية المتراصة الحلقات في الامتداد الزمني • من هنا جاءت ضرورة رسم الملامح السياسية الاساسية التي خلقت صورة سيف السيرة ، كما هي عليه فيها ، وانسجاما مع التطور المنطقي

الذي سارت عليه قصة سيف حتى وصلت الى صورة السيرة ، فقد تسمح لنا قراءة حوادث التاريخ باستشفاف الاهداف المحمولة في السيرة سواء كانت شعبية جماهيرية او فوقية سلطوية • وما يحملنا على القول بذلك ما نلمسه في السيرة من احداث ورغبات ذات موقف نظري طبقي محدد يمثل مساهمة الدولة في توجيه الرأي العام لذا فالسيرة بصيغتها تلك مجال تنفيس وتخويف وسنأتي على ذلك فيما بعد •

اتى المماليك الى مصر كما تشهد كتب التاريخ من اخر ملوك بني ايوب فقد حمل توران شاه وامه شجرة الدر من الجزيرة الفراتية جماعة منهم على رأسهم اتابك العسكر « عزالدين ايبك » وهم يجهلون ان نهايتهما ستكون على ايدي اولئك المماليك ، والذين بيتوا النية بعد ان تخلصوا من توران شاه وامه للقضاء المبرم على ما تبقى من الدولة الايوبية وتأسيس حكمهم في مصر ولقد قام ذاك الحكم في اجواء داخلية وخارجية معقدة وممزقة • فلم يكن من الممكن ان يقبل الشعب المصري وجودهم بين ظهرانيه كحكام فهم بحكم ما ساد المجتمع من افكار اقطاعية عبيد ارقاء اشتروا بالمال وجيء بهم للنهوض باعباء الديار السلطانية الداخلية ثم انهم جاءوا على انقاض الدولة الايوبية وهي التي ارتبطت في ذهنية انسان تلك الفترة بالمجد والعزة القومية ، وما شهدته مصر من ازدهار سواء على المستوى السياسي او الاقتصادي التجاري في العهد الايوبي والاستقرار الاجتماعي الذي نعم به الشعب المصري في عهدهم ، ثم تأتي جماعات ناكثة للعهد اوردت اولى نعمتها موارد الردى والتهلكة ، كما حدث للملك توران شاه وامه الملكة شجرة الدر ، فكيف اذن التعامل معهم ؟؟ وبقي سياج الشك والريبة يحول بين الحكام الجدد والانسان المصري حتى رقي على عرش مصر الملك « الظاهر ركن الدين بيبرس » •

في تلك الاثناء كان الاعصار المغولي يجتاح الشرق الادنى ويهدد مصر بالخراب والتدمير وشعوب المنطقة ترتعد خوفا ، فلا هناك قيادة تنظمها

لتتصدى ، ولا قائد يستشيرها لتدافع عن نفسها وتذود عن تربتها الوطنية في حدودها الاقليمية ، بعد اليأس من الدفاع عن اراضي الامبراطورية الاسلامية الممزقة ، وكادت اقدام المغول ان تطأ ارض مصر وعاش الناس فترة عصيبة فهذه المرة يبدو العدو مكتسحا الانسان بمفهومه الكلي ، غير قادر على التمييز بين المقاتل والانسان المدني ذكرا ام انثى ، عجوزا ام طفلا كائنا من كان • يريد الاجتياح المغولي هذه المرة ان يستأصل وجود الانسان من جذوره يبدو فيه الانسان قلقا خائفا على وجوده الانساني بقيمه واخلاقياته وكل ما خلفه الاباء والاجداد ، وكان على تلك الجماهير ان تدفع الثمن من اعصابها •

في ظل الخوف والقلق والضياع والتمزق ظهر قائد في فلسطين ينازل الوحش المغولي ليوقف اجتياحه ذلك هو القائد « الظاهر ركن الدين بيبرس » المرسل من الملك قطز لقيادة الجيوش المصرية المتجهة الى فلسطين لايقاف المد هناك وكسره وقطع الطريق المؤدية به الى مصر • وقد فرضت الظروف على مصر ان تدخل كل معارك الدفاع ضد الغزو والاجتياح والاحتلال الاجنبي • كان على مصر ان تدافع عن نفسها في فلسطين وأدرك المماليك ذلك ومن قبلهم الايوبيون والفاطميون وجميع من ملك مصر حتى اصبحت تلك الفرضية العسكرية بديهية سياسية مصر تنجو وتسلم في العمق الشامي الفلسطيني فتحرك الظاهر الى هناك والتقى بالمغول في عين جالوت وهزمهم وانكسرت موجة سيلهم القادمة فاختلفت كل الحسابات السياسية عند الطرفين ، وفي المنطقة باسرها •

تقهقر المغول وانبعث الامل في نفس الشعوب العربية والاسلامية واختلت الحسابات السياسية في مصر لصالح القضية العربية فقد قفز الى السلطة الملك « الظاهر » وتخلص من قطز وقطع الطريق على أي مدع من بقايا الايوبيين ، موطدا حكمه سابغا عليه صفة الشرعية بالدعوة للخلافة العباسية قاطعا بذلك اي بادرة لفتنة تمزق الوطن وتضعفه وهو مهدد من الخارج •

حكم الظاهر بيبرس :

جاءت هزيمة المغـول العسـكرية بحساباتها الجديدة لصـالح القـوى المتصـدية للقـوى المضـادة في الداخـل والخـارج فارتفـع الظاهر بيبرس الى سدة الحكم فكان لوجوده فوق قمة السلطة المصرية والعربية معنى اخر • اوقف الاجتياح المغولي وصفى حسـاب الامـة العربية مع الصليبيين بكل الاساليب الممكنة فاستخدم مع العسكريـة الديبلوماسـية البعيـدة النظـر فصحب الفكر الحربة لاول مرة منذ تعرض الوطن العربي للغزو والاحتلال ، وبعد ان صفى حصونهم المنيعة واسترد مدينة صفد ، وقضى على الحشاشين ووضع حدا لنشاط ملوك الارض في اسيا الصغرى والحق النوبة بمصر عقد معاهـدة مع الامبراطور البيزنطـي ميخائيل بليولوجس حتى يتفرغ للبناء الداخلي فترك من البناء والاعمار ما ترك وما بقي خالدا يحكي عظمة الظاهر حتى أضحى للذهنية الشعبية بطلا اسطوريا ما زال في ذاكرتها له نفس مكان سيف بن ذي يزن وهارون الرشيد وصلاح الدين • •

مات الظاهر فتقلبت السلطة ثم استقرت بيد « قـلاوون » فانتهج في خططه العسكرية نفس نهج الظاهر وتابع دفع المغول عن سوريا كما تعرض للافرنج وراح يستعيد منهم المدن السورية ، وقد بقي الحكم في أيدي الاسرة القلاوونية اربعة اجيال • ثم تولى العرش بالانتخاب من قبل المماليك « الملك الظاهر سيف الدين برقوق » • وكما لاي اسلوب او نظام في الحكم سيئاته ، خاصة اذا استفحلت الامور ولم تجد لها ضابطا يحد من تطاولها ، فهكذا كان لاسلوب الانتخاب من قبل المماليك سيئاته الكثيرة ، فقد جرد السلطان من صلاحياته واحالها الى مجلس الدولة وقوامه زعماء المماليك المقدمون فاضحت قراراته واحكامه خاضعة لتصديقهم فتمكنوا من مقدرات الدولة ، وكـان الاجماع لديهم بمفاهيم عصبية شللية ، فقد عمل كل واحد منهم على توطيـد حكمه وفئته بتعزيزها بعناصر جديدة يشتريها من اسواق النخاسة ، ويدربها وهي ما زالت بعد في سن الاحداث ، وتشب فتعمل في خدمته وتدعم مكانته

فترفعه او تسقطه ، وذهب الجميع يتبارون في ذلك حتى اصبح السلاطين ارقاء والمستشارون هم الحكام يدعم كل واحد منهم وضعه الجديد بفرق عسكرية مجندة توزع على افرادها الاقطاعات لقاء خدماتهم • وأضحت الاقطاعات املاكا خاصة متوارثة ، وهكذا تحولت الديمقراطية الجماعية في الطبقة الحاكمة الى فوضى جماعية ، وتعددت جهات الحكم والسيطرة • اختلط الحابل بالنابل ، وتداخلت السلطات التشريعية والتنفيذية ، وكثرت الجهات التي تشرع وتأمر ، ولكي تتمكن من الاحاطة بواقع ذاك العصر والعلاقة العضوية بينه وبين معطياته الفكرية والثقافية الادبية ومنها السيرة لذا فقد فرضنا على انفسنا الوقوف متحملين عبئه النفسي ليس فقط من ناحية اصفرار الاوراق وانما ما ورد فيها من احداث هزلية مؤلمة ، صبت جميعها في اطار التمزق بكل ابعاده السلبية ضمن ظروف اجتماعية وتاريخية وقومية وثقافية على غاية من التعقيد والاشكال ، عدا الاندفاعات الخارجية للتتار من جهة ، والافرنج من جهة اخرى كلما استأنسوا ضعفا وانهيارا داخليا وهو بيت قصيدنا الان في وقفة الاحاطة هذه •

الصراعات المملوكية :

تولى الولاية بعد موت السلطان الظاهر بيبرس ابنه « الملك السعيد محمد » ففتح عهده بالصراع بين مماليك الظاهرية يتزعمهم الامير « سيف الدين كوندك الظاهري » وبين الخاصكية(*) •

وكان من جراء الانقسام بين الظاهرية والخاصكية ثم الطرف الثالث والذي تزعمه سنقر الاشقر اهتزاز الاوضاع الداخلية وعدم قدرة الملك السعيد على حل الازمة فقرروا خلع الملك وتنصيب اخيه الطفل « بدرالدين سلامش ابن الملك الظاهر » سلطانا على مصر وهو بعد لم يتجاوز السابعة من عمره ، وأوصوا على العرش الامير « سيف‌الدين قلاوون الالفي الصالحي » • وقد حملت النقود فيما بعد اسمه في وجه واسم الملك العادل

(*) المصدر السابق جـ ٧ ص ٢٦٦ •

في الوجه الاخر . واصبح هو المتصرف الفعلي في امور الدولة وجيوشها وخزائنها المالية وخطبت خطبة الجمعة باسم الملك واسمه ، وفي حقيقة الامر لم يبق للسلطان سلامش في السلطنة الا مجرد الاسم ، اما المتحكم الحقيقي فقد استمال امراء المماليك لنفسه حتى اذا حانت الفرصة خلع الامير الصغير وتسلطن عوضه الامير سيف‌الدين قلاوون الالفي الصالحي . وحصلت على عهده تغيرات كثيرة في الوزارات حتى تستتب له الامور . فقد عزل الصاحب برهان‌الدين السنجاري عن‌الوزارة وعين‌بدلا عنه‌فخر‌الدين ابراهيم بن لقمان ، وتولى ديوان الانشاء القاضي فتح‌الدين محمد ابن القاضي بدلا من فخر‌الدين ابراهيم ، وعلى الرغم من التعديلات التي احدثها بغية تجنب وقوع حوادث تمرد ضده فقد تمرد « سنقر الاشقر » واعلن نفسه سلطانا على دمشق ، واستفرد كل امير منهم بما تحت يديه واعلن نفسه ملكا شرعيا عليها فالملك المسعود بالكرك والملك المنصور ناصر‌الدين محمد بحماة والمعرة ، هذا الى جانب بتر الملك المظفر شمس‌الدين اليمن وانفراده بها . كما فعل صاحبا مكة والمدينة وفوق هذا وذاك فقد بقيت الارض المتقطعة من جسم الامبراطورية الاسلامية في يد التتار والروم وهي المنطقة الشاسعة وشملت العراق والجزيرة والموصل وأربل واذربيجان ودياربكر وخلاط وخراسان والعجم ، وتحمل الاحداث التاريخية اخبار اقتتال المماليك ضد بعضهم ومحاولات كل واحد منهم تجاوز الآخر واعتقاده باحقية السلطان والملك دون غيره من المماليك لا لشيء الا لانه مولى فلان من الامراء او مقرب الى السلطان في مصر او الشام وتمتلىء صفحات الكتب فقلاوون انقض على الملك السعيد محمد ابن الظاهر بيبرس والذي كان مولى للايوبيين وحين تولى قلاوون السلطان ولى مماليكه امرة الديار المصرية والشامية الخاضعة لسلطان مصر وولى مملوكه حسام‌الدين طرنطاي ولاية مصر . وقد أثارت سلطة قلاوون سنقر الاشقر فعقد اللواء لنفسه وسمى نفسه الكامل بعد ان دعى امراء المماليك الى الاجتماع واخذ منهم العهد بعد ان ابلغهم بخبر كاذب بوفاة

قلاوون • وقد حبس كل من امتنع عن اعطائه عهد الولاء ، وبعد ان مكن نفسه من السلطة ولى على وزارة الشام محمدالدين اسماعيل بن كسيرات وبدأ يصدر اوامره وكأنه سلطان الشام الحقيقي متجاوزا بذلك سلطة قلاوون التي اصبحت شرعية بعد ان بايعه مماليك وعلماء مصر اثر خلع الملك الصغير سلامش وقد ارسل سنقر الى الافرم بتنحيته عن ولاية غزة وحين رفض الانصياع لاوامره سير اليه رجاله من الموالي والعربان لمقاتلته الا انهم هزموا • وقد حاول بعد ذلك استمالة امراء غزة وحين عرف السلطان قلاوون بتمرد سنقر الاشقر ومقاتلته لمولاه الافرم والي غزة بعث بعساكره الى دمشق لارجاع الاشقر الى الحظيرة القلاوونية ، وقد هزم وتقدمت جيوش السلطان الى دمشق فملكوها وولي ولاية دمشق احد مسجوني الاشقر ويدعى علمالدين سنجر المنصوري •

بقي سنقر الاشقر كما تروي الاحداث يتنقل من ولاية الى اخرى في الشام يطلب الولاء لنفسه • وقد ارهق ولاة المنطقة تجاوز الموالي على كل الحدود ، ولم يكن في الامكان وضع حد لتدخلهم في شؤون الملك ، ولم تبق حدود صلاحياتهم عند التأييد واعطاء الولاء بل لقد تجاوزوا ذلك فنصبوا من ارادوا كما حدث مع خسرو اخي سلامش حين نصبوه على الشام ولقبوه بالمسعود نجمالدين ، ولم يكن سوى مجرد العوبة بايديهم ، فمكنهم ذلك من التمادي في امور الدولة ولم يردعهم رادع ولا خضعوا لرقيب فانفقوا على ملذاتهم كل اموال الدولة حتى نفد ما كان من مال وذخيرة في خزائن الكرك وقد حاصرها الافرم وضيق الخناق عليهم مع عساكر حسامالدين طرنطاي مبعوث السلطان قلاوون وانزلوا المسعود من الولاية بعد ان نصبه الموالي ، واعادوا الكرك الى الدولة المملوكية في مصر ٩٨٥م • تمادى المماليك في طيشهم فبلغ حد الخيانة حين كاتبوا ملك التتار « أبغا » يستحثونه لملك الشام •اما الاشقرفقد ملكحصن صهيونوشيزر واستفحل امره وأحس السلطان قلاوون بخطره فارسل جيشا عظيما لقتاله ، وتقول وقائع الاحداث العسكرية ان الطرفين اشتبكا في قتال عنيف في الجسورة ثبت كل طرف منهما حتى

غدرت جماعة عسكر الاشقر به ، وأنظمت الى عساكر السلطان فاختل التوازن لصالح جيش قلاوون ففر الاشقر الى حصن صهيون وتحصن به وكاد أن يقع في قبضة الجيش المصري ،ألا ان الخطر الخارجي ،والذي كان عاملامساعدا لتوحيد الصف وتناسي الخلافات اطل من جديد يزحف على سوريا يريد رأسها دمشق بعد ان اجتاح حلب ودمرها وتزيد الاحداث الدامية الداخلية من اندفاعه مقدرا وواضعا في حساباته ميل الاشقر اليه لقتال الجيش المصري ولم تر النور تقديراته فساءت النتيجة ، ووقف الاشقر بمجاميعه الى جانب الجيش المصري لرد الاجتياح التتاري المدمر . وما ان تبدد الخطر حتى عادت الفرقة فحسمها الملك قلاوون بعقد صلح مع الاشقر تسلم بعدها الاخير ولاية كفرطاب وانطاكية والسودية وبكاس ودركوش(*) وضياعا اخرى .

ساعد استتباب الامر بعد عقد الصلح على دفع جحافل التتار والحاق الهزيمة بهم رغم ضخامة جيشهم ، وقد استطاع بعد انكسار التتار تصفية حساباته مع الافرنج بعد ان سقط حصن المرقب .

كانت خلافة قلاوون جميعها حروبا خارجية ومعارك داخلية استطاع منها ان يلجم اطماع مواليه ويضع حدا كذلك للاطماع الخارجية الشرقية والغربية مقاتلا أياها بشجاعة نادرة الى ان توفي في ساحة المعركة وهو يستعد لملاقاة الافرنج القادمين من عكا . وقد تداول الحكم من بعده كما يشهد بذلك صاحب كتاب النجوم الزاهرة ابناء من ذريته او من مماليكه او مماليك اولاده وذريته(*) وقد تولاها من بعده مباشرة ابنه الملك الاشرف خليل ،وقد كثر عدد الامراء والمماليك الخارجين على السلطة الشرعية وعلى الرغم من ضربهم بشدة حيث كان يتم اعدامهم خنقا كما حدث لجماعة منهم الامير « ركن الدين طقصو الناصري » و «جرمك الناصري » وبلبان الهارددني . الا ان ذلك لم يشكل رادعا كافيا لبقية الامراء المماليك الذين راحوا يتربصون بالسلطان حتى

(*) المصدر نفسه ج ٧ ص ٣٠١ و ص ٣٢٧ .

حانت لهم الفرصة فامتدت يدهم اليه لتذبحه وتمزقه. مبتدئا بتلك الفعلة الامير «بيدرا» اخذ البيعة لنفسه متلقبا «بالملك الاوحد» . وارتفع الغبار مرة اخرى لترى جماعة من الخاصكية التابعين للسلطات الاشراف على معتلي العرش الجديد الملك الاوحد الذي لم يبت في لقبه الجديد غير ليلة واحدة دفع بعدها رأسه ثمنا لتلك الليلة ورفع رأسه على رمح ساروا به الى القاهرة وطوفوه فيها ، وقابلتهم جماعة اخرى ، وكادت ان تقع بينهم مذابح كثيرة كل جماعة تقتل الاخرى ، والبلاد في كف عفريت بلا سلطان او حاكم يضع حدا للامور المهزلة قبل استفحالها فبويع الامير الصغير « الناصر محمد بن قلاوون » من قبل الامير علم الدين سنجر الشجاعي ثم بقية الامراء المماليك وقد عين ذاك الامير مع وزيرين اخرين نوابا للسلطان الجديد وتقول الاخبار التاريخية ان حريقا عظيما قد شب ، في قلعة الجبل حيث ولد السلطان الجديد ، واتلف الذخائر والنفائس والكتب وغير ذلك اثناء حكم الملك الاشرف . وفي عهد السلطان الناصر كانت تدور معارك الامراء والمماليك وسط شوارع القاهرة ، وتتحزب كل جماعة مع اميرها القوي في الدولة ، كل يحاول ان يبطش بالاخر كما حدث بين جماعة الامير نائب السلطنة « زين الدين كتبغا » ووزير السلطنة ومدبرها واتابك العساكر الامير علم الدين سنجر الشجاعي وتحزبت كل جماعة تحزبا عنصريا مع اميرها فمال التتار والاكراد واخبار الحلقة الى الامير التتري كتبغا والتفت البرجية وبعض الخاصكية الى سنجر الشجاعي . وكان الاخير قد انفق الاموال الطائلة من خزائن الدولة لاستمالة الناس اليه وقد حوصر هو وجماعته في القلعة حتى استسلم بعد معارك دامية بين الطرفين كان السلطان فيها في موقف المتفرج ، وقد جز رأس الشجاعي وحمل على رمح طافوا به في القاهرة ومصر وحملوا على جماعته الخاصكية والبرجية فسجن من سجن وهرب من هرب وصفا الجو السياسي للامير كتبغا . وقد شجعه ذلك على التمادي على السلطان الصغير نفسه فطلب من الخليفة الحاكم بامر الله

أبي العباس والقضاة والامراء والجند خلع السلطان ومبايعته بدلا عنه مستغلا في ذلك حالة الفوضى التي وصلت اليها البلاد ، بعد الخراب الذي قامت به جماعة من مماليك الاشرفية ، حين داهموا بالسلاح اسواق القاهرة واشعلوا الحرائق بباب السعادة بالقاهرة ، وفي نفس اليوم خلع السلطان الصغير الناصر محمد وتسلطن كتبغا وسجن طفل العاشرة في القلعة وقد لقب نفسه بالملك العادل زين‌الدين كتبغا المنصوري ٦٩٤هـ وولي‌امور السلطنة « حسام‌الدين لاجين » .

الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية :

ظلت الانهيارات السياسية تتلاحق وراء بعضها ، وينعكس ذلك على الوضع الاجتماعي فتزداد حياة الناس سوءا وتفاقمت الأزمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، حيث تطالعنا الاخبار على حدوث موجة غلاء فاحشة شملت الديار المصرية والشامية فقد ارتفع سعر اردب القمح ستة اضعاف سعره الاساسي ، ففشا الموت في القاهرة وحسب الاحصاءات الرسمية من ديوان المواريث ان عدد الوفيات لشهر ذي الحجة بلغ سبعة عشر الف وخمسمائة وفاة . هذا عدا حوادث الوفيات من الغرباء والفقراء وهجرت مصر فقد رحل منها كثير من اهلها هربا ، وقد اتسعت الموجة حتى اكل بعضهم الميتة والكلاب من الغلاء .

أما على الصعيد الفكري فمن الملاحظ بعد كل ازمة من هذا النوع تخيم على سماء الاحداث السياسية حكاية اسطورية خرافية يقصد بها امتصاص النقمة الشعبية وتخدير الناس وغرس روح الاتكالية والخنوع والاستسلام للقدر وتسليم أمورهم لولاة الامر المشعوذين والمنحلين ، ومن هم على نفس الشاكلة بصدد سيرتها وتتبع امورها العابثة بالسلطان في الديار المصرية لقد ابتدعت حكاية تقول على لسان شيخ عن اهل دمشق اوردوها على لسان قاضي قرية جبة وسوف نوردها كما وردت انه تكلم ثور بقرية من قرى جبة وملخصها : ان الثور خرج مع صبي يشرب ماء من هناك فلما فرغ

حمد الله تعالى فتعجب الصبي وحكى لسيده مالك الصور فشك في قوله وحضر في اليوم الثاني بنفسه فلما شرب الثور حمد الله تعالى ثم في اليوم الثالث حضر جماعة وسمعوه يحمد الله تعالى ، فكلمه بعضهم فقال الثور : ان الله كان كتب على الامة سبع سنين حربا ولكن شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم ابدلها بالخصب وذكر اي الثور ـ ان النبي امره بتبليغ ذلك ، وقال الثور ـ في حواره مع الرسول ـ يا رسول الله ما علاقة صدقي عندهم ؟ قال اي الرسول : ان يموت عقب الاخبار • قال الحاكي لذلك : ثم تقدم الثور على مكان عال فسقط ميتا ، فاخذ الناس من شعره للتبرك وكفن ودفن انتهى •

تلك اذن وضعية الناس الذهنية حكاما ومحكومين بقيت الحيوانات تستقرىء لهم الاحداث القادمة وتخبرهم وتبرر لهم ما هو قائم من جور وظلم وطغيان بعد ان شاهد المماليك كتبغا التتاري يقفز على العرش المصري وبعد ان ابيحت حرمة السلطة وقفز عليها ، كل كبير جماعة من الجند يملك الشجاعة او حتى الهوس الذي يوصله الى السلطة تطاول الجميع وطمعت فيها كل جماعة واغرى زعيمها او اغراها بمناسب عطايا مالية لتؤازره كما فعل الامير نائب السلطنة « حسام الدين لاجين المنصوري » فقد اتفق مع الامراء على الوثوب على السلطان كتبغا ، وقد سبق وان اغراه بانتزاع الملك من السلطان الصغير محمد قلاوون مخططا للانقضاض على كتبغا بعد احراقه والدفع به لمناجزة آل قلاوون •

بدأ يقص اجنحة السلطان فقبض على الاميرين « بتخاص » و « بكتوت الازرق » و قتلهما في الحال ثم قصد السلطان المنهار والذي ما ان عرف بمقاصد الامير حتى استسلم ، وقد بلغ الانهيار السياسي حد القرصنة والتسلطن في الطريق وذلك ما فعله الامير حسام الدين • وفي الطريق تلقب بلقب الملك المنصور حسام الدين وتوجه الى الديار المصرية مع جماعة من الامراء ومملوكها ، وتم امرهم بسهولة ويسر وخطب لهم فيها ، وقد عود المماليك

الناس على الخنوع فصفقت الشام وقدمت مدينة صفد ونابلس والكرك مراسيم الطاعة وتسابق الامراء لذلك ، وانتصب المؤذنون يبشرون باسمه بعد ان توجسوا منه شرا ، وهكذا تم انتقال الملك من يد الساطي المستضعف الاول الى يد الساطي الباطش • فقد اضحى الوضع السياسي متهرئا يتسلطن مولى ، وتصبح له حاشية ومماليك ، ثم يخلع ليصير من جملة نواب سلطان مسبق وان كان في حاشيته • حتى اصاب الناس الهم والقلق • وسقطت هيبة الملك • ويأتي اصرارنا على متابعة اخبار الانهيار السياسي لنضع ملامح الصورة امام القاري العربي لنرى مدى انعكاساتها على الاصعدة الاخرى ومن جهة تتبين الواقع الذي افرز ذلك النوع من الثقافة والادب ، ومنها السيرة التي نحن بصددها •

تقول الاخبار التاريخية ، ان امراء المماليك رفضوا مبايعة لاجين الا بعدد من الشروط التي تخدم مصالحهم الطبقية والسلطوية فتم تقسيم المراكز والوظائف الوزارية بينهم ثم بعد ذلك سمى له بالتسلطن وجرت له مراسيم الاحتفالات وانفق على ذلك اموالا طائلة وقد تحكم بالسلطان مملوكه الصبي « منكوتمر » فاستبد بوظائف الملك ومهماته • مما اثار الناس فتنقموا على السلطان وتحينوا الفرصة للتخلص من حكمه • كان هذا في الداخل أما خطر الخارج فقد بقي التتار محاصرين للارض الشامية وقد دفعت حالة الفوضى في الداخل جماعة امراء المماليك وعلى رأسهم « فيجق » الى الخروج واللحاق بملك التتار غازان ، وقد فرح الملك التتاري بذلك لما فيه من عواقب وتأثيرات نفسية ومعنوية على أهل الشام ومصر •

العهد القلاووني :

بقي امراء المماليك يتحينون فرصة البطش بالملك بعد ان نسف الشروط المتفق عليها معهم قبل سلطنته ، واعادة ترتيب المناصب الوزارية للمقربين اليه ، وعلى رأسهم غلامه الصغير منكوتمر ، الذي استغل منصبه وبدأ في تصفية نفوذهم في السلطة ، وحين احسوا بالخطر يداهمهم اتفقوا على

قتل السلطان لاجين ومملوكه الصبي ، واعادة السلطنة الى الملك الناصر محمد بن قلاوون • واقدموا على ذبحه قبل طلوع فجر الجمعة الحادي عشر من شهر ربيع الاخر ٦٩٨هـ ، وجيء بالملك الناصر من الكرك الى الديار المصرية • كان لاجين قد اعان الامير بيدرا على قتل الملك الاشرف خليل بن قلاوون فكانت الوقعة بداية مخططة لاستسلام السلطان الذي طمحت اليه نفسه ، وحين تسلطن لم يستطع الاحتفاظ بالسلطان سوى سنتين وثلاثة شهور •

بعد مقتل لاجين عاد السلطان محمد بن قلاوون الى مصر ، واعاد الخليفة الحاكم بأمر الله أبو العباس احمد والقضاة والامراء والجند مبايعته للسلطة الثانية ، وهو بعد لم يتجاوز الرابعة عشر من عمره ، وخلع على الامير « سيف الدين سلور » نيابة السلطنة أي وصي العرش • ولم يستقر السلطان على عرشه حتى وصلت اخبار تحركات التتار وتوجههم الى الشام اثر هروب جماعة الامراء المماليك برئاسة « قبجق » • واضطربت الاحوال في البلاد الشامية ، ولم يهدأ روعهم الا حين رأوا مطالع الجيش السلطاني قادمة من الديار المصرية ، وفي تلك المعركة انكسر اهل الشام ومصر امام جيوش التتار ، فقد سبقت الهزيمة العسكرية انهيار معنوي كان وراءه العديد من الاسباب ، ليس فقط همجية التتار وبربريتهم ، بل الشتات السياسي الذي ساد اوساط الامراء والمماليك ، والتمزقات الداخلية ، وفقدان الثقة بالحاكم وعدم الاهتمام بشؤون الرعية وترك امورهم سائبة ، وعدم التنظيم والتعبئة النفسية المسبقة ، ثم فوق هذا وذاك خروج الامراء الى الملك التتاري ، وشكهم في خروج سلطان مصر اليهم ، والاخطاء التي ارتكبت اثناء القتال ، وفي وصف الحالة بعد المعركة قيل كان اكبر الامراء يرى وحده ، وقد عجز عن الهرب ليس معه من يقوم بخدمته وهو مسرع في السير متوجه الى جهة الكسوة لا يلوى على احد قد دخل قلوبهم الرعب والخوف ، تشتمهم العامة وتوبخهم بسبب الهزيمة من التتار وكونهم كانوا قبل ذلك يحكمون في الناس ويتعاظمون عليهم • وقد صار احدهم الان أضعف من الهزيل وأمعن العامة في ذلك وهم لا يلتفتون الى قولهم ، ولا ينتقمون من احد منهم •

تلك اذن صورة حية تمثل واقع حال الامراء المماليك ، وما كان لذلك من تأثير على العامة فوقعوا في شرك الذل والهوان وما ان دخل غازان حتى خطب له يوم الجمعة بخوف ودجل وقد شجعته تلك الوضعية على ان يضع يده على اموال الناس فجمع كما يقول صاحب النجوم الزاهرة على لسان ابن المنجا ان الذي حمل الى خزانة غازان خاصة نفسه ثلاثة الاف الف وستمائة الف سوى ما حقّ عليهم من التراسيم والبراطيل والاستخراج لغيره من الامراء والوزراء وغير ذلك ، بحيث ان الصفي السنجاري استخرج لنفسه اكثر من ثمانين الف درهم ، وللامير اسماعيل مائتي الف درهم ، للوزير نحو اربعمائة الف وقس على هذا(*) . ذلك حال اهل دمشق بعد الحرب ، نهب لاموالهم وممتلكاتهم وسبى لنسائهم بعد ان كسر جيشهم وقتل اكثر صغرهم ورجالهم . وقد ورد وصف لحال الجنود بعد المعركة وعجز اكثر الامراء والجند عن التوجه الى جهة مصر خلف السلطان بسبب ضعف فرسه ، فصار الجندي يغير زيه حتى يقيم بدمشق خفية من توبيخ العامة له ، حتى أن بعضهم حلق شعره وصار بغير دبوقه(**) .

اما وضع العساكر المصرية فلم تكن باحسن من حال العساكر الشامية فقد ساروا وراء الملك الناصر محمد يجرون أذيال الهزيمة واكثرهم عراة مشاة ضعفاء ، وذلك الذي اوجب تأخرهم عن الدخول مع السلطان الى مصر ، واقاموا بعد ذلك شهرا حتى استقام امرهم ، ولولا حصول البركة بالديار المصرية وعظمها ما وسعت مثل هذه الخلائق والجيوش(***) كانت الهزيمة اكبر هزيمة في ذلك العصر فمن المسؤول عنها ومن المتسبب في حدوثها ؟ اسئلة يجيب عليها سردنا التاريخي لواقع الحياة السياسية المتسببة للانكسارات العسكرية والانهيار الاقتصادي والتدهور الاجتماعي الاخلاقي والمعيشي .

(*) المصدر السابق جـ ٨ ص ١٢٤ .

(**) المصدر نفسه جـ ٨ ص ١٢٧ و ص ١٢٨ .

(***) المصدر نفسه جـ ٨ ص ١٣٢ .

بقي زمام المبادرة والمباغتة في يد التتار في ظل التدهور السياسي وغياب السلطة القومية القادرة على الحركة والردع ، وبقي الناس في حالة خوف وذعر خاصة عندما كانت تتوارد اليهم اخبار تفيد ان غازان يجمع الجموع ليسير هذه المرة الى مصر ، ووجد اهل الشام انفسهم في حالة من الضياع فالعدو امامهم يزحف عليهم ، ولا من يحشد طاقاتهم وينظمها لمواجهة الخطر الداهم فتفرقوا في السواحل وقصدوا الحصون وتشتت غالب اهل الشام الى البلاد من الفرات الى غزة ، وخلت دمشق ووصل الانهيار المعنوي عند امراء المماليك حدا بلغ فيه مداه حين خرج والي دمشق وحاول فرض حالته المنهارة على العامة فاخذ يجفل الناس بنفسه . وصار يمر بالاسواق ويقول : في أي شيء انتم قعود وبدل من ان يعمل على تثبيت عزائم الناس اخرج المنادين لينادوا بأهل دمشق من قعد قدمه في رقبته ، ومن لم يقدر على السفر فليطلع الى القلعة وتقول الاخبار انه سافر ذلك اليوم معظم الناس .

اما اخبار مصر الداخلية فتقول انه تم تنصيب خليفة جديد « ابي الربيع سليمان » وقد نعت « بالمستكفي » ، وقد نصبه السلطان محمد وعمد التنصيب قاضي قضاة الديار المصرية . وفي ظل انشغال الحكام بانفسهم انفرطت امور الداخل ، وتمكن عربان الوجه القبلي من الطرق التجارية وتحكموا فيها وفرضوا على التجار جبايات وفرائض فجهزت عليهم حملة كبيرة لتأديبهم ، وما ان انتهى القتال معهم حتى توجه لقمع تطاول المتعاونين مع غازان التتاري ، فارسل عساكره الى حماه لكسر شوكة المتعاونين مع التتار قبل دخول الحرب ضد غازان ، كما اتخذت تدابير أخرى صارمة لوقف التخاذل وقطع الطريق امام الهاربين .

تولى السلطان الناصر محمد بن قلاوون السلطنة في المرة الثالثة اثر انهيار السلطان المظفر بيبرس ، وقد اعلن موقفه هذا في رسالة بعث بها الى السلطان الناصر وطلب منه امرة الكرك وطمأنه الناصر لذلك ، وحين تمكن من السلطة اماته خنقا ، واجرى تعديلات في السلطة كبيرة تخلص فيها من منافسيه والذين

توخى منهم المشاكل والمصاعب ، فقضى على الامير او نائب السلطنة السابق واحد الاوصياء عليه في سلطنته الثانية « سالار » وصادر امواله الكثيرة ، كما افرج عن المعتقلين السياسيين في ايام تسلطن المظفر بيبرس ، واجرى تبديلات في القضاء وضرب على المعارضة بشدة وقسوة خاصة بعد ان عرف بمؤامرة تحاك منهم ضده ، وتوجه الى التتار مما اشعره ببقاء الخطر الحقيقي على الابواب فجهز جيوشه ، وحين وصلت اخبار التجهيزات الى التتار شدوا الرحال متوجهين هذه المرة الى بلادهم تاركين الارض العربية بعد حروب طويلة ودامية .

وعلى الرغم من قسوة السلطان في معاملة المتآمرين عليه . الا ان المؤامرات بقيت تحاك في الظلام تباعا . قبل ان يتمكن من السلطان . ففي ٧١٥هـ حاول الامير « بكتمر وطناي » ونائب طرابلس الامير « تمر الساقي » الفتك بالسلطان الا ان المحاولة باءت بالفشل وتمكن بعدها السلطان من تثبيت نفسه في السلطة . فاستقرت الاوضاع السياسية لاول مرة بعد اضطرابات طويلة في الداخل وحروب دامية مع العدو الخارجي .

توجه السلطان الناصر لاصلاح الاوضاع الداخلية مبتدئا برفع ظلم الامراء السابقين على الجماهير الفقيرة فخفض سعر القمح حتى اصبح الاردب بدرهمين ونصف ، والاردب الملح بثلاثة دراهم ، وابطل السمسرة والتلاعب به ورفع الضريبة المفروضة على الدواب والفراريج ، والغى ما كان يدفع على الاقصاب والمعاصر ، وابطل جباية المراكب ، وما كان مفروضا على الاسواق والسجون ، وما يؤخذ من رسوم من الافراح او بيوت البغاء وغيره من الضرائب ، ليس فقط داخل مصر بل وفي سائر مدن وقرى السلطنة ، وكان لاجراءاته صدى عظيم في الداخل والخارج ، فهابته ملوك الافرنج والتتار وارسلوا في طلب الصلح معه . وضمن سلسلة الاجراءات الداخلية قام السلطان بارتجاع كل اراضي المماليك واموالهم الى خزائن الدولة وقرر لهم رواتب شهرية محدودة . اما على صعيد البناء الداخلي والاعمار فسوف

نأتي على ذكر ذلك مراعين التسلسل الزمني في احداث الفترة . هذا وقد قام السلطان بتوسيع طريق عقبة ايلات لمرور الحجيج منه الى مكة .

ما ان بدأت الاصلاحات الداخلية تعطي ثمارها حتى أصيبت القاهرة بنكسة فقد استعرت الاحقاد الطائفية ، وكانت تعمل عملها في الخفاء حتى اليوم الخامس عشر من جمادى الاولى ٧٢١هـ فشب حريق في القاهرة مبتدئا سلسلة الحرائق ، والتي تصفها الكتب التاريخية بأنها خرجت عن القدرة البشرية « فأكلت الدور والنخيل ، وامتدت الى المراكب وخرجت الناس من دورهم ، وتعلقوا بالمآذن حتى خيل لهم ان القيامة قد قامت فما ان يطفأ حريق حتى يشب آخر وشمل المساجد والجوامع »(*) . وجاء ذلك كرد فعل على الفعلة التي حدثت من قبل بتهديم الكنائس وقد عالجها السلطان بحكمة وتعقل مع بطريرك الاقباط في مصر . وضرب بيد من حديد على مشعلي الفتنة الطائفية فأخمد اوارها قبل استفحالها .

يطول بنا الحديث ان قمنا بسرد تاريخي لسلسلة اعماله التي قام بها اثناء حكمه وسلطنته الثالثة والتي استمرت ثلاثين سنة ، ويكفي ان نشير الى ان الارض المصرية والشامية شهدت سلسلة من البناء والتعمير شمل دور العبادة والمدارس والقناطر والجسور ، وعمر كذلك الاراضي الصحراوية التي تقع بين المدن والقرى القريبة من بعض ، وزرعت اراض شاسعة وقامت البساتين الجميلة وبنى العديد من القصور وانشأ الميادين الكبيرة وعلى أيامه زادت الديار المصرية مقدار النصف وكانت نتيجة الاجراءات ارتفاع سعر العملة فقد اصبح الدينار بخمسة وعشرين درهما بعد أن كان بعشرين درهما . وقد بقيت سلطنته الثالثة حتى ٧٤١هـ ، وفيها شهدت العلاقات اليمنية المصرية تحسناً كبيرا وازدادت ارتباطات اليمن بمصر .

ومن المآخذ التي عليه ، استبداده بأمور المملكة وتفرده بالحكم حتى انه أبطل نيابة السلطنة من الديار المصرية ليستقل هو بأعباء الدولة وحده ،

(*) راجع النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٦٣ الى ص ٧٣ .

فلا يستشير ولاينتصح أي ان نظام الدولة في عهده قام على دكتاتورية الفرد المطلقة • فماذا كان بعد الدكتاتورية المطلقة مع اوضاع حكم ؟ للاجابة على هذا السؤال نستمر في استطرادنا التاريخي •

انهيار السلطة في مصر :

انهارت الاوضاع بالكامل بعد وفاة الناصر محمد ، وعلى أثر تولية ابنه السلطان المنصور أبي بكر مقاليد السلطنة المملوكية ، وتولى نيابة السلطنة « الامير سيف‌الدين طقزدمر الحموي » كما اتفق الامراء على أن يكون ولي العرش ومدبر المملكة « قوصون الناصري » ويشاركه في الرأي « الامير بشتك الناصري » ، وعلى عهده الذي لم يستمر سوى تسعة وخمسين يوما دخل المماليك في صراعات طويلة افتتحها « قوصون » و « بشتك » بخلافاتهما حول الشام وكان من جرائه تجريد بشتك من جميع صلاحياته وأملاكه ، وقد وجد المماليك ومماليكهم في الاجواء السياسية المشجعة الفرصة مناسبة في تحقيق اهوائهم وأطماعهم السلطوية ، والامير غارق في اللهو والمجون •

في تلك الايام القليلة التي حكم فيها وقد ساعدت حالته على اسقاطه من العرش السلطاني اثر تحرك اربعمائة مملوك الى باب القلعة ليطلبوا منه ان يترك السلطنة للامير قوصون ، وقد اخرج السلطان المنصور واخوته وأهله من القلعة الى قوص منفيين ، وما هي الا فترة وجيزة حتى سقط الشاب قتيلا بتدبير من قوصون ، ليخلو له الجو السياسي فأصبح هو المتنفذ في أمور الدولة ، وليصبغ نفوذه بالشرعية فقد سلطن الطفل الملك « الاشرف علاء الدين كجك » وهو بعد دون السبع سنين •

بدأ قوصون يتصرف في أمور الدولة كما يحلو له فأنعم على أحد وعشرين مملوكا من المماليك السلطانية بأمريات ، وحين شعر مماليك الامراء بانهيار الدولة بدأوا حركة تمرد وعصيان على الاوامر السلطانية فرفضوا طلب قوصون بارسال اربعة مماليك اليه ليقيم معهم علاقات مريضة وشاذة كانت تحدث بين المماليك ومماليكهم مما أضعف هيبة السلطان والامراء وجعل

مماليكهم يتطاولون عليهم ، وقد نشبت من جراء ذلك مشادة حامية تدخل فيها امراء كبار ، استنزفت المشادات والخلافات الشخصية جهد الامراء خاصة حين كان نطاق الخلافات يتسع كثيرا كما حدث في المشادة اياها ، وقد تدخلت فيها العامة لتسفر عن نتائج وخيمة سقط على اثرها ثمانية وخمسون رجلا •

كانت فترة حكم قوصون اضطرابات وقلاقل داخلية ، فما ان ينتهي من مشكلة حتى يجد نفسه في خيوط الاخرى فقد بدأ تمرد النواب ومخالفتهم للاوامر بعد تمرد المماليك فخرج عنه نائب حلب « طشتمر » ، ثم أمير « اخور ايدغمش » ثم امتنعت عنه مدينة الكرك ، ولم يجد في نفسه وسيلة لمعالجة المشاكل السياسية غير القتل والاغتيال ، فأقدم على قتل جميع معارضيه بطريقة جبانة لجأ فيها الى السم والقتل السري ، كما فعل مع الملك « المنصور أبى بكر » ومع « الامير بشتك الناصري » • كما فرق اقطاعات الامراء المتعاطفين مع « قطلوبغا الفخري » • وباع كل أمير ممتلكات الامراء الاخرين ، كما فعل أحد موالي « قوصون » بممتلكات « طشتمر » ، ولم تستمر حال ولي العرش قوصون كما هي ، فقد انقلبت عليه الامراء وحرضوا العامة ، فحاصروه بقلعة الجبل ونهبوا ممتلكاته وكل أمواله حتى ثياب اولاده ونسائه وكل ما في قصوره ومنازله ، وحين وجد نفسه معزولا مجردا ضعيفا سلم نفسه فوضع القيد في يده وسيق الى البرج الذي سجن فيه الامير بشتك وسارت جماعة من امراء المماليك الى السلطان « الناصر احمد بن محمد » في الكرك لتسلطنه بدل اخيه الاشرف علاء الدين كجك ، والذي بقي في السلطة خمسة اشهر وبضعة ايام ، وقد عاد الى كنف والدته فعاشت واياه في الدور السلطانية عيشة ذل واحتقار وهوان ، ولم تكتف الاسرة الحاكمة بهذا الحد من الحقد على بعضها بل قامت بأعمال في منتهى الاجرام والحقد يحركها في ذلك شهوة الحكم وجبروته وأحقاده فقد دسوا له السم فقتلوه « وله من العمر اثنتا عشرة سنة »(*) • مقدرين بعملهم الاجرامي ذاك قطع الطريق نهائيا أمام عودته للسلطنة او عودة نفوذ المحركين له من الامراء •

(*) المصدر السابق جـ١٠ ص ٤٩ •

هكذا بقيت الحوادث في العهد المملوكي تتحرك تباعا ، مؤامرات مستمرة واحقادا لا تنتهي بين افراد الطبقة الحاكمة ، تحركها المصالح السلطوية الضيقة والانية والمحدودة النفع حتى لنفسها •

صرفت أموال الدولة على العامة ونثر كل أمير ما كان تحت يديه من أموال وممتلكات الدولة للجماعة التي تؤيده وتنادي به ، وأصبحت عملية التأييد للارتزاق تطلبها العامة وتطالب بها بألحاح ، كما حدث حين تصايحت جمهرة منهم تطالب بالامير « ان غمش » الذي سجنه قوصون في البرج فوزعت عليها الرواتب والهبات ، تشققت الاسرة المالكة بتلك الحوادث فزوجة ملكتمر الحجازي وأختها زوجة بشتك فرحتان بخروج « ملكتمر » من سجنه شامتتان بقوصون ، وبجانبهما اختهما زوجة قوصون تبكي وتنتحب على زوجها ومعها أخوات وبنات الملك الناصر محمد بن قلاوون كل ذلك كان في يوم تنصيب السلطان الناصر أحمد ، وقد عكس ذاك التمزق الذي أصاب الاسرة السلطانية نفسه على الامراء ، فلم تعد بينهم لغة غير لغة الضرب والقتال ، كما حدث بين الامير « يبلغا الحياوي » و « كلكتمر الحجازي » حين تحول الكلام الى خصام وانقسم الامراء الى طائفتين ، ولبسوا آلة الحرب وواجهت كل جماعة الاخرى وأيديها الى قبضة سيوفها • استعدت العامة بدورها وتجمعت تحت القلعة لنهب بيوت من عساه ينكسر من الامراء •

ان ظروف البنية الفوقية لذاك المجتمع قد عكست نفسها بصورة حادة على الجماهير الشعبية التي لم تجد في ظل التناحرات السلطوية من يهتم بها • فأكملت مشوار التخريب الداخلي بحسب التوجيهات الصادرة اليها من هذا الامير ضد ذاك ، وقد وجهت هذه المرة الى ممتلكات الامير جركتمر وأحالت مرابعه العامرة الى كومة تراب ، كما قاموا بتحريض من الامير « رمضان » ابن الملك الناصر بنهب منزل والي القاهرة « جمال‌الدين يوسف » واشتبكوا مع أهله وأخوته بالسلاح واشتبكت الجماعتان في قتال مرير سقط فيها وجرح الكثيرون •

وصل الانهيار في داخل قصورهم قمته حين شجع الامراء طباخيهم على بعض فقد ضرب طباخو السلطان قاضي قضاة الديار المصرية « حسام الدين الغوري الحنفي » وفرقوا ثيابه وأحرقوا عمامته في حلقة • أما زوجات الفخري نائب دمشق فقد تعرضن لكل انواع الاهانة وبولغ في الاساءة اليهن • فقد شمل سوء الاوضاع السياسية ضمن من شمل الاطفال والنساء ، وانهارت الاخلاق والقيم الاجتماعية والانسانية فديست المقدسات وانتهكت الاعراض وجرت الامور اللااخلاقية واللاانسانية بين صفوف الاسرة الحاكمة ، ولنا ان نقيس عليها الاستبداد والظلم والعبث بالجماهير الشعبية بوضعها الاجتماعي وحياتها المعيشية واخلاقياتها الاجتماعية والانسانية •

لم يكن للسلطان من هم سوى اللعب واللهو بعد ان أهمل كل أمور الدولة ناهيك عن الوضع الاجتماعي البائس فقد احتجب عن الناس وترك مصر وتوجه الى الكرك ليعيش مع بطانته وشق على الجميع غيبته ولننقل على لسان شهود عيان الحالة المهترئة في أيام السلطان الناصر أحمد « وأما في الديار المصرية فانه شق عليهم غيبة السلطان منها ، واضطربت أحوال القاهرة وصارت غوغاء ، وصار عند أكابر الامراء تشويش كثير لما بلغهم من مصاب حريم الامير قطلوبغا الفخري • وبقي الامير امدسنقر السلاري في تخوف عظيم فانه بلغه بأن جماعة من المماليك الذين قبض على استاذهم باطنوا بعض الامراء على الركوب عليه ، فترك امدسنقر الركوب في أيام المواكب أياما حتى اجتمع الامراء عنده وحلفوا له • ثم اتفق رأي الامراء على ان كتبوا للسلطان الملك الناصر احمد كتابا في خامس محرم سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة بأن الامور واقفة نصيبه السلطان وقد نافق غالب عربان الصعيد وغيره وطمع أرباب الفساد ، وخفيت السبل وفسدت الاحوال ، وسألوا حضوره الى الديار المصرية وأرسلوا الكتاب على يد الامير طقتمر الصلاحي فتوجه طقتمر اليه ، ثم عاد الى الديار المصرية بجوابه في حادي عشر • بانني قاعد في أي موضع اشتهي ، وأي وقت اردت حضرت اليكم • وذكر طقتمر ان السلطان

لم يمكنه الاجتماع به ، وانه لعبث من اخذ منه الكتاب ، ثم ارسل اليه الجواب »(*) . ذلك اذن واقع الحال . اهمال وعبث لا حدود له والتهاء بالمغامرات الشخصية ، التي اضرت بالمصلحة العامة وخلخلت اركان الدولة ، فانتشر الفساد في كل مرافق الحياة وبكل الاشكال والصور وبدأ المماليك يحفرون قبر ملكهم بأيديهم .

كانت الثلاثة اشهر التي تسلطن فيها السلطان الناصر أحمد بداية الانهيار لدولة المماليك ، فقد تتابعت الاحداث فيها وبعدها بصورة سريعة وقوية منحدرة بالدولة الى الهاوية ، فقد سقط سعر العملة حتى ساوى الدينار خمسة دراهم ، بعد ان انفقت الاموال الطائلة على المعارك الجانبية الناشبة بين الامراء من جهة والسلطان الناصر ومؤيديه واتباعه من جهة ثانية ، وانتهت بالقبض عليه ثم قتله وجز رأسه ، وتسلطن الملك « السلطان الصالح اسماعيل بن السلطان الناصر محمد » . وقد بايعه الامراء هذه المرة لاستقامته وتدينه بحسب فهم ذهنية العصور الوسطى ، فقد كان يشغل اوقاته بالصلاة وقراءة القرآن وقد قام بتعديلات وزارية كبيرة في محاولة لتطهير الوزارات من انصار أخيه السلطان السابق أحمد . الا ان ذلك لم يوقف الانهيار المستمر في دولة المماليك فلم يكن العلاج في تغيير شخص السلطان ، واستبدال اخلاقيات فردية من نوع معين مطلوب بدل اخلاقيات السلطانين العابثين .

استمرت الانشقاقات في الاسرة خاصة بعد خروج الامير « رمضان » اخي السلطان ومحاولة تنصيب نفسه سلطانا بدل أخيه واثناء مرضه ، جمع رمضان جمعاً كثيراً من أجناد الحسينية ومن مماليك تكا والعامة في القلعة . الا انهم ما لبثوا ان استسلموا ولم يعالج السلطان الموقف بحزم ، كما لم يفعل بحزم مع أخيه السلطان احمد وقد ظل يرسل اليه التجريدات الواحدة بعد الاخرى حتى وصل عددها الثمانية والسلطان المخلوع متشبث بقلعة الكرك .

---

* المصدر نفسه جـ١٠ ص ٦٩ .

جاء السلطان بنواب على نفس اخلاقياته المترددة ، جسد الاخلاقيات المترددة الامير ان سنقر الذي لم يكن يرد قاصدا كما كان يوزع للناس اقطاعيات غيرهم دون الانضباط لابسط قواعد التشريع او تحكيم العقل والمنطق ، مما أفسد الاحوال وخلق الفوضى الداخلية ونشرها ، ولم يمتثل لاوامر أحد وكان جوابه الدائم : « كل من طلب مني شيئا اعطيته ، وما ارد قلمي على أحد »(*) • واصطدم الامراء ذوو العقلية السلطانية المترددة ببقية الامراء حول الاخلاقيات العامة واشتبكوا ضد بعضهم ، كل يحاول ان يجرح ويهين الطرف الاخر ، ولم يستطع السلطان ان يضع حدا للمشاكل الجديدة التي برزت بعد توليه السلطة ، وقد شجع ذلك المماليك والطواشي فتطاولوا على الدولة ، وعارضوا النواب في امور كثيرة حتى صار النائب يقول لمن يسأله شيئا : « روح الى الطواشي فلان فينقضي شغلك وأصبحت الوظائف والاقطاعات والارزاق لاتقضى الا بالخدام والنساء(*) • وفعل الطواشي كما فعل أمراؤهم فاغتصبوا اموال الناس وأرزاقهم ، ونهبوا الدولة واموالها ، حتى لم يجد السلطان في بيت المال مايعينه في الحملة التي أرسلها الى السلطان المخلوع الناصر أحمد ، وعلى أيامه استدانت الدولة من التجار والعجم ومن بنت الامير بكتمر الساقي ، وهبطت ميزانية الدولة وقل دخلها وارتفع خرجها ومصروفاتها ، توفي السلطان الصالح في ليلة الخميس رابع شهر ربيع آخر سنة ست وأربعين وسبعمائة ، وتسلطن اخوه شعبان •

بدأ السلطان الكامل بسلسلة تغيرات وزارية جرت العادة في ظل اضطراب الاوضاع ان تحدث كلما تغير سلطان او استبدل ، أن ينعم على الموالين بالوزارات والمناصب ، وقد استهل السلطان حكمه بالانعام على ستين مملوكا •

أصبحت المسؤولية في العصر المملوكي انعامات وهبات وعطايا تقاسمها الامراء الجانحون الى هذا الطرف او ذاك ، ووجد اميلا بيفرا حصته ككبير

(*) المصدر نفسه جـ١٠ ص ٧٠ ، ٩٠ ، ٩٧ •

الحجاب ورميت امرة مكة للشريف « عجلان الحسني » وتلقى الأمير « ملكتمر السرجاواني » نيابة الكرك واعطيت نيابة الشام لنائب السلطة الامير « الحاج ال ملك » وفرح الامير « اسندمر العمري » بهبة طرابلس المنتزعة من الامير « قماري » وقد بعث بالبريد من الشام الى مصر ، اما حماه فقد اعطيت للامير « ارسلان » وكانت من سابق « بيرار قطامي » الذي أعطي اقطاع « جنكالي بن البابا » ، وعبثت نيابة بغداد الشاغرة منذ مدة من الزمن « بالمير نجم الدين محمود » ، وعدا انعامات النيابات والوزارات والوظائف فقدصرف السلطان من ميزانية الدولة هبات وعطايا كثيرة من الصعب ان نفتح سجلها ، ويكفي ان نشير الى انه خصص لكل أمير عاطل عن العمل ليس له من هم سوى اللعب مع السلطان مبلغ الفين الى ثلاثة الاف درهم وهي مبالغ هائلة في ذلك الزمان ، وانشغل السلطان عن امور الدولة بأموره الشخصية العابثة مع الامراء وكثر شرب الخمر وغرقوا في القمار ، واعتدوا على اخلاقيات الناس وهتكوا القيم ، في استخفاف بأرواح مواطنيه فأعلن احكام الشنق لاتفه الامور والقضايا الشخصية ، وتمادى السلطان في بطشه فشنق كل من يقول عنه « ارغون الصغير » ، واقتدى به الامراء والمماليك وتسلط عبيد « الطواشية » على الناس ، وصاروا كل يوم يقفون للضرب فتسفك الدماء الكثيرة واعتدوا على اموال الناس وأعراضهم فكانت الحوانيت تنهب بين الحين والاخر وكثرت الوشايات بالناس وارتفعت الضـــرائب واثقلت كاهل العامة وشملت نواحي عديدة لتصل الى الدواب والزرع وابتدع السلطان بدعة مست اعراف الناس واخلاقهم في تلك الفترة فقد كان السـلطان يشارك مملوكه في زوجته ويعقد عليها معه ، اي انه مارس الزواج الجمعي والمشاركة في المرأة .

وانتزع اقطاعيات الامراء المناوئين له واعتمد القتل والتقتيل اسلوبا يمكن بواسطته الحصول على الاموال اللازمة للمصروفات السلطانية ، وفي أيامه قتل كثير من الامراء فقد ذبح « نجم الدين محمود » « والامير بيدمر البدري » نائب حلب والامير « طغيتمر النجمي » بعد ان أخذت أموالهم

في غزة ، كما قتل مجموعة من الامراء المسجونين بالاسكندرية ، واستمر القتل في كبار الامراء حتى وصل الدور الى وصي ومدبر المملكة وأقرب الناس اليه الامير « شجاع الدين غرلو » ثم راح يحيك المؤامرات لقتل أخيه حسين .

خاف الأمراء على حياتهم بعد ان هدد بذبحهم كالحمام فاجتمعوا عليه وتولى قيادتهم « الجيبغا » وهو احد مماليكه ، وارسلو اليه بتحذيرهم « واعلمنا فساد نيتك لنا وقد قتلت كذا واخذت اموالهم ، وهتكت حريمهم بغير موجب ، وعزمت على الفتك بمن بقى(*) ثم طلبوا منه التنازل عن السلطنة او مقاتلته . وقد كانت نتيجة جبروته ودمويته ذبحه كالنعاج بعد حكم دام سنة واحدة وثلاثة أشهر .

واختلفت المماليك والامراء حول السلطان الجديد فاختار المماليك لعبتهم حسينا واختار الأمراء دميتهم السلطان « الناصر حسن » ، ورجحت كفة الامراء وتسلطن طفل في الحادية عشرة من عمره فكيف كان واقع الحال على أيامه ؟

دبر الدولة على أيامه تسعة من الامراء اتفقوا على تخفيف الكلف السلطانية اي مصروفات الاسرة المالكة وتقليل النفقات الوزارية في محاولة لوقف التدهور المالي ، وضج الناس بتصرفاته ، وعدوا عمله أبشع ما مارسه سلطان في حكمه وقلده في اخلاقياته امراؤه ومماليكه وجواريه وتفننوا في ايذاء الناس تحت شعار سلطانهم الكامل « خلو كل واحد يعمل ما يريد » . وبذلك اعطاهم صك الغفران للعبث بجماهير الشعب المصري الفقيرة ، ولم يستطع نوابه ان يفرضوا حداً أدنى من احترام القوانين والشرائع العامة وشمل الهزؤ كل ما هو قائم وضربت احكامهم عرض الحائط ، وسقطت هيبة الدولة فالغيت كل قوانينها وعمت الفوضى السياسية والاجتماعية ، وانعكس ذلك على الاقتصاد فتدهورت التجارة وتوقفت الحركة في الوارد والصادر

(*) المصدر نفسه جـ ١٠ ، ص ١٧٢ .

وقل الدخل العام فأصيبت الميزانية بعجز كبير ، واهملت الزراعة وقل ماء النيل حتى بلغت رواية الماء درهمين بعد ان كانت بربع درهم ونصفه ، وشمل البؤس مصر والشام فاجتمع امراء الشام وقرروا خلعه في رسالة بعثوا بها اليه نقتطف منها ما يلي بشهادتهم لتدعيم ما قمنا بشرحه « أنت أفسدت المملكة وافقرت الامراء والاجناد وقتلت اخاك وقبضت على أكابر امراء السلطان واشتغلت عن الملك والتهيت بالنساء وشرب الخمر ، وصرت تبيع أخباز الاجناد بالفضة » كما ذكروا أمورا اخرى خجل صاحب الكتاب من ذكرها فاكتفى بعبارة « ذكروا له أمورا فاحشة عملها » • وتفاقت المشاكل وتفجرت الاوضاع الداخلية فقرر الامراء خلعه ولو بالقوة بعد الضغط المتزايد من الناس لاستفحال الامور وخروجها عن كل حدود الاستطاعة البشرية فساروا على رأس « ملكتمر الحجازي » • وانفض الناس عن السلطان ولم يجد من يقف معه سوى المستفيدين منه من مماليكه وطواشيه فانهار كلية وسيق مقيدا الى سجن الوهيشة ثم قتل فيه بعد حكم او بتعبير أدق بعد عبث استمر سنة وبضعة أيام اتى فيها على الاخضر واليابس وترك البلاد وهي توشك ان تهوي الى قاع التخلف والبؤس الكاملين •

سلطن الامراء كما جرت عادتهم السلطان الملك المظفر زين الدين حاجي بعد أن أخرجوه من السجن ورحب بسلطنته النواب والمستوزرون آملين في تحسن الاحوال من وجهة نظر ذهنية القرون الاوسطية التي كانت تأمل في التغيرات السلطانية ، غير مدركة ان الانهيار السياسي يصيب الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية فتنهار بانهياره ثم يصعب بعد ذلك بل ويستحيل إيقاف التدهور واعادة البناء الاقتصادي والتلفيق السياسي بل وأكثر من ذلك فان الانهيار الاقتصادي وتخلف قوى الانتاج وعلاقات الانتاج يؤدي الى شد الاوضاع السياسية الى الخلف ، كما قامت محاولة لترميمها واعادة الدفع بها الى الامام ، فكيف اذا كانت الاصلاحات السياسية لا تتجاوز حدود الترقيع في عملية الاستبدال في حكم السلاطين ، ومن دون المساس بالبنية الطبقية الفوقية ككل ، ودون الوصول نهائيا الى البنية التحتية

للتغير في صلبها • ولذا لم يأت التبديل والتغيير في السلطة والذي كان يشمل السلاطين ونوابهم ومستوزريهم بأية دفعة الى الامام ، وجاء السلطان المظفر في أوضاع انفرط عقدها ، فواصل مشوار العبث والتلهي بأموره وغرق في ملذاته الشخصية وصرف عليها ما تبقى من أموال الدولة فأصيبت الميزانية بانهيار كامل ولم يجد السلطان ما يصرفه غير انتزاع اقوات الجماهير بزيادة الضرائب والمكوس •

الـوبـاء :

شهدت الانسانية مأساة كانت نتيجة التراكم الكمي للتدهور الذي أصابها في القرون الوسطى بسبب كثرة الحروب وسفك الدماء والقتل الجماعي وأهمال الزراعة وانتشار الاوبئة والامراض في الزرع والضرع ، مما سبب حدوث مرض الطاعون مبتدئا ببلاد البلقان الكبير ثم تبريز مارا ببلاد الشرق جميعا : ازبك ، اسطنبول ، قيصرية الروم ، انطاكية ، جبال ابن قرمان ، وقيصرية بلاد سيس ووصل بغداد ثم قدم الى البلاد الشامية بأسرها وبلاد ماردين وجميع ديار بكر وفلسطين بسواحلها وجبالها ووصل الى جزيرة قبرص واستقر في مصر ، حملت الرياح الوباء فكان لا يلامس حيوانا ولا انسانا الا الا وتركه جثة هامدة حتى كادت المدن ان تخلو من سكانها ، وصعقت الناس لهول ما نزل وتخيلوه غضبة ربانية فخرج من تبقى فيهم الى المساجد يقرأون القرآن وصحيح البخاري ويتقربون الى الله بالذبائح ليرفع عنهم البلاء بناءا على نصيحة قاضي قضاة دمشق « تقي الدين السبكي » ، بعد ان قدم عليه رجل من جبال الروم يخبره برؤيا وقعت له في منامه تحكي ان الرسول اتى اليه وحادثه بما وقع للناس من بلاء ، فأمره أي الرسول ، ان يدعو الناس للقيام بالقراءة والتقرب والتضرع الى رب السموات والارض ، وقد نفذ الناس الاوامر الرسولية • وبقي الوباء مستمرا فبدت القاهرة بشوارعها المزدحمة من قبل خالية مقفرة فقد بلغت الاحداث في اليوم الواحد عشرين الف حادثة لمدة شهرين حتى بيعت كتب العلم بالاحمال وبأرخص الاثمان وانخفض سعر الذهب والفضة حتى صار الدينار بخمسة عشر درهما ، وعدمت

جميع الصناع ، فلم يوجد سقاء ولا اغسال ولا غلام »(*) . وعلى ذمة المؤرخين فقد قيل ان هذا الوباء بقي يدور في الارض مدة خمسة عشر سنة .

عودة الى الاوضاع الداخلية في سلطنة المماليك نرى ان استفحال الامور بلغ حد القتل بين الامراء لبعضهم البعض دون رضى السلطان او موافقته منذ ذبح « الجيفا ارغون شاه » . وقد تسلطن بعده أخوه الملك الصالح « صالح بن محمد بن قلاوون » بعد ثلاث سنوات ونيف من الحكم المهترىء فقد خربت في أيامه الارض الصالحة للزراعة وكثرت الحرائق والتدمير ، واختلف الامراء وافتتنوا واضطربت المملكة واختلت الاوضاع الاقتصادية وفسدت الحياة الاجتماعية هذا اضافة الى الوباء والفناء المريع الذي شمل السلطنة .

في سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة جاء الى السلطنة باتفاق الامراء والسلطان الملك الصالح صالح ، استحل فيها مال ودم كل هارب من دمشق . وكان من نتائج الثبات والصرامة انتصار جيوش مصر والشام بعد معاناة طويلة ، وهزيمة جيوش التتار وجحافله . وقد ازداد تدخل نواب السلطان في شؤونه الداخلية حتى تحكموا في مأكله ومشربه وأصبح في ايديهم مجرد دمية يحركونها كيفما شاءوا مما حمله على التخلي عن السلطة وتسلم أحد نوابه المدعو بيبرس السلطنة والتسلطن نيابة عنه بعد ان خلع السلطان محمد نفسه ، لم تستمر سلطنته أكثر من عشرة أشهر بلغ فيها صراع الامراء فيما بينهم أشده كما فشت بين الناس في تلك الايام أمراض حادة وعم الوباء وانتشر وتغلغل بين الجماهير الفقيرة وتوقفت زيادة النيل حتى ارتفع سعر القمح وسائر الغلال ونكب المواطن المصري في لقمة عيشه فاضطربت دولة الملك المظفر بيبرس ، واهتزت من حوله الاوضاع السياسية حتى سقط بدخول الملك الناصر الديار المصرية وقد تخلى عنه أقرب المقربين اليه ثم قتل خنقا من قبل السلطان محمد .

(*) النجوم الزاهرة جـ ١٠ من ص ١٩٩ ـ ٢١١

الباب الثامن
الصراع المصري الحبشي

ليس من شك ان للشعوب الاثيوبية علاقات تداخل وتمازج بالشعوب المجاورة شمال شرقي افريقيا من جهة ، وجنوب الجزيرة العربيــة من جهــة ثانية . ولقد قامت العلاقات بينهما كنتيجة طبيعية لوحدة المنطقة الجغرافية او لمجاورتها لبعض ، ولقد خضعت العلاقات القبلية بين القبائل الاثيوبية والقبائل العربية اليمنية والمصرية ، للقوانين العامة بين القبائل البشرية ، سلام وحرب واقتتال ، وكانت تفرضها المصالح الحيوية للقبيلة التي تجد ترجمتها العملية في عملية التقارب او التباعـد فيما بينها . ولــن نستطيع ان نتابع العلاقــات بين القبائل الحبشية والقبائل العربية اليمنية والمصرية للبعد الزمني الذي امتص او احتواها . ولذا فقد حاولنا القيام بعملية استكشاف لحلقات التواصل والتباعد الاتصال والانفصال بين قبائل وشعوب المنطقة في فترة زمنية محددة تهم بحثنــا .

لقد شكلت المسيحية والاسلام نقاط تقارب وتباعد عـلى المسـتوى العقائدي والفكري بين مصر والحبشة وكان لهذا الجانب دوره الكبـير في تحديد السياسات الخارجية ورسـم معالمها ، منذ ان اعتنـق الملك الحبشي « عيزانا » المسيحية فقد كان لذاك الحدث التاريخي اهمية عظيمة في تكوين الوعي الذاتي بسمته القومية لدى القبائل الحبشية المتنصرة ، وتميز وجـه الحبشة دون غيرها من دول المنطقة وقبل غيرها من الدول . وبدأ ذاك الوعي

الديني المبكر يشكل ملامح الشخصية الذاتية المتميزة عن غيرها • فأضحت القوة الرئيسية الحافظة والداعية للمسيحية في المنطقة ، وأكسبها ذلك مكانة عند الدول الكبرى فقربتها روما ، وحسبت فارس حسابها ، وخافتها دول المنطقة واستعظمتها الجماعات المتدينة بالمسيحية في الشرق • ومما لا ريب فيه ان مثل هذه المكانة ستخلق ظروفا جديدة في المنطقة تشعر فيها الحبشة بواجبها ومسؤولياتها التاريخية في حماية الجماعات المسيحية اينما كانت ، فحدثت سلسلة التدخلات من قبلها في الشؤون الداخلية للجزيرة وجنوبها على وجه الخصوص ، وبقي هذا الواجب ملقى على عاتق الاحباش ، كما بقوا يشعرون به حتى ومكانتهم وهيبتهم العسكرية والسياسية تشكو الازمات والانحسارات •

ولقد حولت الاديان الجديدة وجهة الصراع بين قبائل المنطقة فنشبت بين المعتنقين لديانة والمضادين للاخرى صراعات قوية وسمت المرحلة بسمات دينية بعد ان عمدت بقدسية الاديان رغم شراستها ، فقاتلت المسيحية من مستوطنتها الجديدة اليهودية والوثنية المتوطنة في الجزيرة وجنوبها في محاولة للانتشار وكسر الانغلاق والتوحد والامتداد بين شاطيء البحر الاحمر ، ولم تسفر تلك المحاولات عن أي انتصار حقيقي للفكر العقائدي الفتى القادم او لذاك الفكر الديني الوطني أي المسن أو حتى للمنزوي في الغيتو ، الا انها اعطت أي الصراعات الطويلة نتائج جديدة لم تكن محسوبة او متوقعة من اي طرف من طرفي الصراع فقد برز فكر عقائدي وطني جديد ، فشكل ظاهرة تاريخية اجتماعية ، رفضت الاشكال الدينية المتعددة السائدة والمتنازعة في الجزيرة •

ثم بدأ الفكر الوطني الجديد يأخذ ابعادا قومية واممية ، وانتقل في خطوته الثانية الى مختلف مناطق البلاد العربية والمناطق المجاورة لها المتداخلة معها في خطوط التقاطع والتواصل ، واتبع في ذلك الامتداد والانتشار الاساليب الملائمة ، فدخل الحبشة متسللا برفق وتوءدة محمولا عبر التجار

والمهاجرين ، برسائل الى الملك ايللا اصحمه ، ووصل مصر على اسنة الرماح والسيوف وبحسب مقتضيات الظروف فوضع يده على السلطة السياسية ثم بدأ ينتشر ويتوسع بين مواطني الديار المصرية وتحول الناس من دياناتهم القديمة الى العقيدة الجديدة بصورة جماعية • واستقر الاسلام في مواطنه الجديدة ففي مصر جماهير مسلمة ، وفي الحبشة سلطة مسيحية ومزيج من الوثنية والمسيحية والاسلام •

وفي ظل التمايز بين حالة المسيحيين الاقباط في مصر حيث لم يكونوا سوى أقلية بعد ان اسلمت جماعات كبيرة من الشعب المصري ومنهم ، وبين حال المسلمين الاول في الحبشة ثم حال الاسلام ككل فيما بعد حيث دخلت فيه قبائل باسرها كقبائل « الجلا » والتي تشكل اكثر من نصف مجموع السكان وقبائل السيد امو المعتنقة اكثريتها الاسلام والقبائل الصومالية وغيرها من القبائل الصغيرة التي اعتنقت الاسلام في مراحل زمنية مختلفة ، وعلى الرغم من اكثريتها العددية الا ان السلطة السياسية بقيت في يد الامهريين المسيحيين بالرغم من قلتهم العددية منذ اصبحت المسيحية دين الدولة الرسمي •

هذه الوضعية الغريبة بعض الشيء بالنسبة لوضع المسيحية في الحبشة والتعصب الشديد لها من دون سائر الدول الافريقية وشعوبها والتي ما زالت اكثريتها حتى يومنا هذا على وثنيتها ، قد جعل الحبشة ملاذ مسيحي المنطقة وفرضها حاميا عليهم فقد تدخلت في شؤون اليمن اثناء حملة ذي نواس نصارى اليمن ، التي جئنا على ذكرها سابقا ، كما احتربت مع مصر في عصور لاحقة وبعد ان انهت عزلتها السياسية الطويلة •

الحبشة والاسلام :

ولا بد لنا من الوقوف قليلا امام علاقة الحبشة بالاسلام حتى يساعدنا ذلك على استيعاب حقيقة الصراع المصري الحبشي فيها والذي وجدنا انعكاساته في الاداب المصرية والعربية عامة ومنها السيرة الشعبية لسيف •

وضعت الهزيمة اليمنية للاحباش مسار الاحداث التاريخية في القرن الافريقي في اتجاه اخر لما كان مخططا له ومأمولا فيه الحبشة بعد تلك فقبعت الهزيمة في زاوية معزولة من زوايا القرن الافريقي وضاعفت مشاكلها الداخلية من ضعفها فقد عبثت قبائلها وبالذات قبائل البجة القوية بالامن الداخلي وتنقلوا بعد ان كسروا شوكة السلطة حيثما شاءوا ، ولم تستطع الدولة الاكسومية وقف حركتهم البدوية الرعوية ، بل واكثر من ذلك فقد اضطرت الى الرحيل الى الجنوب وبقيت محشورة في المنطقة الجبلية لمقاطعة تيجري وفي مناطق قبائل الاجار الجنوبية الجبلية ، وهناك تكونت دولة الحبشة الجبلية فشملت مناطق تيجري – جوجام – وامهرا – شوا . وحين استعادت بعض قواها سارعت لاحتلال جزر دهلك وزيلع والتي دان اهلها بالاسلام .

بقي الاسلام يتغلغل وينتشر في الحبشة وساعده في ذلك انشغال الدولة بمشاكلها مع قبائل الاجاد ، وحين تنبه ملك الحبشة لذلك في اواخر القرن العاشر طلب مساعدة كنيسة الاسكندرية وبطريركها فارسلت اليه جماعات المبشرين والمطارنة احد دعاتها واشرافها المطران « ابونا دانيل » لاسباب منها حرص مسيحيي مصر واقباطها على دولة المسيحيين في الحبشة ، هذا الى جانب حرصهم على بقاء واستمرار وانتشار وتعميق المسيحية ليس فقط في الحبشة ، وانما بين القبائل الافريقية المجاورة ، وقد بذلت كنيسة الاسكندرية في ذلك جهودا كبيرة .

واتنشرت الكنائس والاديرة في طول البلاد وعرضها ، واعتمدت الدولة في تثبيت سلطاتها على الكنيسة ، فارتفعت مكانة الاقباط المصريين عند ملوك الحبشة ، وبدأت الدولة تستعيد سلطتها وهيبتها ، وتعيد تشكيل نفسها لتعود من جديد الى الساحة الافريقية دولة كبرى يخشاها جميع الجيران ، وازداد الاقباط المصريون التصاقا بها واصبحت الاحلام المسيحية الاولى ، الاولية ، التي كانت تؤلف نقطة ارتكاز لمسيحيي المنطقة في بناء كيان سلطوي لهم يتمتع بثقل دولي ، هي الهدف للحركة الدينية النشطة والمكثفة من الطرفين المعنيين .

قلنا دخل الاسـلام الى الحبشة متسللا بواسطة التجار والمهاجرين ، وكان يجد الفرصة للانتشار وقت ضعف الدولة وانشغالها بالصراعات القبلية الحادة والدامية خاصة وانه كان يزحف عليها من اليمن ومصر وما يهمنـا هنا زحفه من مصر باعتبارها مركز الثقل الكبير في الوطن العربي ، وعـدت مصر نفسها حامية للاسلام في افريقيا منذ العهد الاموي ، وحين اشتد ايذاء قبائل البجة للمسلمين في أسوان ارسل الخليفة المأمون العباسـي حملـة لتأديبهم ٨٣١هـ وكانت اول حملة عسكرية عربية اسـلامية ضد الحبشـة انتهت بعقد صلح بين الطرفـين ثم عادت الحرب مرة اخـرى وتكررت في عهد المتوكـل .

حين اصبحت الحبشة قوة لحامية المسيحية كانت مصر قـوة عظيمـة لحامية الاسلام منذ العهد الايوبي ثم في ظل المماليك ، فوجهـت حمـلات الى بلاد النوبة المسيحية ، موجهة بالتعاليم الاسلامية البسيطة الفهم والمعنى فاستطاعت ان توجه ضربة مميتة للمملكة فلم يأت عام ١٢٨٩ الا وقد سقطت المملكة بيد مصر من حيث ولائها الديني . وقد جاء هذا التحـول ليخـل بالتوازن المسيحي الاسلامي في افريقيا لصالح الاخير .

تمكن الاسلام من النوبة وبدأ في تعريب قبائل الشمال ولاسيما قبيلة جهينة ومن هنا كانت مخاوف الاحباش فقد كسر السـد المنيع امام التغلغل الاسلامي واصبحت الجبهة الغربية تمثل خطرا كبيرا على الدولة المسيحية لا من حيث الثقل العسكري والسياسي لمصر فحسب ، وانما كذلك السطوة الدينية وخطرها على المملكة الاثيوبية فقد بدأ الناس ينساقون مع التعاليـم الجديدة متأثرين بالقادم الغالب مما اربك الدولة في اثيوبيا واخافها . عكس ذلك نفسه على العلاقات بين الحبشة والنوبة (السـودان) وبـدأ الناس يضغطون بدورهم في تغيير علاقات دولة النوبة مع جيرانها موجهين وجـه الدولة شطر الشمال ففترت علاقات النوبة بجيرانها في الجنوب . وكان من نتيجة ذلك شل علاقات الحبشة وبالذات التجارية بدول ما وراء البحر الاحمر

وخنق اقتصادياتها وحقها في التصدير والاستيراد فحرمانها من متنفس يصلها بالجسم الدولي يقضي على مقومات الزعامة للدولة الاثيوبيـة في افريقيـا الشرقية والجنوبية • وسبب ذلك وقوع حروب كثيرة وطويلة بين الحبشة والنوبة وزاد حدة التوتر مع مصر ، فمصر العدو الحقيقي للدولة الحبشية وهناك مسألة اخرى ترتبت من جراء تسلم مصر لزمام الهجوم والمبادرة في الحركة اثناء حكم الايوبيين والمماليك لها ، وعلى وجـه التحديد في الفتـرة الظاهرية في وقت كانت فيه اثيوبيا تعاني من الضعف والانحلال من الصراعات القبلية والاسروية وقد قفزت الى سدة الحكم اسرة « زاجوي » ، والتي زعمت انها من نسل النبي موسى • وهي من قبائل الاجاد أي انها لا تنتسب الى الدم السامي الحامي فقابلت القبائل الحبشية حكمهم بالرفض المطلق على الرغـم من محاولاتهم كسب الكنيسة ورفضها في تنصير قبيلتهم « الاجاد » وعمـل ملوكهم وبالذات الملك « لا ليبابالا » على خدمة الدين فانشأ الكنائس والاديرة الضخمة ولم يمح ذلك ، التفكير المتوارث القدسي البصـمات في ان اسـرة أكسوم هي صاحبة الحق الشرعي في العرش وتحكم بأرادة الله الواصلة الى سليمان وبلقيس وهم اي أكسوم سلالتهما المقدسة ، وقـد امتـدت تلـك الشرعية بحق الانتساب الى عصرنا الحديث(*) • وبقيت حدود مملكة الاسرة الجديدة نتيجة المقاومة في المقاطعات الوسطى في لاستاوتجراي واجزاء من بيجمدر وامهره وشوا الشمالية ثم سقطت نهائيا على يد الملك املك ١٢٧٠ م وعادت الاسرة السليمانية الى الحكم •

عمل الملك الجديد على محاصرة الخطر الاسلامي المدعوم بنفوذ مصر والمهدد للهضبة الوسطى (شوا) وهي أهم المعاقل المسيحية ، وقد كان من المستحيل وصول الخطر الاسلامي اليها لولا الانقسامات القبلية والاسرية ومشاكلها ومآسيها في الداخل ، وفي الخارج الخطر المصري •

كان القرن الثامن عشـر والثالث عشـر من اصعب فترات نظام الحكم

(*) في دستور اثيوبيـا سنة ١٩٥٥ هناك مادة رقم (٢) تنص على شرعية حكـم الاسرة بحكم الانتساب الديني المقدس لسليمان وبلقيس •

الاقطاعي الكهنوتي البطريركي المنغلق على نفسه وقد ازدادت حدة ذاك الانغلاق بعد عملية الدمج للدولة في الكنيسة، وعلى الرغم من نتائجه الايجابية لكليهما وانتهاء التعارضات الداخلية كلية ، وعطاءاته الايجابية على صعيد الاداب الوطنية ازدهرت حركة التأليف وغلب عليها الطابع الديني • الا ان ذلك لم يكن الدولة الكنيسية من تحطيم جدار العزلة السميك بينها وبين القبائل والشعوب الحبشية الاخرى وبالذات المسلمة منها فقد اصيبت بخيبة أمل نهائية بعد ان كانت تراودها احلام الانفتاح السياسي مع مصر ودول العالم الاسلامي ، وبعد بصيص النور الذي القاه احد ملوك اسرة زاجوي المطاح بها هو الملك « لاليبابالا » • زادت الحركة الدينية السياسية في الداخل مواقف اثيوبيا اندفاعا من مسيحيي مصر وتطرفا قابله في الطرف الاخر اصرار مصر على حماية اقباطها مما كان يعني تدخلا في شؤون مصر الداخلية تولدت على أثره ردود فعل مصرية حادة بلغ حد التحريض للقبائل المسلمة مع وجود الظروف النفسية المتهيئة لاثارة اضطرابات داخلية واحكام قبضة العزلة على الدولة الكنيسية في اثيوبيا •

ساعد مصر في النفاذ الى القبائل الحبشية وقوع معظمها في المنطقة الساحلية واعطى ذاك التغلغل ثماره الايجابية للقبائل المسلمة وردودا عكسية عند السلطة والنظام ، وفي الشعور القومي الديني النصراني ، وقد تمكن المسلمون الاحباش بالعون والتأييد المصري من اقامة سلطنة لهم تدعى « ايفات » شرقي « شوا » ثم سلطنة اخرى هي « شواسنة » والتي ضمت الى السلطنة الايفاتية ١٢٨٥م للتصدي لزحف الكنيسة والدولة واحكام القبضة على مناطقهم ، وحتى لا تتسرب المسيحية ونفوذ الدولة الى خطوطهم الخلفية بنوا ترسانة بشرية وعقائدية امام الدولة وحصرها ونفوذها في مناطق تواجدها الديني •

النزاع بين الحبشة والمماليك :

كانت الدولة الحبشية تدرك ان لا حل لها للخروج من الكماشة الاسلامية سوى التحالف مع الاخوة الاقوياء في الدين • كما تحالف

المسلمون مع مصر ، وبدأت تنسج معهم علاقات سياسية فطلبت الدخول معهم في دبلوماسيتهم وسياستهم الخارجية فالعلاقات تفرض تحالفات ثم مواقف خاصة في ظل الظروف السياسية الدولية المتفجرة • وتداخلت الافعال وردود الافعال واشتدت وتباينت ، واصبح من غير الممكن التمييز بين البادىء في العداء عن طريق الاثارة والتحريض والدعم المعنوي والمادي لرعايا كل منهما عند الاخر ونقول ذلك لان الارتباط والولاء في تلك الازمنة كان دينيا ، واذا بالاقباط المصريين العريقي المصرية هم رعايا الحبشة ، وهي الحامية لوجودهم وحياتهم والراعية لشؤونهم وممتلكاتهم ، وكذا واقع الحال بالنسبة للمسلمين الاحباش فمصر هي الام وهي السند والحامي • ومن هنا فقد وجدت كلا الدولتين المبررات التاريخية والذهنية للتدخل في شؤون الاخرى ، وقد حمل ذاك العصر افكارا كهذه سهلت الطريق للتدخلات وبررتها فكثرت الحروب بين الشعوب والدول في العصر الوسيط ، ووجدت النظم الاقطاعية في المبررات الدينية الغاية والوسيلة ، لتحقيق طموحاتها ومصالحها المادية الاخرى سياسيا واقتصاديا ، وكذا كان واقع الحال بالنسبة للدولتين •

بلغ الصدام بين مصر والحبشة اوجه في عهد الملك الحبشي « عمداسيون » على أثر تحطيم السلطان الناصر محمد قلاوون لكثير من الكنائس القبطية بعد الصدامات الاهلية الداخلية في مصر ، وما اثاره اسلوب الاحراق لمشاهد القاهرة ومبانيها الكبيرة ، والذي جئنا على ذكره سابقا ، وقد اتى الاحراق كرد فعل للاقباط تجاه المسلمين ودولتهم المملوكية ، وكان ان تنصل المطران منهما •

فهل كانت بتحريض خارجي أفرنجي مباشر ام عن طريق الحبشة ؟؟ ام حبشي صرف بدوافع دينية او باهداف سياسية ، كرد فعل للنتيجة التي اسفرت عنها تدخلات مصر في شؤون الحبشة الداخلية ، وتحريض القبائل

المسلمة ؟؟ ام انه اي الاحراق قد حدث ضمنا كأسلوب من أساليب الفتن والاقتتال الاهلي الداخلي ؟؟ ام ان تلك العوامل والاهداف مجتمعة هي التي اشعلت الفتنة الداخلية واسعرت الاقتتال والتدمير • ؟؟

يميل الكتاب والمؤرخون للتحيز الى هذا الدافع او ذاك ، ويقدمون الشروح الطويلة مسخرين فيها ما يمكن تسخيره من معلومات تاريخية لتثبيت وجهة النظر المطروحة من قبلهم ، وحتى تتجنب الحكم المسبق والموقف المسبق نرى ضرورة الغوص في لب المشكلة وتفنيدها كحقائق تاريخية ، ثم تأتي مواقفنا على ضوء الحقائق • محاولين قدر الامكان تأجيل مشاعرنا واحكامنا حتى تتضح الحقيقة ونحن ندرك ان موضوعا كهذا يتطلب الشرح الطويل والمسهب وليس في امكاننا هنا سوى الاشارة للحوادث الداخلية التي سببت ردود الفعل الخارجية ومن قبل الدول والحكومات •

في مثل تلك الظروف وحيث تنشب المشاكل الداخلية نتيجة تراكمات احداث يومية في الداخل تجد تعبيرها ومتنفسها في حدث عاصف مدمر ، تندفع عوامل خارجية متحينة الفرصة اما محرضة في السر او متدخلة في العلن لتؤجج اوار المشاكل لاهداف كثيرة وجدت كمناسبة لاخراجها او التعبير في ذاك الشكل المتستر لها • وقد تنفجر فجأة المشاكل الداخلية دون مقدمات داخلية مرئية ، وتكون من صنع ايد خارجية وبمقدمات وممهدات من الخارج ، وتلك هي الاحداث الفجائية وهي سريعة الزوال والانتهاء ، بالرغم مما قد تتركه من نتائج وخيمة الا ان عدم وجود ارضية مادية اجتماعية يحرمها من البعد الاجتماعي وبالتالي من الديمومة والانتشار سريعا • فهل ما جرى في كل من الحبشة ومصر من اقتتال اهلي تحريض خارجي صرف ام ردود فعل من الطرفين القبطي المسيحي والمسلم تجاه بعض ؟؟ عبر تراكمات يومية ادت الى الانفجار وساعدت الظروف والتداخلات الخارجية على اشتعاله وانتشاره ؟ وتنائجه المدمرة التي أدت الى تدخلات النظامين فيها لاذكائها والاستفادة منها •

لقد كانت هذا وذاك وشد العامل الخارجي من مؤازرته للعامل الداخلي وتحركت احداث الداخل بتحريض من الخارج فتدخل الاحباش في الشؤون الداخلية لمصر ، ووصلت حد التدخل على المستوى الرسمي جاءت تدخلات عمداسيون بواسطة وفوده المرسلة الى القاهرة ٧٢٦هـ ١٣٢١م يطالب السلطان الناصر باعادة بناء الكنائس والكف عن اضطهاد الاقباط ، وزاد ذلك الاقباط صلابة وقوة فقد احسوا بثقل دولة الى جانبهم وكذا كان واقع الحال في الظرف الاخر ، فقد حرضت مصر وشدت من ازر القبائل المسلمة في الحبشة فكونوا سلطاتهم وهم على ثقة بدعم مصر ومؤازرتها لهم . الا ان غضبة عمداسيون من الاحداث التي وقعت للاقباط في مصر جعلته يجرد السيف ، بعد ان هدد السلطان الناصر بذلك ، على القبائل الحبشية المسلمة ، وبذلك يكون قد فتح جبهة الاقتتال الداخلي في الحبشة ، ووضعت حملته الكبيرة والشديدة السيف في رقاب الاحباش المسلمين ايذاءا لمصر ، وانتقاما للاقباط المصريين ، فقتل الكثيرين منهم وارغم الاخرين على دخول المسيحية محاولا بذلك انهاء ما لمصر من نفوذ روحي في الحبشة ، ولم يكن من السهولة تحقيق ذلك وبلغ التشنج في الفعل ورد الفعل حد التهديد بتحويل مجرى النيل .

نظرة شاملة للسيرة :

قبل ان ندخل الى الاهداف التي اختطتها السيرة لنفسها ، سنرد على سؤال يبدو ملحا بنفس القدر ، مر عليه النقاد الكرام حين لم يذكروا شيئا يشير الى ان السيرة رواها مجهول ، وتداولتها الجماهير الشعبية المصرية ، ولنا اضافة في هذا المجال مستنتجة استنتاجا ، فليست هناك اشارات صريحة الى ذلك ، وعليه رأينا في التحليل خير معين لنا للاجابة على الاسئلة الملحة . والسؤال من هو كاتب السيرة ؟ وبتعبير ادق ، من هي الجهات التي شاركت في كتابة السيرة ؟؟

السيرة كما هو معروف مروية شعبيا ، وليس هناك اسم محدد لقاص وراو لها ، هذا يعني ان جمهرة كبيرة ممن تداولها بالرواية شارك فيها

وأضاف عليها ، ليس في تلك الحقبة من الزمن فقط ، وانما منذ ان حملت الموضوع القبائل اليمنية المهاجرة والفاتحة مع القائد العربي عمرو بن العاص ، والاضافات عليها متلاحقة ، وكما عرفنا سابقا انها ، أي موضوع سيف قد سخر في خدمة النزاعات القبلية بين بني كلب اليمانية وقيس المضرية ، ويعني هذا مرة أخرى ان القبائل اليمنية وعلى رأسها زعماؤها هم الذين طرحوه حين وجدوا فيه عاملا مساعدا لتأجيج الشعور القبلي اليمني ، ليسهل الالتفاف حولهم في صراعهم حول السلطة ، والمراكز الحساسة فيها بعد الفتح الاسلامي لمصر • وتلقف افراد القبائل اليمنية ذاك الموضوع والذي وجد قبولا واستحسانا لديهم فأغنوه ، وحصلت في موضوعه اضافات في جوانب ، وحذف في جوانب اخرى وتعديل وتغيير ، حتى يتلاءم ومتطلبات الحاجة اليه من جهة ، ومن جهة اخرى فقد فعل تطور الزمن وتغير المكان فعله في التعديل والتغيير والتطوير ، ثم دون في امهات الكتب اليمنية والعربية ليبقى محفوظا فيها ، الى أن دعت الضرورة النضالية لاخراجه فاخرج هذه المرة جماهيريا ، وطرح باسلوب شعبي تفهمه الجماهير ، وتستطيع ان تحكيه وتتداوله دون اجهاد • وحاولنا ان نثبت في دراستنا ان القضية اليزنية حملت في نفسها روح الاستمرارية نتيجة التداول غير المنقطع لها مشافهة وتدوينا بحسب الحاجة وتحت ضغط الظروف • كما حاولنا ان نبرهن على ان هناك احتمال تدوينه وضياعه في فترة ما قبل ظهور الناصر صلاح الدين الايوبي او بعدها بزمن وجيز ، في خضم الاحداث العاصفة التي شهدها العالم العربي في القرنين السادس والسابع حين اجتاح المنطقة غزو مدمر حاقد من الشرق التتار والغرب الافرنج والصليبيين • ومن الداخل الانهيارات السياسية المدمرة ، والفتن والحروب الاهلية الشرسة والقاسية •

في خضم تلك العوامل مجتمعة لا نستبعد الضياع والفقدان والخسران خاصة بعد محاولتنا للاقناع ان التدوين للقضية اليزنية بجانبها التاريخي والاسطوري قد تم قبل القرن الثامن في فترات متلاحقة ، لاقتناعنا الشديد

بأن قصة سيف التاريخية مع غيرها من البطولات العربية الملحمية تحمل في نفسها روح الاستمرار ، كما تحملها الجماهير ذلك لحاجتها اليها وقت الشدائد والمحن ، وحين تشعر بضرورة ايجاد حافز ودافع للحركة سواء على المستوى السياسي النضالي او الاجتماعي التشييدي والعمراني - وحتى اليوم يطرح المثقفون العرب خاصة منهم الثوريون ضرورة العودة للتراث من أجل الثورة - وكذا كان واقع الحال في تلك الحقبة التاريخية وعادت الحاجة لسيف ، والظاهر بيبرس ، ورأس الغول ، وغيرها من الشخصيات التاريخية والاسطورية التي وجدت الجماهير فيها بغيتها المطلوبة من دون غيرها • فدونت لها السير والملاحم البطولية مازجة اياها بالخيال المفرط والمسف في أحيان كثيرة ، وهو نمط تفكير الناس في تلك الحقبة من الزمن •

ولقد استلهمت الشعوب العربية من فترة محنتها من تاريخها حركة سيف لتستطيع به ان توقظ شعورها الوطني والقومي ، وهي عملية مشروعة ، بل وأكثر من ذلك فهي ضرورية بما فيها من عوامل حية محركة ومنشطة ، ودافعة لليقظة والاحتراس والعمل ، ولذا فان ما تم في القرن الثامن للهجرة من اعادة صياغة وتدوين لسيرة سيف انما جاء ضمن سياق العملية التاريخية التراثية العربية الاسلامية المستمرة منذ فجر الاسلام ، أي منذ سيطرت روح المزاحمة والتنافس العنيفة والدموية ، مرورا بعصر تدوين قصص التاريخ وحتى تدوين الملاحم الاسطورية • وعملية التواصل تلك انما لحفظ الاستمرارية التاريخية لنضال الشعوب ، ومن ثم بقائها وتطورها وتقدمها •

حاولنا في دراستنا ان نثبت ان القضية اليزنية عبر مراحل تطورها قد تقلبت بين الايدي الشعبية والسلطوية ، وقد بدأ في القرن الثامن تداولها شعبيا ، الا ان لنا تقديرات استنتجناها نقدر فيها تدخل السلطة بهذا القدر او ذاك لتدخل هي بدورها ماترغب في ادخاله في السيرة ، ولتوجه في بعض الحالات مايمكن توجيهه في السيرة لخدمة اغراضها ، فالقصص والسير والملاحم والروايات ، وكل انواع الفنون والاداب يمكن ان تتخذ كوسائل اعلام

للدولة توجه بها الجماهير الوجهة التي تريدها وتخدمها • من هنا كان اجتهادنا بأن للسلطة العليا يدا فيها • هذا من حيث الفهم العام للموضوع • أما من حيث الخصوصيات التي تلقفناها في السيرة مقدرين ان تلك بايحاء من السلطة الفوقية ، فانا سنقف عندها قليلا لندلل بها على صحة وجهة نظرنا •

السيرة بأسرها تعبئة ضد الاحباش ، وبالذات ملكهم « سيف ارعد » وهو خصم عنيد لمماليك مصر ، وقد وجهت السيرة الحقد الشعبي اليه ، وابعدت البنى الفوقية نفسها كلية من تيـــار الحقد الجماهيري في الوقت الذي كان يجب ان يتركز عليها بالدرجة الاولى لتعسفها واضطهادها المباشر للجماهير الشعبية في مصر ، والسلطة الحاكمة وفئة التجار الكبار المتنقلون بين مصر والحبشة هم الذين يعرفون الجماهير الشعبية ان سيف ارعد ملك الملوك ، وان هناك العديد من الملوك الصغار في السيرة اسلموا على يد سيف ، ومن الواقع التاريخي للحبشة كما رأينا ذلك في استطرادنا التاريخي وجدت سلطنات صغيرة مسلمة بسلاطينها المسلمين المعادين لملك الحبشة الكبير عمداسيون ثم سيف ارعد ، و الموالين لسلطان مصر ، او المتعاطفين مع مصر المسلمة ، ولاشك ان الدولة او التجار المرتبطين بها هم الذين كانوا يوصلون اخبـار الاقتتال والمعـارك بـين السـلاطين الصغـار المسـلمين ، وبـين ملوك الحبشـة المسيـحيين لتأجيج الشـعور الدينـي ضـد الحبشـة المسـيحية حامية الاقبـاط المصريين داخـل مصر والمتعاونة معهـم والمحرضة اياهم وقت الضرورة ، وعكس ذلك نفسه في السيرة الشعبية ، حيث رأينا الملوك الصغار كالملك افراح قد ارتضى بالاسلام الذي بشر به سيف بن ذي يزن ، مما جعله يخرج عن طاعة ملك الملوك سيف ارعد • وقد بسطت الذهنية الشعبية ما طرح عليها من أمور سياسية ، وأخرجتها بمفهومها ، وبالذهنية التي سادت في فترة تدهور وانحطاط العالم العربي ، وبالذات مصر ، بعد ان ركب سدة الحكم فيها المماليك • وذلك ما يحملنا على الاعتقاد ان للسلطة ضلعا في السيرة هو عدم شجبها من قريب او بعيد للاوضـاع السائدة والمتردية في مصر أي تحويل للاهداف والرغبات الشعبية للوجهة

التي تريدها السلطة وأولو الامر فيها ، بل ولقد عمدت السيرة دون استنكار للقيم والاخلاقيات الجديدة التي فرضها المماليك على المجتمع المصري ، وجعلته يتبناها ويقبل عليها ويتهرج بها • وفي واقع انحطاط الواقع الاجتماعي ككل وجدت تلك الامراض الارضية الخصبة لتتغلغل فيها ولتتفرع ، ولتصبح جزءا من الاخلاقيات الاجتماعية الطبيعية رغم شذوذها ومرضها • وحملت السيرة من الترهات ما تمجه النفس • الا ان ذلك كان طبيعيا بحكم المستوى الذي وصل اليه الفكر • بسبب الانحطاط الكامل والشامل لمختلف مناحي الحياة في مصر وفي العالم العربي بصورة أعم • السيرة اذن اعلام تحريض رسمي وتعبير وتنفيس جماهيري متضمن للفردي •

أما الرغبـــة في امتلاك المال والمرأة فالســـيرة منذ البداية بحث عن كنز أو امرأة فما ان ننتهي من قصة حب وزواج عجول ، حتى ندخل في قصة اخرى • وسيف البطل القومي سيف القدوة هو المزواج • تعبير عن واقع حال مثله الحكام والسلاطين والفئات الغنية في المجتمع ، وتنفيس عن رغبـة مكبوتة جماعية يحلم ويطمح فيها الانسان بالوصول الى تلك الرغبـات ، ولذا كان الراوي كما كان المستمع يسهب ويطنب ويتلذذ حين كان يأتي على ذكر ذلك • جعلوه مزواجا حتى يبرروا أي الطبقات الحاكمة والغنيـة ما كانت تقوم به من اعمال رهيبة في ذلك وليسمح لنا القاريء ان نذكر بحدث تاريخي واحد فقط على سبيل المثال ليس الا في عهد المماليك ، جمع سلاطين المماليك من النساء والجواري في قصورهم اعدادا هائلة ، ولم يذكر لنا تاريخهم ان واحدا منهم اكتفى بواحدة ، ويكفي ان نذكر منهم السلطان الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون الذي جمع النساء الكثيرات حتى انه جمع بين اختين •

وسيف البطل المسلم المتعصب دينيا يشـرب الخمـر ، وفي ذلك تبرير لافعالهم وقصصهم الكثيرة مع الخمر ، والتي اشتهروا بها في تاريخهم ، وبقي

للجماهير ان تتلذذ مع الرواية بعد ان حرمت من كل شيء في الواقع ، ويكفي العودة لمعرفة قصصهم واخبارهم السيئة الصيت الى كتب التاريخ(*) • وتقول لنا الاحداث التاريخية انه في عهد السلطان شعبان « تهتك المماليك في شرب الخمور والاعلان بالفواحش وركبوا في الليل وقطعوا الطريق على المسافرين ، واغتصبوا حريم الناس ، ثم أخذ السلطان الملك الكامل في تجديد المظالم والمصادرات » • ولم يكتف بذلك بل احدث بدعا جديدة فقد كان يدخل ويتزوج سراريه قبل تزوجهن على طواشيه وخدمه والامر من ذلك كله الاخلاقيات الشاذة التي أتى بها المماليك وعكست نفسها في السيرة • فقد دونت كتب التاريخ العديد من القصص والحكايات التي تكاد تبلغ مرحلة الخيال نذكر على سبيل المثال حكاية الملك الناصر احمد بن محمد بن قلاوون حين أضرب عن الطعام وهو يواجه الموت • بعد ان قبض عليه القواد العسكريون التابعون لاخيه السلطان الصالح اسماعيل بن محمد في الكرك ، وقد رفض تناول طعامه « حتى يأتوه بشاب يقال له : عثمان ، كان يهواه فأتوه به فأكل عند ذلك »(*) •

هذه الاخلاقيات الشاذة والمريضة عكست نفسها في السيرة فقام الخيال الشعبي بدوه بتناولها حيث تم في السيرة بناء مجمعات ومدن خاصة لا يسكنها غير النساء من دون الرجال ، ثم مجمعات خاصة بالرجال محرم على المرأة بالمقابل الدخول اليها ، ولنسمع السيرة ما تحكيه في ذلك • دخل سيف متنكرا في زي امرأة الى مجمع البنات ووجدهن يلعبن الاكرة ولعب معهن وقد ارهقهن من لعبة وحين جلسن للراحة ، وهنا الكلام للسيرة : « اذا بالمناديات تنادي يا بنات العادة لا تبطلوها فقد اذنت لكم الملكة بذلك فما ان سمع البنات حتى اجبن بالسمع والطاعة ولكن الملك سيف تعجب لانه ما يدري ما تكون العادة فهناك قامت البنات وجعلت كل واحدة تمسك واحدة مثلها ويضمن بعضهن بعضا كل اثنتين سواء • هذا الملك سيف ما قدر يهجم على واحدة

(*) النجوم الزاهرة جـ ١٠ ص ١١٩ و ص ١٢٢ و ص ٩٣ •

لكون انه ما يعلم فصار كل البنات يتقلبون على ذلك المرج ويركبون على صدر بعضهن البعض . فقال الملك سيف في نفسه والله ان هذه العادة لا نظير لها لكن اذا تعلقت بي واحدة منهن فماذا اصنع اذا ما اشتد الوطر(*).

هناك العوامل الدينية التي انبثقت كأهداف ، وفي نفس الوقت كأسلوب تحريض وقتال ، والسيرة بمجملها تصب في هذه المسيلة ، فلا يكاد سيف يخرج من معركة حتى يدخل في الاخرى ، كلها لنصرة دين الاسلام ، الذي لم يتعرف عليه سيف الحقيقة والتاريخ ، ذلك انه كان قد اتى قبله زمنيا ، وآل ذي يزن كما تذكر كتب التاريخ كانوا يدينون باليهودية . الا ان السيرة استدركت الموضوع حين جعلته مسلما على دين ابراهيم ويبشر ويناضل من أجل الاسلام بتعصب ديني لا تهادن فيه فأما الدين ، واما السيف ، وفي هذه الصورة تجسيد للواقع الموضوعي السياسي والاجتماعي في تلك الفترة التي شهدت من التعصبات الدينية ما أوصل الاحوال حد الاقتتال الاهلي ، سواء كان في مصر بين الشوفينيين المتدينين من الاقباط والمسلمين ، والذين اتينا على ذكرهم في استطرادنا التاريخي لواقع الحال في مصر انذاك ، اينما كان بين مسلمي ومسيحيي الحبشة .

وهناك سؤال كبير يفرض نفسه علينا . لماذا المشاكل بين الحبشة ومصر او بتعبير اكثر واقعية ودقة ، بين نظامي الحكم فيهما ؟؟ ولقد عمل كل واحد منهما على أن يعكس خصوماته على جماهيره الطيبة والبسيطة . ان وراء كل تلك الكمية من المشاكل دوافع اقتصادية تلبست بلبوس عديدة الا انها تبقى هي المحرك الاول للاحداث . كانت مصر تخشى سيطرة الحبشة على المنافذ الجنوبية الغربية للبحر الاحمر في فترة كانت تملك فيه اسطولا بحريا كبيرا . ولذلك عملت على تركيز وتثبيت النفوذ الحبشي المسلم الموالي لها في مصوع والمدن الساحلية ، دعمت مصر سلطنة « ايفات » الاسلامية لتسيطر على طريق التجارة ، وجاءت سيطرتها هذه لتفسح الطريق امام التجارة

(*) السيرة م٢ ص ٢٧ .

المصرية فقد كان المنفذ الى الداخل ميناء زيلع يقع تحت سيطرتها • كما أصبحت هرر الشرقية الاسلامية مركزا تجاريا هاما ، وفوق هذا منبرا للدعوة الاسلامية بزعامة مصر •

تحركت الخصومات السياسية الدينية بمبررات دينية ، في الواقع وفي السيرة ، فالمعارك السياسية مع ملوك الحبشة ، ومع الخصوم المتناثرين على امتداد مجرى النيل وحتى منابعه ، والواغلين من تحركاتهم السياسية الاستعمارية حتى اليمن ــ حتى يصبح حبك السيرة متماسكا ومتناسقا ــ انما جاءت في السيرة بمبرر ودافع ديني ، وهو نصرة دين ابراهيم الحنيف ، وكان ذلك هو نفس المبرر في الواقع السياسي ، خصومات تتبعها معارك واقتتال بين الطرف المسيحي الحبشي والمسيحي القبطي المصري من جهة ضد الجبهة المضادة سلطان مصر المماليك وسلاطين السلطنات الاسلامية في الحبشة كسلطنة ايفات ، وسلطنة هدية ، وسلطنة فتاجار ، وعكست السيرة ضمن افقها النظري الاسطوري واقع ذاك الصراع السياسي الديني ، الاسلامي ــ المسيحي و الاسلامي ــ الوثني ، الذي كان يبشر به السلاطين الاحباش المسلمين في المناطق والمرتفعات الحبشية ، والتي بقي أهلها على دين الوثنية •

المعالم الاساسية واحدة في الواقع والسيرة ، ولذا فاننا نرى السيرة انعكاسا وتعبيرا عن الواقع مثلها مثل أي فن ادبي ، ترتبط مع الواقع بعلاقات جدلية تؤثر فيه وتتأثر به ، وهي مرآة تعكس صورته فيها ، والراوي فيها هو الذات الحساسة التي تنفعل وتتفاعل مع الموضوع • فتحدد هدفها بأهدافه ، ومن اهدافه وغاياته وحركته ترسم الصور المؤثرة والمعبرة عن الواقع بما فيه وبما يصبح به من حركة وتفاعل •

ذلك وضع اهتمامات مصر الاقتصادية والتجارية في الساحل ، ومصدر خوفها وقلقها من اغلاق الموانيء الحبشية الشرقية في وجهها ، ولذا حرصت على قيام كيانات اسلامية هناك ودعمت تلك الكيانات للبقاء والاستمرار ،

وكان الرعب الاكبر لها النيل ، وفوق هضبات الحبشة حاولت ان تساعد الكيانات والسلطنات الاسلامية خاصة في اقليم « شوا » لحراسة منابع النيل ، وحتى لا يتم تنفيذ تهديدات ملوك الحبشة بتحويله ، وكانت مغامرة سيف بن ذي يزن في السيرة الشعبية ، الوصول الى منابع النيل والحصول على كتاب النيل ليتحول من يد الاحباش المسيحيين الى الايدي المسلمة ، وكان سيف هو بطل تلك المغامرة الصعبة ، فالنيل يجب ان يبقى متدفقا على مصر فقد كانت مصر تتأثر حتى بانخفاض تدفقه حين كانت تقع بفعل عوامل الطبيعة ، فقد كان يسبب لاي حكومة مصاعب كثيرة وكذا للشعب المصري مهما كان الثمن ، وعليه فلتحشد جميع الطاقات ، وليطوع الفن والادب في خدمة الاهداف الكبيرة • واذا لم تستطع الاداب ان تؤدي دورها في الحياة العامة السياسية والاجتماعية فلا مبرر لها ، وهذا ما جعل السيرة تكتسب طابعا شعبيا متداولا • لابد من التعبير عن الاهداف والطموحات فيها ، وفي غيرها من السير الادبية الشعبية ، وتلقفتها الجماهير ، وعلى رأسها الراوي الشعبي المجهول بحماس كبير فقد هيأت عبر فترة زمنية طويلة ذهنيا ونفسيا للتعصب الديني ، وهو الذي اخفت السلطة وراءه مآربها السياسية وحقيقة مطامعها الاقتصادية ، وشاركت معها الجماهير في عداواتها الدينية والاقتصادية • خاصة ما يتعلق منها بالنيل ومياهه • وانفعلت وتفاعلت مع القضايا الاساسية المروية بالسيرة الشعبية ، وزادت فيها وأغنت ، وسهلت طرحها وبسطت اسلوبها متعمدة ، وغير متعمدة فقد كانت افكار الناس وثقافاتهم في مستوى من التردي والانحطاط بعد سيادة الفكر الغيبي الاسطوري في زاويته الحادة « الخرافية » فيه • فكانت تلك الاضافات الشعبية في السيرة قد وقفت في فترة سابقة من التاريخ ضد نفس عدو المرحلة المملوكية ، وهم اساطين الحبشة ، لقد اختيرت شخصية سيف بعناية ، وبهدف اذكاء الروح القومية أو بأكثر دقة النعرة القومية ضد الاحباش بحكم العداوات التاريخية المزمنة لاسباب كثيرة • الا ان السبب والعامل الاقتصادي هو الاكثر حدة وضراوة •

كانت السيرة مسيسة الاهداف والمقاصد ، وجهتها الدولة للاهداف التي تريدها ضد حكام الحبشة ، أي الاقطاع الاسلامي المتستر وراء سيف ، والمستغل لاسمه ضد الاقطاع الاوتوقراطي الديني في الحبشة ينازله في حروب مستمرة بواسطة سيف مباشرة في أغلب الاحيان ، وعن طريق المناوشات والعصيانات الداخلية من قبل القوى الحبشية المسلمة • كان ذلك في السيرة كما في الواقع السياسي في الحبشة ، وبين مصر والحبشة ، ولقد عرجنا على ذلك في سردنا التاريخي للعلاقات السياسية بين مصر والحبشة • ولم تكن السيرة بأهداف رومانتيكية غير محددة ولا مفهومة كما صورها نقادها الذين اتينا على ذكرهم سابقا •

ومن اهم اهداف السيرة هو الهدف الذي وجد اصداء كبيرة عند الانسان المصري ، فقد كانت السيطرة على منابع النيل خاصة اثر تهديدات الملك الحبشي « عمداسيون » ومن بعده « سيف ارعد » بقطع ماء النيل ، اي تحويل مجراه عن مصر ، وارعب ذلك المصريين حكومة وشعبا سلطة وجماهيرا • فحشدت لذلك جميع الطاقات ، واستعدت مصر للمواجهة السياسية والعسكرية ، وحركت في الداخل القوى الحبشية المسلمة المتعاونة معها •

من هنا كان ذلك هو الاطار العام والكبير الذي سارت فيه السيرة الشعبية ، أما التفاصيل الجزئية الصغيرة فليست سوى الترجمة الحقيقية للافكار العامة الكبيرة في السيرة ، وفي هذه التفاصيل صال وجال الراوي الشعبي، وكيفها ، مدركا بذلك او غير مدرك للقضايا الرئيسية العامة ، وهي بالدرجة الاولى سياسية وضعتها الدولة• اننا نريد ان نتوصل الى الاهداف التي من اجلها وضعت السيرة ، وعلى هديها سارت بأكثر تحديد ودقة ، متجاوزين مبدأ التعويم الادبي الذي انتهجه النقاد من قبلنا ، وهم يقيمون السيرة ويضعون اهدافها بنوع من التبسيط والتسطيح للامور •

بعد ان استعرضنا مجموع الاهداف لمختلف النقاد التي قيلت في السيرة والغاية منها ، سندلي بدلونا في تحديدها لنقترب من استكمال ملامح السيرة . ووضعها في اطارها الصحيح ، ولقد قررنا اهدافا ثلاثة رئيسية وأساسية كتبت السيرة لاجلها ، او بتعبير أكثر دقة امتلأت السيرة بها .

لقد وضعت السيرة كما لمحنا الى ذلك سابقا لهدف سياسي املته السلطة مباشرة او بواسطة التأثير غير المباشر على القاص الشعبي بهدف تحريض الجماهير المصرية. اي انها اتخذت من السير وسائط تحريض ودعاية لها ضد اعدائها في الداخل او الخارج ، وهم في الداخل حملة الصلبان – على حد تعبير السيرة – وفي الخارج نظام الحكم في الحبشة ، وهو الحليف الطبيعي للفريق الاول في الداخل ولقد أرادت بذلك حشد الطاقات الشعبية ، وتوجيهها الى أهدافها السياسية ، وأستعانت من أجل ذلك بشخصية تاريخية ارتبطت بنضال شعب وأمة تدفقت في اختياراتها السياسية لسيف ، وملكت قناعاتها الجماهير الشعبية بواسطة الحكاية المروية ، واستطاعت ان تعبىء طاقاتها وتوجهها الوجهة التي تريد .

الباب التاسع
وجهة نظرهم ووجهة نظرنا

بعد ان انتهينا من محاولة رسم معالم الحياة السياسية في مصر ، وايضاح علاقاتها السياسية مع الحبشة ، وانعكاس ذلك الواقع المادي على الفكر الذي انتجع السيرة الشعبية برؤيتها الاسطورية ، رغبنا ان ندلي بدلونا مع من أدلوا بدلوهم في تحديد زمن كتابة وتدوين السيرة ثم تفسير وتحليل الملابسات الذي أحدثه تداخل الشخصيتين الرئيسيتين (سيف بن ذي يزن) الملك الحميري و (سيف بن ارعد) ملك الحبشة ، على الرغم من البعد الزمني بينهما ، فأصيب المهتمون بالسيرة بدهشة واستغراب ، ورميت على الراوي الشعبي مسؤولية عدم التوفيق في اختيار الاشخاص ، وقد قال عنه الدكتور فؤاد حسنين علي « ولكن بينما نجد مؤلف السيرة يختار سيف بن ذي يزن قائدا للساميين اذ به يسند زعامة الحاميين الى ملك حبشي يدعي (سيف ارعد) فكان في اختياره للشخصية الثانية غير موفق . وقد أجاب على ذلك الرأي فاروق خورشيد حيث يقول « والواقع ان السيرة الشعبية لا تعترف بمنطق التاريخ في تركيبها الروائي » ولذلك فهو يراها « اقرب الى الاسطورة منها الى الرواية بمعناها المصطلحي الحديث .. وكاتب السيرة لا ينظر الى الصدق التاريخي بقدر ما يهتم باختيار ما يلائم الهدف الاساسي الذي يكتب سيرته من أجله » . ويقترب محمد رجب النجار من ابانة حقيقة ذاك الاختيار للشخصيتين غير الموفق على حد رأي الدكتور

فؤاد حسنين رادا بذلك على الدكتور حسنين فيقول : « ان هذا التناقض (أي بين زمن الشخصيتين) سرعان ما يزول اذا عرفنا ان هذا صنيع القاص الشعبي دائما في سائر الاعمال الملحمية بل في المأثور القصصي الشعبي بعامة ذلك ان القاص لا يعني بالواقع التاريخي الا بقدر ما فيه من رموز وان تضارب الزمان والمكان فالذي يهم هو التجربة التاريخية ودلالتها لا الحقيقة التاريخية ، وبمقدار ما تمثل هذه التجربة التاريخية من وظائف حيوية تؤكد له فضيلة انسانية او مثلا اخلاقية او مزية قومية او قضية اجتماعية مجتمعة بقدر ما يكون احتفاؤه بها . لقد جاءت تلك الردود ضمن اطار الذهنية الليبرالية وفهمها للامور ، وجاء حكمها ، وهو النتيجة ، مبنيا على تخمينات فكرية ليس لها أساس مادي موضوعي . ولقد تحملنا وحملنا معنا القراء مشقة البحث الطويل في الاحداث السياسية ، وانعكاساتها على الذهن او الجوانب الفكرية عند انسان ذاك الواقع لنخرج بتصور موضوعي ، وفهم واقعي لحقيقة ما سمي بالالتباسات الزمنية ، والتناقض في الاختيار .

ولقد سرنا بسيرة سيف مع الاحداث في مختلف القرون ، وحين دعت الضرورة التاريخية (سياسية او اجتماعية) لاستدعائه من الذاكرة العربية ، ووصلنا بالتتبع التاريخي حتى الحروب الصليبية وهي في قمة انتصاراتها ، والجيوش العربية الاسلامية مكسورة ومهزومة ، والوطن العربي ممزقا ومثخنا بجراح الحروب الصليبية . وحاولنا ان ندلل ماديا ، وثبت بالتحليل المنطقي ، تداول السيرة اثناء الحروب الصليبية ، واستدعاء سيف للضرورة القصوى لشخصيات من ذاك الطراز الوطني والقومي بما جرت عليه من احداث انتقال فاحتضان عربي له ، خاصة وقت الضرورة والحاجة التي فرضتها التدخلات الاجنبية في الوطن العربي بأسره ، وبقيت الذهنية العربية تلهج بسيرة سيف بعد ان اختارته بطلا وطنيا وقوميا للاسباب التالية : لاستمرارية التداول التاريخي لسيرته عبر الازمنة المختلفة ، ومنذ ان حملته القبائل اليمنية معها ، وقد تكيف ذاك التداول بمقتضيات

الحاجة اليه فسيف في الفترة الاولى جسد بطلا للقبائل المهاجرة تعتز به وبالانتساب اليه ، ثم سيف معين في الصراعات السياسية القبلية بين بني كلب اليمانية وقيس المضرية ، ، فهو الخلفية السياسية والعقائدية لليمانيـة في صراعهم مع القبائل العربية الاخرى على المراكز السلطوية في العهـد الاموي ، وحين انتهت الظروف السياسية المتأججة للسيرة والمنشطة لتداولها جماهيريا عاد سيف الى كتب التاريخ المقروءة بعد ان كان مسـموعا ومتـداولا ، ثم برز شعبيا من جديد في الحروب الصليبية لحاجة الوجدان العربي اليه ، لما فرضه الواقع الموضوعي المفروض من حالة تمزق وضياع عاشه العالـم العربي لاول مرة بعد خمسة قرون من الازدهار والتماسك ، لم يشهد فيها الوطن العربي الاسلامي تدخلا أجنبي المنشأ والدين الا في تلك الفترة ، وبعد خمسة قرون كان فيها العرب هم الفاتحون والغزاة ، فاذا الواقع ينقلب عليهم واذا بهم محل اطماع الاخرين فأضـحوا مهاجمـين بعد ان كانـوا مهاجمين ، وهي حالة لم يعشها العرب الا قبل ظهور الاسلام ، وقت ان كان العالم العربي ممزقا بين الامبراطوريتين الاعظم ، وفي خضم الصراعات القبلية المتأججة بالتدخل الاجنبي . وزادت التدخلات الاجنبية من الدول المجاورة الوطن العربي بؤسا فوق بؤسه خاصة جنوب الجزيرة العربية ، فتشابهت الصورة في واقع الوطن العربي بين المرحلتين الزمنيتين المختلفتين المتباعدتين ، الوطن العربي قبل الاسلام وهو مهدد بالقـوى الخارجيـة وممزق بينها ، وجنوب الجزيرة والجزيرة يتعرضان لاحتلال جيش بيزنطي نصراني لم تدحره غير حركة سيف بن ذي يزن الوطنية ، ثم هو في القرن السادس مهدد ومحاصر ، بل وممزق بين اطماع ملوك الافرنج وامرائهم ، والتدخل الاجنبي حائئذ له والمحتل القادم نفس ملامح وصفات الغازي انذاك . جيش بيزنطي نصراني ، ثم افرنجي نصراني ، وبنفس الاهداف والشعارات الاستعمارية الدينية .

هاتان الصورتان الشبيهتان ببعضهما فرضـتا انتـزاع البطـل بعد إختياره بدقة وعناء ان يمثل دور البطولة الموكل اليه من قبـل الواقـع في

الوجدان الشعبي • فأتت عطاءات ذاك الوجدان الادبية مستجيبة للواقع ومتجاوبة معه ، حتى انتفت الحاجة لظهور بطل حقيقي هو « الملك الناصر صلاح الدين الايوبي » • و « ان وجد الماء بطل التيمم » على حد رأي المثل الشعبي • وملامح الصورة في الوطن العربي ، ويفرض واقعا جديدا ومغايرا •وتتحول صورة سيف وسيرته البطولية الى فلكلور أدبي شعبي يروى مشافهة • حتى تطل على الوطن العربي عصور اخرى ، ويتحول واقع الحال في الارض العربية بالتدريج وعبر تراكمات سياسية سلبية ـ على الرغم من الاشراقات المحدودة ـ الى واقع حال تعاد فيه كل صور التمزق ، وتسير فيه الامور الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الى التدهور والانحطاط والشلل الكامل ، وقد أتينا على سرد ذلك لابانة الصورة وتوضيحها فيما سبق ، واسهبنا في شرح الاوضاع السياسية في عصر المماليك والذي تم فيه كتابة السيرة • ونختار للتعبير بدقة اعادة صياغة السيرة بما يتطلبه الواقع الموضوعي في القرن الثامن وبالذات العلاقات المصرية الحبشية ، ثم تدوين ذلك واخراجه على الصورة التي بين أيدينا • فما تم اذن ليس تاليفا وكتابة ، وانما هو « اعادة صياغة وتدوين » لسيرة متداولة وفلكلور ادبي شعبي مسموع فالاختيار موفق وجاء مستجيبا لحاجات الواقع وملبيا له • وهي لذلك تعترف ـ أي السيرة ـ بمنطق التاريخ بل وتجاوره حسب حاجياته • وكاتب السيرة يتناول الحقيقة التاريخية ويتعامل معها بقدر ما تحتاجه من صور منزوعة تلائمها ، ولذا ليس هناك من تناقض زمني بين الشخصيتين ،وانما هناك بعد زمني معطاء يأخذ ويعطي حسب الحاجة ، ولا يعطل رغم تباعده العملية الديالكتيكية بين الصورة والواقع لشخصية البطل المعني •

والقاص الشعبي تهمه الحقيقة التاريخية بنفس القدر الذي تهمه التجربة التاريخية ، وبمقدار ما تتطلبه الحقيقة التاريخية يقيس عليها تفصيل التجربة التاريخية بما يزيد وينقص ، وبما تتطلبه من وظائف حيوية تؤكد له قضية اجتماعية ، او تثبيت موقف او وضع سياسي ، او تعمل على خلق قيم اخلاقية اجتماعية او سياسية • على الرغم مما ساد السيرة من صور

اسطورية ، او بتعبير اكثر دقة على الرغم من السرد الاسطوري للسيرة ، والذي جاء كمنتجع للذهنية الاسطورية الغيبية في القرون الوسطى (مرحلة التدين) وهي الامتداد الطبيعي للذهنية الاسطورية الخرافية في (مرحلة السحر والشعوذة) ولذلك لا غرابة ان رأينا في السيرة الشعبية تداخلاً للمرحلتين وانتزاع الصور الاسطورية منها ، ويربطهما بلحمة روائية امتعت القاريء والمستمع ، الا انها اربكت المؤرخين والنقاد واستفزتهما بمقدار ما جرتهما • ولاجل ذلك تجرأنا مرة اخرى لنقوم بتحديد الفترة الزمنية التي اعيدت فيها صياغة السيرة بعد ان عومها المهتمون بالسيرة • فقد كتب الدكتور فؤاد حسنين يقول : « وكتابة هذه السيرة التي يرجح انها وضعت عقب وفاة سيف ارعد اعني حوالي نهاية القرن الرابع عشر او اوائل القرن الخامس عشر » انتهى كلام الدكتور في التحديد الزمني لصياغة السيرة بصورة مطاطية وتقريبية طويلة زمنية ، وتكاد تشمل قرنين من الزمن ، وعلى أساس ان ما تم هو كتابة أي تأليف للسيرة ، وليس اعادة صياغة ، ولنا في ذلك وجهة نظر في التقدير الزمني ، بعد ان طرحنا وجهة نظرنا في موضوع اعادة صياغتها •

ان ما يحملنا على تقدير الفترة الزمنية التي اعيد فيها صياغة السيرة بتلك الفترة المحددة والممتدة من عهد قلاوون الى ما قبل كارثة الوباء والفناء الجماعي اي اثناء العهد القلاووني هو الرؤية الموضوعية للسيرة • فلو ان اعادة الصياغة تمت بعد الوباء فان من المستبعد جدا خلوها من ذكر الفاجعة المروعة التي شملت كل الانسانية ، فلم تترك بيتا الا وافنته او تركت بعضا منه يبكي الاجزاء المفقودة فيه ، لذا فقد انتزعت الكارثة اهتمام الاجيال البعدية فتأثروا بما حدث وعكسوه في ادابهم الروائية والقصصية والشعرية وغيرها • كما ترك بصماته في تفكيرها وفلسفتها فازدادت الافكار الغيبية رسوخا وطرد او بعبارة ادق وطوردت الاراء والافكار العقلانية والعلمية وهزمت في هذا العصر هزيمة شنعاء ، على الرغم من صحتها المعرفية ، ولم

تستطع بعد ذاك القرن ، وحتى الان ان تسترد انفاسها في العالمين العربي والاسلامي • ومع ادراكنا بأن الافكار العقلانية كانت على وشك ان تنهزم لمجمل الظروف التي حكمت الواقع العربي وبالذات في القرون الثلاثة الممتدة من السادس حتى الثامن للهجرة الا ان الهزيمة الانسانية المتجسدة في الكارثة العظمى « الفناء الجماعي » قد عجل في وأد ودفن الفكر العقلاني العربي الاسلامي ، لهول الكارثة وضعف القدرات البشرية انذاك على كبحها والحد من عتوها ومحاصرة نكبتها وفجيعتها •

لذا اخذنا على عاتقنا مهمة تحديد الفترة الزمنية التي اعيد فيها صياغة السيرة ، حتى نقطع الشك باليقين • فمن غير المنطقي ان تكتب سيرة متداولة وشعبية بعد فاجعة انسانية عظيمة ومروعة دون ان تأتي على سيرتها او تشير اليها ، او تمر مرور الكرام على ذكرها •

ومن الاسباب التي تجعل تقديراتنا محددة للفترة الزمنية هي أن السيرة التي بين أيدينا والمتداولة شعبيا منذ العصور الوسطى وحتى يومنا هذا ، احتواؤها لقيم وأخلاقيات سادت في العهد القلاووني اتى بها سلاطين ذاك العهد ثم عكسوها بدورهم على الجماهير الشعبية ، فتأثر بها العامة من الناس ، ومارسوها في سلوكهم اليومي ، كما يبدو ذلك من خلال السيرة الناطقة والمعبرة عن الشعور والممارسات باعتبارها انعكاسا شرطيا للحياة الاجتماعية بمجمل قيمها • تحتوي السيرة قيما وأخلاقيات بعيدة عن القيم الانسانية السليمة والسوية ، سنأتي على ذكرها فيما بعد •

ومرة اخرى يختلف مقيمو السيرة عن الاهداف التي من أجلها كتبت السيرة ، وينتحون بذلك شتى المناحي • فمنهم من يرى الهدف برؤيا رومانتيكية ، كما يؤكد على ذلك الدكتور عبدالحميد يونس ، والذي يرى ان الملحمة او السيرة تحكي : الرحلة من واقع يؤكد العجز والقيد الى مثال يشيع منه العدل ، ويتسع فيه الشعور بالقدرة فتتحرر الارادة ــ على حد تعبيره ــ كما يتحرر العقل والضمير » • هكذا لخص الدكتور هدف

السيرة بكلمات تحمل من الغموض ما يخلق حولها من الاشكالية في التحليل الشيء الكثير • الا اننا نختلق عذرا للدكتور فقد تناول السيرة ادبيا وجماليا ، وكنا نفضل الا يخوض في تحديد اهداف السيرة مادامت رؤياه ادبية وليست تحليلية نقدية فلسفية • أما عملية التطويع القسري ، للرؤيا الفلسفية للنهج الادبي الرومانتيكي ، غير المحدد ، فهي عملية مرفوضة ، كما انها ساقطة معرفيا لانها لا تعطي المعاني أبعادا معرفية مفهومة ومحددة وملتزمة •

يلخص فاروق خورشيد هذه السيرة بقوله : « ان الهدف الانساني من هذه السيرة هو رسم صورة هذا الانسان القلق الباحث عن المعرفة ابداً • التعرض لكل أسباب السيرة في سبيل أهم غرائزه واقواها وأكثرها دلالة على انسانيته ، اعني غريزة الفضول وحب الاستطلاع او غريزة المعرفة » • ويتابع رأيه بقوله : « القضية الانسانية الكبيرة التي تعالجها السيرة اذن هي رسم صورة الانسان الباحث عن المعرفة » •

هذا هو هدف السيرة من وجهة نظر « فاروق خورشيد » البحث عن المعرفة ، وقد حركه الى ذلك غريزة حب الاستطلاع • نحن اذن في طور الغرائز ليس الا ، ويبدو انه ليس هناك محل عند فاروق خورشيد للاهداف السياسية والطموحات الشعبية للتخلص من أوضاع والتطلع الى أوضاع اخرى مغايرة يجد الانسان فيها ذاتيته الانسانية والاجتماعية • نحن فقط امام دوافع فردية ، على الرغم من جماعية الاستماع والتداول للسيرة • ومرة اخرى ندخل في اشكالية التلبيس والتركيب التعسفي لما يطرحه الكاتب على حقيقة وواقع السيرة بأهدافها غير المرئية او المباشرة • ولذلك ارجأنا رأينا في الموضوع حتى نلخصه في نهاية استعراضنا لآراء النقاد في السيرة الشعبية والاهداف التي كتبت من أجلها •

أما الدكتور فؤاد حسنين فيرى ان هدف السيرة هو التبشير بالاسلام في الجاهلية(*) • وليس لنا اعتراض على ذلك • الا من حيث كونه يمثل هدفا من الاهداف العديدة التي وضعتها السيرة ورواتها نصب أعينهم •

ويلخص غالي شكري في كتابه ادب المقاومة هدف الملحمة بالعقدة اللونية ، فيرى انها تؤرخ للصراع القادم بين الملك اليمني الابيض ، وملوك الاحباش السود ، ومن ثم ـ على حد تعبيره ـ فهي تكاد تحمل لواء التفرقة العنصرية بين الساميين والحاميين(**) ويحمل نفس الرأي الدكتور اليمني « الظافري » • وعلى الرغم من عدم استبعادنا لدخول العامل اللوني كدافع من الدوافع الكثيرة التي حفزت اليمنيين للثورة ، وهو دافع نفسي أكثر من كونه ماديا • الا انه ليس العامل الوحيد ولا يمكن ان نعد الصراع اليمني الحبشي بسطحية وتبسيط صراعا لونيا ، فنلخص عداوات تاريخية وبمعطياتها السلبية اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا بمجرد التحسس النفسي اللوني من قبل اليمنيين ضد الاحباش •

ويلامس الاستاذ محمد فهمي عبداللطيف الحقيقة طفيفا ، وفوق هذا يلخصها الى الحد الذي كاد ان يضيعها من يديه ، حين كتب يقول : « انما كتبت بهدف ديني ، وهدف سياسي ثم هي قصة الوحدة التي كان يمثلها صلاح‌الدين الايوبي(***) • وكنا نأمل من الاستاذ ان يقول لنا : هل خطط للاهداف من قبل الجماهير ، او الدولة ؟؟ ثم كيف استوحى في ان القصة تجسد الوحدة التي كان يمثلها صلاح‌الدين الايوبي ؟؟ كيف استنتج ذلك ؟ وما هو الداعي لاستعارة سيف بن ذي يزن الحميري بطلا لوحدة حققتها شخصية اخرى ، هي الشخصية الايوبية التاريخية ؟؟ ان العسف والمقدمة الخاطئة في تركيب الاحداث ، يؤدي الى نتائج خاطئة وقسرية •

(*) د . فؤاد حسنين علي : قصصنا الشعبي ص ٥٣ طبعة القاهرة .
(**)غالي شكري ، ادب المقاومة ص ٧٤ طبعة بيروت •
(***) مجلة الفنون الشعبية مقال اليمن في قصصنا الشعبي ص ٤٤ العدد الاول يناير سنة ١٩٦٥ القاهرة .

يبدو ان تقديرات الدكتورة نعمات احمد فؤاد حول هذه الملحمة لو ضمت الى الاهداف التي وضعها الاستاذ محمد فهمي للامست الصورة المكتملة الحقيقية . الا ان رأي الدكتورة ، بالرغم من عدم استحسان الجميع له . فقد كادت ان تلامس لب العقدة ، وصلب الموضوع خاصة لو استطاعت اظهار ذاك الخوف في اطاره المادي الاقتصادي ، كتبت تقول : « تعكس الملحمة ، خوف مصر التقليدي على النيل من فرط تعلقها به » . كنا تتمنى ان تتوقف الدكتورة قليلا عند ذلك ماديا واقتصاديا لنطمئن الى رأيها ، الا انها بترت تقييمها لهدف الملحمة ـ حين واصلت حديثها عن ذلك . فقالت : « تخشى عليه بحبها له الحدثان والانسان والمطامع »(*) .

ويرى صاحب الرسالة محمد رجب النجار ان السيرة كتبت لتنقية العقيدة من شوائب السحر والخرافة وبقايا الاسطورة ـ هكذا فسر محمد رجب امتلاء السيرة بالموروث السحري ، والصراع القائم بين الدين الجديد الداخل مصر ، والموروث السحري القديم فيها ، ولا ندري كيف توصل محمد رجب النجار الى ان امتلاء الملحمة بالموروث السحري ، أنما هو بهدف تنقية العقيدة من شوائب السحر والخرافة ، وان الصراع الذي كان يخوضه ـ باعترافه ـ سلاح علوم الاقلام والحكمة والسحر ، انما هو ضد السحر والسحرة ، كما اننا في حيرة من وصوله الى نتيجة ان الملحمة تدين السحر والكهانة ـ على حد تعبيره ورأيه ـ منذ صفحاتها الاولى(**) . « وهدف الملحمة رغم ما حفلت به من كم هائل من السحر انما جاء لابقصد التأييد والتمجيد والاقرار له ، وانما بقصد محاربته والقضاء عليه لتخلص منه ـ كما يرى الاستاذ النجار ـ الذات العربية العامة . ويواصل كلامه ، « ومن ثم تخلص العقل العربي من قيود السحر والخرافة . كما تخلص الفكر الديني من براثين الوثنية الكامنة في الذات العربية بعامة » .

(*) د . نعمان حمد فؤاد شخصية مصر ص ١٤٣ ـ ١٤٥ .

(**) من رسالة دكتوراه لمحمد رجب النجار « البطل في الملاحم الشعبية العربية جامعة القاهرة .

ويرى النجار ان مهمة البطل في الملحمة هي محاربة السحر بمختلف ضروبه ، أكان ذلك من المعتقد الديني ، ام من الفكر ، والسلوك والقول ويجعل من ذلك غاية ينشدها • (ث • م) ـ « ان القضية المميزة لرسالته هي تحرير الانسان العربي من براثن الوثنية وتحرير العقل ـ من ثم ـ من شوائب السحر والخرافة ، ويواصل النجار تحليله للملحمة وللهدف الذي تبنته متصورابذلك إنه قد وضع يده على الحقيقة ، او بتعبير ادق « وينبغي ان نضع في اعتبارنا ان الملحمة تجعل من الكون وحدة واحدة متصلة لا فرق فيه بين عالم الانس او عالم الجان ، ورسالة البطل متصلة وواحدة في الحالين » •

هذا ملخص موجز لبعض الاراء التي قيلت في السيرة ، والهدف من كتابتها وروايتها ، من وجهة نظر المتناولين لها • فما هي أهداف السيرة برؤيا مادية نحاول بها الاقتراب من الحقيقة ، لنتجنب الاراء غير المحددة والغامضة ، ونضع النقاط على الحروف •

لقد حملت الفترة الممتدة من القرن الثامن حتى القرن الحادي عشر بوادر نهضة تجارية بورجوازية مبكرة ، وفرخت معها ذهنيتها العقلانية العلمية ، على الرغم من بقاء التشكيلات الاجتماعية الاخرى ، وبالذات الاقطاعية منها ، والتي سرعان ما أنقضت وبشراسة عليه حين وجدت الفرصة مناسبة اثر تغلغل الاقطاع الاسلامي الى العالم العربي ، فتواطأ معا لاجهاض البوادر الاولى لمجتمع رأسمالي تجاري السيادة فيه للفكر العقلاني ، وكان من نتائج تطور التواطؤ احكام قبضة الاقطاع بفصائله الاكثر تخلفا ، ولم يطل القرن الثالث عشر ، والرابع عشر الا وقد انعكس التواطؤ بحلقته المتخلفة على الحياة الاجتماعية في العالم العربي ، وزاد من هجمة قوى التخلف الاقطاعية تعرض الوطن العربي للغزو والاحتلال الاجنبي المتخلف الشرقي ممثلا بالمغول ، والغربي وقد مثله الصليبيون ، ثم تسلل الاقطاع الشرقي المسلم الى سدة الحكم والسلطة ، وفتح الطريق الى ذلك

الايوبيون ومثل قمته المتخلفة المماليك ، وفي هذه المرحلة ـ أي مرحلة سيطرة الاقطاع المتخلف العربي والاسلامي وجد الفكر العقلاني مصرعه ، وكان لابد من شغل الفراغ بفكر تستطيع الذهنية الاقطاعية المتخلفة ان تستوعبه ، وهو نتاج طبيعي للواقع المتخلف والمتردي ، والذي سيطر فيه الاقطاع على بنيته الفوقية ، وأملى على الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي كل ارهاصاته الفكرية المتخلفة فسيطر الفكر الغيبي الاسطوري بعد ان هزم تاريخيا الفكر المتنور والعقلاني ، وتدافعت الموروثات السحرية بجسارة وتحد من مرحلة السحر ـ أي مرحلة ماقبل التدين • وتقافزت المردة والجان والشياطين بجسارة لا تحد بعد ان ربطت عقالها وسيستها الاديان السماوية • ولم ترفض وجودها او تلغي دورها ، ثم حاول الفكر العقلاني في مرحلة سيادته ضربها والقضاء عليها • الا ان الهزيمة التي لحقت به من جراء ذاك التواطؤ قد سمحت للموروث السحرية وأبطاله المردة والكهنة والجان للعودة الى مسرح الحياة الفكرية ، وتأدية ادوارهم فيها على الصورة المطلوبة ، والموكلة اليهم من قبل الانسان بذهنيته الاسطورية المتقهقرة معرفيا رغم تقدمها الزمني •

ولقد حفلت السير ، وغيرها من السير التي دونت في تلك المرحلة المتقهقرة ، بكم هائل من الموروث السحري كنتيجة طبيعية وحتمية للتقهقر الذي أصاب الواقع العربي ـ الاسلامي وذهنيته ، وصبغت مرحلة الانحطاط الذهن العربي بصبغتها المتخلفة ، وعليه لم يأت امتلاء السيرة بذاك الكم الهائل من الموروث السحري ليمثل كما يعتقد الاستاذ محمد رجب النجار ، الصراع القائم بين الدين الجديد الداخل مصر ، والموروث السحري القديم فيها • بل جاء ليعيد الحياة اليه ويصبح امتدادا له بالتواطؤ مع الذهنية الدينية الاسطورية المشوهة والمشوهة ، والا كيف نفسر استعانة سيف في السيرة بالسحرة والمردة والجان والكهنة ؟؟ ـ الطيبين منهم ـ على حد رأي الذهنية الشعبية الاسطورية ، وقد جاءت تخريجاتهم التعسفية ، وبالذات « النجار » حول امتلاء السيرة بالكم الهائل من الموروث السحري ، على

انها تنقية للعقيدة من شوائب السحر والخرافة وبقايا الاسطورة ، ولاندري كيف توصل الى هذه النتيجة ، سيرة ممتلئة بالسحر والخرافة ، كما يؤكد هو ، لتنقية العقيدة من شوائب السحر والخرافة ؟ ولم يكتف بذلك ، بل واصل اصراره على ان ضراوة القتال الملحمي الذي خاضه بطل الملحمة كان ضد السحر والسحرة ، ولم يقل لنا بمن خاض سيف قتاله الملحمي ، كما لم يقل لنا من أين استنتج فكرته القائلة ان الملحمة تدين السحر والكهانة منذ صفحاتها الاولى ـ على حد تعبيره ـ ويواصل تخريجاته الذاتية البعيدة عن حقيقة وهدف الملحمة ، مركبا في ذلك ، رغباته الشخصية وأحلامه ، على ملحمة جاءت تعبيرا عن واقع انحطاط وتدهور ، وذهنية غارقة في التخلف ، بل وهي نتاجه الطبيعي ، وفي ذلك يقول : « الملحمة تحكي فترات التحول الحضاري » ـ ما هي صفة ذاك التحول ؟؟ لا نعرفه فلم يتفضل ليقول لنا عنها شيئا . ويواصل : « التي تخوضها الذات العربية العامة تأكيدا ، واثباتا لحقها في الوجود الحر الكريم العزيز » . اذن في فترة الانحطاط تحكي الملحمة فترات التحول الحضاري ، ولو قال لنا ان الملحمة تناضل في واقع الانحطاط والتدهور من أجل التحول الحضاري لكانت مقبولة وطبيعية ، أما عبارته ان الملحمة تحكي فترات التحول الحضاري فانه لم يوفق فيها . هذا اضافة الى تحميل المرحلة صفات ليست لها ، ولا تعبر عن حقيقة الواقع العربي في تلك الفترة التاريخية . كما يصر على ان الملحمة انما حفلت « بذاك الكم من السحر والخرافة لا لتؤيده ، أو تمجده او تقره ، وانما لتحاربه وتقضي عليه لتتخلص منه الذات العربية العامة .. ومن ثم تخلص العقل العربي من قيود السحر والخرافة . كما تخلص الفكر الديني من براثن الوثنية الكامنة في الذات العربية بعامة . والبطل بحسب رأيه ، ومن وجهة نظره « يحارب السحر بمختلف ضروبه أكان ذلك من المعتقد الديني ، أم من الفكر والسلوك والقول ، ويجعل من ذلك غاية ينشدها فانه يحق لنا ان نقول ان القضية المميزة لرسالته هي تحرير الانسان العربي من براثن الوثنية ، وتحرير العقل ـ من

ثم من شوائب السحر والخرافة » • تلك اذن النتيجة التي توصل اليهـا المؤلف النجار محاربة السحر والخرافة ، ولم يفطـن الى ان نتيجتـه هـذه ستتناقض وأفكاره المسطرة التي ترد بعد قليل من نتيجته بل على اثرهـا مباشرة حيث يقول « ينبغي ان نضع في اعتبارنا ان الملحمة تجعل من الكون وحدة واحدة متصلة لا فرق فيه بين عالم الانس او عالم الجان • انه يقر بوحدة اسطورية خرافية حملتها الملحمة ثم يصر على ان الملحمة وبطلها كانا لمحاربة السحر والخرافة •وليدعنا نسأله في حدود الملحمة ،من كان يأتي بالسحر والخرافة ؟؟ أليسوا السحرة والمردة والجان الذين يقر هو بوحدة عالمهـم مع عالم الانسان • لقد أوقع الكاتب نفسه في تناقض عاصف ، فحينا يسخر الملحمة لمحاربة السحر الذي يأتي به الكهان والجان ، وحينـا آخـر يقـر بوحدتهم الطبيعية مع الانسان ، وهو معذور في ذلك • فأن التمزق الذي يقع ضحيته ذوو الذهنية الغيبية الميتافيزيقيـة الاسطوريـة ، بين المعقـول البسيط غير المعقد ، وبين المعطيات الايمانيـة بجانبها اللامنطقي واللامعقول يجعل التمزق ومن ثم التناقض قائما في ارائهم وكتاباتهم • لقد كان من الممكن ان يقول ان السيرة حفلت بكم هائل من الموروث السحري ، ويتوقف دون ان يصدر حكمه الفوقي من انها حفلت به لتحاربه وتقضي عليه •

لقد جاء امتلاء السيرة بالسحر والخرافة لا ليحاربهما ، ويقضي عليهما ، وانما ليعبر عن واقع الحال في عصر الانحطاط ، ويجسـد مأزق الذهنيـة الاسطورية المتخلفة الذي وجدت نفسها واقعة فيه بحكم التخلف والانحطاط والتدهور العام ، وبحكم ذاك التخلف والانحطاط وجد الموروث السحري القديم المناخ مناسبا في الواقع المتدهور ، وفي الذهنية المتقهقـرة لينقض عليهما من جديد ويفرض نفسه • ثم ليسيطر ويحرك كيفما اراد ذهنية الفرد والجماعة ، ويترك بصماته ، بل ويطبعهمـا بطابعـه ، فيأتي العطاء الثقافي والفكري مصبوغا بصبغته ، متلونا به كحتمية موضوعية • فعطاءات الفكر مستقاة من الواقع الموضوعي المتخلف ، والواقع ذاك بتدهور جوانب الحياة

المتعددة فيه ، بعد تواطؤ الاقطاع العربي ـ والاسلامي للانقضاض على البشائر الاولى للفكر المادي ـ الهرطقي ـ العقلاني ، على أثر تلك الهجمة افسح للموروث السحري وللفكر الاسطوري من جديد مجال العودة . بل وبالتجذير والتصليب في الذهنية الغيبية الاسطورية المهزومة والمندحرة معرفيا ، والنشطة تاريخيا واجتماعيا .

من هنا يأتي امتلاء السيرة بالموروث السحري . كانتجاع طبيعي للذهنية الاسطورية المتخلفة ، وليس لمحاربته والقضاء عليه والتخلص منه ، كما لا يأتي امتلاء السيرة به ليمثل الصراع القائم بين الدين الجديد الداخل مصر والموروث السحري القديم فيها ، ففي تلك الفترة لم يعد الدين الاسلامي في مصر جديدا بعد مرور ثمانية قرون من الزمن، بل هو انذاك يعيش في واقع دخل طور التدهور والانحطاط ، ولذا اصبح الدين يستدعي الموروث السحري القديم لينصر كل طرف منهما الاخر على بقايا الفكر المتنور هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى تثبيت دعائم الاقطاع الاسلامي المتخلف ممثلا بالمماليك . فلا هناك صراع بينهما ـ أي بين الدين والموروث السحري القديم ـ الا في ذهن الكاتب فقط . واذا ما قفزت الى السطح تساؤلات من حارب اذن سيف في الاسطورة ؟؟ سيرد على السؤال سؤال من نوعيته هو جواب له في نفس الوقت وبمن حارب سيف الجبهة المضادة ؟ وكل ذلك يأتي في سياق تخريجات الذهنية الاسطورية المسيطرة على انسان تلك المرحلة . ولذا جاء الموروث السحري ضد ومع الشخصيتين التاريخيتين « سيف بن ذي يزن » اليماني الحميري و « سيف ارعد » الحبشي الامهري ، وهي مع الاول قوى اسطورية خرافية خيرة ، اما مع الثاني فقد مثلت قوى سحرية شريرة . هكذا ارادت الذهنية الشعبية الاسطورية ، وذلك كان انتجاعها الروائي الفني لا للمحاربة ولا للمنازلة ، بل هو افرازات طبيعية لطبيعتها المتخلفة الغارقة في الاسطورة والخرافة .

الباب العاشر

سيف في الأدب اليمني المعاصر

بعد أن استعرضنا شخصية وحركة سيف التاريخيـة وسيف السـيرة الشعبية، وقمنا بتحليل لها، وحاولنا الخروج بتقييم شامل يضمن للقاريء التعرف على آراء اخرى جديدة في قضية أشبعت بحثا ونقاشا ، وما زالت بحاجة الى البحث والنقاش ، ليس من قبيل الترف الفكري ، وانما كما نظن لانصاف بعض القضايا والامور التاريخية للاستفادة في حياتنا العملية من ماض هو بالنسبة لكتب التاريخ قد انتهى وأصبح مجرد روايات ، الا انه في وجدان الشعب اليمني يستمد منه زخما روحيا وطنيا وقت الحاجة والضرورة ، خاصة لاولئك الذين يريدون ان ينفخوا في الصور روح الحياة لشعب عانى من ضروب التخلف اكثر من اي شعب آخر ، ولقد تناول الادب اليمني المعاصر المنثـور منه والموزون القضية اليزنية بالرمزية والمباشرية اما الرمزية فقد خاطبت في كثير من الاحيان روح سيف بقصد الاثارة ، وأحيانا اخرى بقصد التقريع والايلام المقصود منه العافية . فوجه شاعرنا اليمني عبدالعزيز المقالح ديوانا بكامله الى سيف بعنوان « رسالة الى سيف بن ذي يزن » ولا نـدري هـل يسمح المجال هنا لان نقتطف بعضا من الابيات لعلها تعطي صورة لمكانـة سيف في ضمير شعبنا اليمني حيث يردد شاعرنا حديث الحب :

موالا من الاشواق

صنعنا منك يا انساننا المصلوب في الافاق

وفي الاعماق
حفرنا رســمك المشــوق
في الاحــداق
وفي أفواهنا ما زلت اسطورة
وفي تاريخنــا
في جيلنـا تتوهـج الصـورة
وننتظــر ...

ما زالت جماهير شعبنا اليمني تنتظر طلوع فجر النهضة تأمل في القادم وتبشر به وشاعرنا الكبير يردد :

وأشرعة النهار على الجبال الربد تنـكسر
وتحتضـر
ونغرق في مواجعنـا
ويغرق حلمنا الاخضر
وعبر شواطيء « العربي والاحمر »
تظل جموعنا تسهر
وترقب فوق موج الليل
تشهد عند خط الافق خيل العائد الاسمر

ويستحث شاعرنا الشعب ويستحث الاحداث فالزمان يسير ، بل ان عالم هذا الزمان يكاد يطير من سرعة حركته لا ينتظر أحدا ، فمتى يستيقظ هذا الشعب ومتى تصل كتائب تبع ؟؟ وكأن الشاعر بتساؤلاته التنبؤية كان ينتظر المولود الجديد :

ولـكن الزمان يســير

وعالمنا يطير يطير

وأنت هناك لم ترجع

ولا عادت من المنفى

كتائب « قيلنا » تبع

لقد هدمت معابدنا ـ

ووجه الشمس لم يطلع

ونحن على مشارقها

عراة نشتكي نركع

فلا سمعت

ولا انت الذي تسمع

ويتأثر شاعرنا بأحاديث السيرة الشعبية التي تحكي رحلة سيف بن ذي يزن الى الحبشة لاخراج كتاب النيل وامتلاكه ، ويعكسه على واقع الاوضاع السياسية بعد ثورة ٢٦ سبتمبر والمساعدات الكبيرة التي قدمها الشعب المصري للشعب اليمني في الدفاع عن ثورته ، فيجمع سيف بن ذي يزن في حوار مع أبي الهول على أسطر القصيدة ليسجل ما قدمه أبو الهول (الشعب المصري) لسيف ابان محنته . كما جاءت لتذكر بالزخم المعنوي العظيم الذي قدمه سيف للشعب المصري ولشعوب المواجهة للاستعمار الصليبي في القرن الثاني عشر ميلادي الثامن للهجرة :

آلا تتكلم ... ؟

آلا تتألم ... ؟

على شفتيك بعينيك عاصفة تتحطم

وبين يديك وضعت جراح اليمن

وفوق الرمال نثرت اغترابي ...

الى ان يقول على لسان سيف محاولا بذلك ان يهز أبا الهول :

أتيتك أشكو اليك البثور

ابثك حزني ، وأنزع عن كاهلي مثقلات الصخور

ثم يذكره بالمأساة المشتركة بينهما في الظروف الراهنة مصر واليمن ، وفي واقع الانهيار حيث الكل غريب في وطنه :

كلانا غريب الخطى

وكلانا حزين

تفرق اتباعك المخلصون انطوى تحت ليل الرمال الرجال

وأتباعي ابتلعت شوقهم في الظلام الرمال

ثم يذكره بمحنة مصر في تلك الفترة الصعبة وهي تواجه الانهيار الداخلي في العصر المملوكي وموقف سيف الاسطورة والرمز من ذلك ، وقد أراد له الشاعر كما أرادت فيه الجماهير الشعبية في مصر ان يكون هو الامل :

أتذكر حين اختفى النهر

حين اختفت في الشطوط الشجر

تقدمت في موكب الشمس

اطلقته من سجون القدر

فعاد

وعاد النخيل وعاد الثمر

ثم يذكره بمحنة اليمن في العصر الحديث ، والموقف الدقيق الذي عاشته بعد تفجير ثورة ٢٦ سبتمبر ، والتي لولا مساعدة الشعب المصري

العظيم والجبار لكانت تلك الثورة قد انتكست كما انتكست قبلها انتفاضة عام ١٩٥٥م وانقلاب ٤٨ ضد الائمة .

وما زلت أذكر يوم أتيت شجاعا

لتدفع عن سور « صنعاء » عن « مأرب » هجمات التتار

وتزرع في كل درب تمر به زهرة للنهار .

تلك نماذج من رسالة الشاعر اليمني الى سيف بن ذي يزن ، وسيف هو اذن الصرخة المدوية في ضمير الشعب ، وهو نموذج المتيقظ الجديد القادم للشعب اليمني مع الاخذ بعين الاعتبار مفارقات المقاومة . ويشترك العديد من الشعراء اليمنيين في هذا الشعور ويتعاطف معهم المهتمون بالتاريخ والمثقفون الثوريون ولن ندخل هنا في هذا المجال الا مع الشعراء مخافة من طول الحديث :

يا من تغادر القبور

يا شعبي الذي يثور

لا بد من أن يعود (ذو يزن)

وثائرون يهتفون في (عدن)

و (مأرب) وحضرموت لليمن

ويذكرنا بالغزو والاحتلال الاجنبي ، ورمزه هنا بالغزو الحبشي البربري الذي تعرضت له اليمن قبل ظهور الاسلام وعانت منه بمرارة وقسوة رغم قلة سنين وجوده .

غدائري سنابك الخيول

مجنونة تدوس (أبرهة)

وتختفي الى الابد

عيون ليله المشوهة .

ويتمنى الشاعر ان يوصل مشاعره الى كل بيت وكل فرد يريد ان يحضهم على الثبات والصبر والشجاعة على لسان سيف :

أود ان تدق باب كل بيت
تحكي لها العذاب او تقول
شيئا من الثبات والصمود
فبالدماء تكتب الشعوب

واخرجت سيرته في الادب المباشر في ديوان شعر كامل بصورة مسرحية شعرية بعنوان « سيف بن ذي يزن » وتخرج المسرحية الاحداث التي سبقت حركة سيف بل والتي شكلت المقدمات المادية للاحتلال الحبشي حيث يتصور صاحبها ان الاحتلال قد جاء على أثر رفض ذي نواس تدخل الملك النجاشي في الشؤون الداخلية لليمن والتي حملها اليه سفير النجاشي ٠

وهو يوصيكمو بنجران خيرا فهي تشكو من العذاب الاليم
النصارى فيها يساقون للمو ت ويصلون في ديار الجحيم

ويرد عليه ذو نواس رد الرافض للتدخلات الاجنبية في الشؤون اليمنية بانفة وكبرياء متحديا بذلك ما قد يحصل من تحد بالمقابل كبير قد يكون هو سبب كثير من المصائب والمشاكل لليمن ٠

اترى يطلب النجاشي ان اصـ ـفح عن كل مارق واثيم

ويواصل رفضه مظهرا انه على استعداد لتحمل اي مشاق في سبيل صيانة كرامة الحكم والسلطة اليمنية ٠

نحن قوم اذا مشينا الى المو ت عدا الموت هاربا كالظليم

ثم يبلغ ذو نواس السفير رأيه بعد التشاور مع مستشاريه ويرمز اليهم في هذا الحوار بذي جدن ٠

قل للنجاشي يا سفير باننا في ارضنا وفعالنا احرار

ويبدي له حسن نيته ورغبته في السلام وحسن الجوار بعد ان افهمه موقفه من القضية •

لكنني اهوى السلام وغايتي   ان يطمئن الى جواري الجار

ويطلب اليه الابقاء على العلاقات الجوارية الحسنة بين البلدين المتجاورين رغبة في تجنب الصدام من جهة ، ومن جهة اخرى المحافظة على حسن الجوار والمودة •

لا تفصموا حبل المودة بيننا   ان المودة حبلها اسوار

وتذكروا عهد الوداد فانما   ينسى العهود الماكر الغدار

ثم يقوم ذو نواس بالاستعداد للطوارىء المرتقبة والمتوقعة فيصدر أوامره بتحصين المواقع ومراقبة السواحل ، ورص الجيوش توقعا لاي هجوم حبشي يأتيه من البحر •

فراقبوا البحر واستعدوا   وحصنوا مدخل السواحل

وتستمر الحكاية لتروي تقدم جيوش الاحباش الى الشواطيء اليمنية ، والهرج والمرج الذي ساد صفوف اليمنيين ، ويصف حالة الحرب ثم ينتقل الى وصف قاعة العرش في قصر ذي نواس وقد تحولت الصورة بعد الهزيمة واذا بارياط يجلس على العرش وبجانبه ابرهة ويكسوم ، ويدور حديث يتبادل فيه قواد جيش الاحباش التهاني والتبريكات ، وفي كلامهم نوع من الشماتة بما حل بذي نواس ولقد أراد الشاعر ان يصور الطريقة التي مات فيها ذو نواس ، وهي محل جدل كبير ، بحوار بين قادة الجيش الحبشي •

ارياط : وهل فر تبع

يكسوم : لا لم يفر من الموت لكن من العار فر الى اخر المقطع •

وقد أراد الشاعر ان يشهد ارياط على جلال الموت الذي لقيه ذو نواس :

ارياط :

لقد مات تبع موت الكرام وعاشت مناقبه في السير

ويدور الحديث عن الاسرى خاصة عن الاقيال ، ويحاول ارياط استمالة بعضهم وينجح ، ويرمز الشاعر الى ذلك باستمالة القيل حسان •

ثم يشهد المشهد الثاني حديثا يدور عن سيف وتخوف الاحباش منه أما المشهد الثالث فيحمل صورة للحب بين سيف وشمس ، مخففا بذلك الاجواء الحربية ثم يعاود من جديد العودة لمواصلة سرد قضية سيف ولجوئه الى ابناء العمومة ورغبته في ركوب المخاطر ثم فكرته كما يرى الكاتب الذهاب الى كسرى أنو شروان •

ويغادر سيف اليمن متوجها الى الجزيرة لتنفيذ مشروعه في الاستعانة بعرب الحجاز والتكتل معا ضد الوجود الحبشي في اليمن والذي لا يهدد بقاء اليمن والشعب اليمني فحسب بل والجزيرة العربية بأسرها •

ويسأل أبرهة احد فتيان حمير يبدو انه كان يتعامل مع الاحباش :

أبرهة :

اهل عندك من علم بسيف انه قد فر

حساف :

بحثنا عنه في الشرق وفي الغرب فلم نظفر

ويسير سيف مع آماله وطموحاته الكبيرة مغربا مشرقا ، ويتابع الشاعر روايته فيتحدث عن الاحتلال الحبشي لليمن والاعمال التي قام بها أبرهة من أجل نشر المسيحية في اليمن تحقيقا لهدف من أهداف الغزو الحبشي ، وتأتيه الوفود من كل مكان مهنئة مباركة كما جرت عادة الناس •

يكسوم :

يهناك يا مولاي هذا العيد عيد القليس الرائع المشهود

وعلى الرغم من عظم الكنيسة التي بناها أبرهة لتحل محل العبادات القديمة عند اليمنيين ، والجهود التي بذلها في تشييدها والاموال التي صرفت في البناء ، الا ان ذلك لم يصرف اليمنيين عن ديانة آبائهم وأجدادهم وبقوا على ولائهم لتلك العبادات والاديان .

ما زال للاوثان في أوطانها ذاك المقام الشامخ المحسود

والنيرات من الكواكب فوقها قد قام* « المقه » العظيم يسود

وتأتي محاولات اليمنيين وعرب الحجاز لتحطيم الكنيسة والنيل من مكانتها لخوفهم الشديد على دياناتهم ، وعلى وضعهم الروحي بين القبائل العربية ، وخوفهم العظيم من تحطيم تجارتهم وتحويل خطوطها . ويهرع يكسوم الى أبرهة يخبره بما صنعه الاعراب في الكنيسة القليس ومحاولة تحقيرها .

وتتعرض المسرحية للغزو الحبشي لمكة ، وتبرز أهم حوادثها وهي ما تعرضت له ممتلكات المكيين وعلى رأسهم عبدالمطلب حين ذهب الجند بقطيعه وشكواه من ذلك الى ابرهة .

ويحاوره ابرهة :

سيعاد القطيع لكننا نعـ ـجب الا تهتم بالبيت قبلا

أولست الحامي حمى البيت والمقرى جموع الجحيم ركبا ورجلا

عبدالمطلب في رده :

لست رب البيت العظيم فاحميـ ـه فحامي الحمى اجل واعلا

انما أنا رب ابلي وفي شأن حمـ ـا ها قد جبت وعرا وسهلا

(*) المقه اسم اله القمر عند الحميريين ومن قبلهم السبئيين .

وتواصل المسرحية الشعرية نقل صورة عن الاحتلال الحبشي لمكة وهزيمته في الصحراء •

أما الفصل الرابع وهو الفصل الحاسم في المسرحية يحكي رحلة سيف ومعاناته في الصحراء ورغبته في التوجه الى بعض القبائل العربية لنصرته •

سيف :

ففي قيس عيلان خير كثير وعند ربيعة فضل غزير

ويذكره الاعرابي بما بين القبائل العربية من تمزقات وحروب اخضعت جانبهم وشلت قواهم •

الاعرابي :

وعند ربيعة حرب البسوس لبكر وتغلب منها زفير
ثلاثون عاما مضت في نضال يدهدههم في حنايا الحفير
وفي كل ربع لنا غارة تسيل الدماء لها كالغدير

ولا تتحدث المسرحية عن فكرته في الذهاب الى الروم كما حصل عند بعض الرواة والمؤرخين مستبعدا لها من تفكيره كليا • وفي حالة الضياع التي كان يحس بها سيف بعد ان اصابه اليأس في نجدة القبائل العربية يرى ان الامل الوحيد في المساعدة لانقاذ اليمن من الاحباش هما فارس وكسرى •

لم يبق الا أنوشروان أقصده لعل في الفرس فضلا غير محجوب

ويصل سيف الى مدائن كسرى بعد رحلة طويلة ، ويقابل سيف كسرى ويشكو اليه حال بلاده ومعاناة أهلها من حكم الاحباش ويحمل سيف الى كسرى رغبة اليمنيين في مساعدته كما تصور لنا المسرحية •

لسيف :

ما لقومي من منقذ غير كسرى صاحب الصولجان والايوان

ويتشاور كسرى في المسرحية مع بهرام مستشاره الشخصي ويأتي رد بهرام بأبعاده السياسية :

بهرام : أرى ان نعينه في النضال ·

كسرى : ولمـاذا ؟

بهرام :

لان في الحبش السـحم حليفـا للـروم جـد والـي
فاذا هيمنـوا عـلى اليمن الخضـراء اضـحت للـروم في خـير حـال

وبعد حديث وهرز يتفق الجانب الفارسي على مساعدة سيف ، كما يرى الشاعر بالمساجين في سجون فارس ويعين على رأسهم القائد وهرز وتحملهم السفن الشراعية الى الخلجان اليمنية · وقد بيت كسرى نوايا الامبراطورية الفارسية في احتلال اليمن وتوسيع رقعة الامبراطورية ، واستطاع الشـاعر ان ينقل لنا تلك الرغبة او الفكرة التي راودت كسرى :

كسرى :

ان يك الحمـيري يطمـع في الجـ ـيش فقد خاب فالـه من فـال
لا أبالـي بالخيـل تذهب والاف ـيال لكننـي اعـز رجالـي
وعـزيـز علـي ان يفلـح الـ ـروم بتوطيـد ملكهـم في الجبال

اما المشهد الاخير فيحكي قصة انتصار اليمنيين على الاحباش وفرحتهم بالهزيمة التي لحقت بالاحتلال الحبشي ، ويصور حوارا بين معد يكـرب وشرحبيل في قاعة العرش داخل القصر الذي كان يسكنه أبرهة :

معديكـرب :

حمـدا لـذي العـزة والالاء طهـرت الارض مـن الاعـداء
قـد ارتـوت سـيوفنا من دمهـم بعـد حيـاة الـذل والشـقاء

ويستمر معد يكرب يشرح الوضعية التي عاشها يكسوم ، ويكسوم رمز الاحتلال الحبشي ، في آخر ساعاته وهو جار وراءه أذيال الهزيمة •

معديكرب :

رأيت ثغره يلثم	وجه الصخر في العراء
وعينه شاخصة كأنما	يدعو الى الاشفاق والرثاء

وبعد ان كرس شاعرنا مسرحيته لاظهار وطنية سيف العظيمة • والدور البطولي اليمني الوطني الذي صنعه لليمن وهي تعاني من أبشع احتلال لها في تاريخها الطويل التفت الشاعر الى الدور العروبي الذي لعبه سيف في الحجاز أدى الى ايفاء سيف حقه على الرغم من أهمية هذا الجانب فالحركة اليزنية لم تخلص اليمن فقط من جور الاحباش وانما قطعت الطريق نهائيا عليهم وعلى حليفتهم الامبراطورية الرومانية من احتلال الجزيرة العربية واخضاع طرق التجارة البرية والبحرية للنفوذ الروماني •

سيف :

جاءوا لذل العرب في الاوطان	فلقوا الغداة مغبة العدوان
لم تغن عنهم قوة وصلابة	فالحق فوق صلابة العيدان

أما الشاعر اليمني الكبير محمد محمود الزبيري فقد لجأ في اعماله الادبية الى الرمز فالتقى بسيف في « لقاء رائع » اجتمعت فيه العديد من الشخصيات اليمنية والعربية منزوعة من عصر سيف ، ومن شهداء الحركة الوطنية المعاصرة وهم عبدالمطلب بن هاشم وعثمان بن عفان وامية بن ابي الصلت ، واسعد تبع ، وسيف بن ذي يزن يرافقهم جميعا الشهيد عبدالوهاب نعمان والعربي محمود يجلس الجميع في قصر غمدان الذي اعيد بناؤه في الجنة •

في هذا العمل الادبي يغرق الشاعر في احلام وتخيلات من الماضي مكبوتة في اللاشعور ويتمنى عودة الماضي كما كان ، ويشعر بالعجز في اعادة خلقه في الواقع فيتخيله في العالم الاخر • المقارنة بين الصورتين واضحة صورة القصر التاريخي الكبير وهو بقايا اطلال بل وسجن في الحاضر ، وصورته الاخرى كما كان بعظمته القديمة • يستدعي العجز في اعادة بنائه ، تشيده في الجنة • والجنة عند شاعرنا صورة الحلم والامنية لليمن السعيد المشيد في المستقبل ، انه قصر غمدان الشامخ الباذخ اعيد بناؤه في الجنة •

لقد تحطم قصر غمدان بعد دخول الاسلام الى اليمن ، وتروي كتب التاريخ ان عامل عثمان بن عفان هو الذي أمر بتهديمه ويحاكم سيف عثمان محاكمة أدبية ، ويحاول عثمان ان ينفي التهمة عن نفسه ويبررها لعامله ، لقد أراد الزبيري بهذه المحاكمة ان يحاكم الاوضاع والظروف العربية بمجملها ذلك انه يعتبرها المسؤولة عن تخلف اليمن • لقد عكست المحاكمة معاناة الزبيري وشعوره بالمرارة تجاه الجامعة العربية في موقفها المتخاذل والخاذل لثورة الثامن والاربعين لاحرار اليمن ، وقد كان صاحبنا على رأسها •

ويستمر الزبيري على لسان سيف في محاكمة الجماعة ، ويحاول الجميع التبرؤ من مسؤولياتهم في التقصير تجاه مواطنيهم وشعوبهم ، ويقدم عبد المطلب تبريره لموقفه المتخاذل من الاحتلال الحبشي لمكة فيقول : « ـ وأنا • ماذا يعنيني من هذا كله ؟ وما دخلي فيه ، انني رجل مسالم ، ولا أميل الى الصراع • وليس ادل على ذلك من انني تركت الكعبة لحماية ربها وبحثت عن ابلي » • ويبدو الزبيري متهكما فيواصل الحديث على لسان عبدالمطلب « وقلت للغزاة أنا رب ابلي ، وللكعبة رب يحميها » • والادهى من ذلك والامر ان هذا الموقف المتخاذل كان في الدنيا « لذلك كنت وأنا في الدنيا فكيف تطمعون ان اعلن الحرب على مزاجي المسالم وأنا في دار السلام » • ويحاول أديبنا ان يستشرف المستقبل العربي فلا يرى فيه بصيص أمل ، كما يحاول عثمان بن عفان التخلص من التهمة الملقاة على عاتقه ، وهي مسؤولية

الفتنة الكبرى التي حدثت بين المسلمين في عهده ، ويقدم التبريرات لحدوثها فيعزوه الى التناقض بين سجيته وبين طبيعة الحكم •

« ان الفتنة الكبرى نشأت بسبب التناقض الشديد بين سجيتي وبين طبيعة الحكم ، ان الذين بايعوني لم تكن عندهم البصيرة النيرة فلم يعرفوا ولم يدركوا هذا السر ، والحقيقة انه حتى أنا لم استطع ان أعرف نفسي، ولم أتصور ماذا يحدث من التفاعل بين طبيعتي وطبيعة الحكم »(*) •

أما سيف بن ذي يزن ، وهو هنا رمز لثوار اليمن ، فيقف من قضايا شعبه موقفا مغايرا يعبر عنه بقوله اما أنا فرأيي مختلف عن رفاقي مع احترامي لحق الصحبة ، وأنا اشعر بأنني لازلت مسؤولا عن شعبي وعن بلدي(*) •

لقد اراد الزبيري ان يعبر عن اصرار المناضلين اليمنيين على المضي في مشوارهم النضالي مهما وعر الطريق لبناء يمن الحضارة ، والقدوة هنا منزوعة من الماضي من الحضارة اليمنية القديمة « قد أقمت معهم نظاما للحياة يشبه نظام اجدادنا من معين وقتبان وسبأ وحمير » ويحكم بانظمتها وقوانينها في يمن المستقبل بعد ان حرم منها يمن عهد الائمة « لقد كان لهم مجلس للقبائل ومجلس نيابي وادارات ومنظمات شتى كونها لها نظائر هنا في فراديسنا » •

ويؤكد الزبيري ايمانه بالجنة الا انه يسبقها ويصر على بناء الجنة ، جنة اليمن السعيد في الدنيا وهي بذرة جنة الاخرة « ان حمير كانت تؤمن بالجنة ولكنها تعتقد ان جنة الاخرة لا بد ان تسبقها جنة في الدنيا تكون لها بمثابة البذرة فمن لا يضع البذرة في الدنيا لا يجد الجنة في الاخرة »

كان هذا حديث سيف في جلسته مع وفد قريش ، ويحاول الزبيري ان يرسم رد فعل عبدالمطلب وعثمان على حديث سيف بن ذي يزن ، يبدو

(*) المصدر السابق ص ١٨٠ •

في الصورة عبدالمطلب غير مكترث ولكنه غير ممتعض • أما عثمان فقد كان حساسا من سيف ولا شك ان الزبيري يريد بصورته الرمزية هذه ان يصور موقف العرب من الشعب اليمني وثورته ومنهم المؤيد وآخر معارض وممتعض • ولقد أحس سيف بامتعاض الخليفة عثمان من نقده الحاد فحاول التخفيف بأن اعادالدمار الذي حل بالحضارةاليمنية وباليمن الى الصراع المرير الذي نشب بين اليهودية والمسيحية وماجره من ويلات دمرت اليمن وصعب عليه النهوض منذ تلك الفترة وحتى العصر الحديث ولم ينقذه من تخلفه الا الثورة الام في السادس والعشرين من سبتمبر •

ويتدخل في الحدث الضابط العراقي ج• ج• ليحمل سيف مسؤولية استقدام الفرس ويتهمه بأنه وراء تسميم روح الشعب بالاتكالية وينتزع الزبيري صورة من الحاضر من حركة الثامن والاربعين ليسوقها دليلا على المرض الذي تركه سيف موروثا للشعب اليمني « ولكنهم كانوا يشعرون شعورا غريبا بأن الجامعة العربية يجب ان تحضر الى عاصمة الثورة ولو لمجرد الضيافة ، بل كانوا يصرون على ان يشترك في حكومة الثورة وزراء من دول الجامعة لقد أراد الزبيري على لسان الضابط العراقي ج ج ان ينتقد تصرفات ثوار عام ١٩٤٨م وحاول يبررها «بالعقيدة اليزنية» كما كانوا يحاولون، ثم عاد وحملهم مسؤولية الفشل ورفض التبرير للروح الاتكالية • وعلى لسان الضابط الشهيد يقول : « ولا شك ان العقدة اليزنية كان لها تأثير بالغ على موقفهم وهي التي حملتهم على العجز عن التفريق بين فكرة الوحدة العربية كوجود اصيل وكعقيدة وهدف ، وبين واقع التجزئة الاثيمة التي يحرسها ويحميها سلطان القانون الدولي الاعمى ، وهو القانون الذي لا يسمح لدولة عربية ان تتدخل في شؤون دولة عربية اخرى » وينتفض المسمري ويقول ردا على تفسيرات الضابط الشهيد « ولكن ثورتنا كانت حكومة تمثل شعبنا وقد طلبت من الجامعة ان تتدخل في ارساء قواعد جديدة لدولة حديثة دستورية ، يشترك العرب فيها بارادة الشعب ويحاول الزبيري ان يحلل

موقف الجامعة المتحد المضاد للثورة وتمنى لو حدث نفس الموقف الاتحادي ضد اسرائيل • ثم قدم نصيحته للشعب اليمني ، ويبدو انه من الممكن تعميمها على الشعب العربي بأسره « وأحب ان اكرر وانصح الشعب بأن يفرق بين فكرة القومية العربية كوجود وعقيدة وهدف ، وبين مقتضيات العمل الثوري الذي يحدث في قطر ما وفي ظل تجزئة تحرسها دول كبرى » وحتى يقول : « ليس من المنطق ان تقوم ثورة محلية وهي تعتمد في لحظاتها الاولى على وحدة هي بالنسبة اليها لم توجد بعد ، ان في هذا اساءة الى الثورة المحلية والى الوحدة معا وهي اغفال ساذج لكل القوى والعوامل الدولية ، انه ضرب من الاتكالية متستر وراء الحماس للقومية العربية » •

وقد رد الزبيري على لسان سيف بن ذي يزن على الرامين مسؤولية فشلهم في الحاضر على كتفي سيف فيقول « يؤسفني ان يتناول الناس تاريخ عصري على هذا النحو وان يفرضوا علينا وعلى تاريخنا منطق عصورهم المتأخرة ومنطق مبادئهم ومستواهم في التطور الحضاري ، اننا كنا نعيش في عصر الاباحية الدولية » • لقد استطاع الزبيري ان يصور حقيقة معاناة سيف بن ذي يزن وجماعته كما صور معاناة ثوار حركة عام ٤٨ وربط بين الصورتين وانهى حدود المتاخمة بين الماضي والحاضر وامد القضية اليزنية التراثية بروح الاستمرارية مستلهما منها موقف الباحث عن حليف رافضا التبني الحرفي لمواقفها لاختلاف المرحلتين الزمنيتين ، القرن السادس للميلاد والعشرين منه •

لقد اردنا من استشهاداتنا الادبية ان نبين مكانة سيف في أدبنا المعاصر وهي تعبير عن مكانته التاريخية في اعماق الوجدان الشعبي وهو مكبوت في اللاشعور الجمعي عند الشعب اليمني بحد التعبير عن نفسه بصور شتى كلما استدعت الحاجة ذلك •

سيف والمستقبل :

استعرضنا في استطراداتنا القضية اليزنية بشقيها الواقعي التاريخي كحركة تحرر وطني ، والاسطوري الشعبي ممثلا بالسيرة الشعبية ، وقد جاء ذلك ضمن محاولاتنا للاستلهام من التراث جوانبه المضيئة ، سواء أكان ذلك على صعيد الخاص ممثلا بالتراث اليمني ، او في اطاره العام العربي الاسلامي الشامل • فقد كان التراث على غاية من الضرورة والاهمية ، من أجل ما نحلم به ونعمل من أجله الان وتتطلع اليه للمستقبل ، ومن العودة للماضي • وقع اختيارنا على شخصية سيف بن ذي يزن للثقل الذي مثله يمنيا وعربيا ، فحركته حسب تقييمات العديد من المفكرين وعلى رأسهم الفيلسوف الالماني انجلز والذي يقول في احدى رسائله الموجهة الى صديقه ماركس : « وكان ذلك الاجلاء للاحباش اول عمل بطولي مرهص بيقظة الوعي الوطني الذي كان من دواعي نشوئه ايضا غزوات الفرس »(*) •

مثل هذه الشهادة بدلائل من الواقع استعرضناها في دراستنا تثبت اهمية حركة سيف التاريخية لليمنيين بصورة خاصة ، وللعرب قاطبة ، على الصعيد التاريخي التراثي بوجهه العادي ، والتاريخي التراثي الثوروي للتقدميين داخل اليمن وخارجه في العالم العربي •

اننا بتحديدنا لموضوع استلهامنا التراثي ، هذا الذي نحن بصدده ، نكون قد وضعنا في حساباتنا ما نريد ان نستلهمه بالتحديد من الموضوع المحدد مسبقا ، والذي تناولناه الى آخر تفاصيله ، في محاولة منا استيعاب كافة جوانب القضية ، ونعنيها هنا بالتحديد الحركة الوطنية اليزنية ، التي اتاحت للخيال الشعبي ان ينسج حولها ذاك الاطار الواسع في القصص والحكايات الشعبية ، وما احتواها من موروث سحري ضخم •

وتوجد في اطار موضوعنا المحدد قضيتان : الاولى تتعلق بالذات اي بذات الحركة الوطنية اليزنية نفسها ، باعتبارها موضوع استلهامنا التراثي

(*) المصدر السابق ص١٨٠ • من الرسائل المتبادلة بين ماركس وانجلز ، الحكمة العدد السابع عشر ترجمة عبدالله فاضل •

الثوروي ، وعلاقة الذات بالموضوع ويمثل هنا الاستعانة بالفرس لمواجهة حرب الابادة التي كان يشنها نظام الحكم الاقطاعي الاوتوقراطي في الحبشة عبر أدوات احتلاله في اليمن • وقبل السير قدما في موضوع الاستلهام التاريخي ، لابد من ايجاد حلقة وصل تربط الماضي بالحاضر ليسهل الاستلهام في الحاضر من أجل المستقبل • فكيف يمكننا ايجاد مثل تلك الحلقة لنضمن استمرار وامتداد ذاك التاريخ المباشر حتى الحاضر ، لتنتهي حدود المتاخمة بين الماضي والحاضر ، ولنتعداه الى خط التداخل والتشابك بين الزمنين •

من الناحية التاريخية الواقعية فاننا نحاول مع من سبقنا في المحاولات من خلال دراستنا هذه مع تصوراتنا الاستلهامية ان نوجد الحلقة الواصلة بين الماضي والحاضر في سياقها التراثي الثوروي • أما جانب الخيال الشعبي ، فاننا ندعو الى استكمال عمل الاستاذ فاروق خورشيد في اعادته لصياغة السيرة الشعبية باسلوب حديث يتناسب والعمل المسرحي •

الا ان هناك جوانب النقص في اعادة الصياغة ، وهي الاضافات الابداعية الجديدة من الكاتب نفسه ، والتي لم تتم في عمل الاستاذ فاروق خورشيد ، لان هدف عمله كان في حدود اعادة الصياغة للعمل المسرحي فقط • دون ان يدخل فيه اهدافا بعيدة كالاستنهاض الوطني والثوري ، حتى يتمكن من ان يضيف من نفسه الاضافات الابداعية التي ننشدها ونطالب بها ممن يستطيعون ان يترجموا بلغة أدبية ، عملية الاستنهاض الوطني المطلوبة ، فيعيدوا صياغتها مع الابقاء على جانب الخيالات الجميلة ، وحذف الجانب الاسطوري الخرافي ـ أي انهاء الموروث السحري ، والذي خلقته في السيرة ذهنية العصور الوسطى المهترئة في الوطن العربي وبالذات في مصر المملوكية •

اننا نريد اعادة صياغة للسيرة من مواقع اجتماعية ايديولوجية تستطيع ان تحدد الاطار العام الذي نريد ان تتبلور فيه آفاق ذاك الاختيار • كما حاولنا في عملنا هذا حين تناولنا الجانب التاريخي الواقعي ، والتأثيرات

الواقعية في الجانب الاسطوري من القضية اليزنية ، فقد انطلقنا من مواقع اجتماعية ووجهة نظر ايديولوجية محددة بمنهجية علمية واضحة تمكنا بها من تحديد الاطار العام الذي تبلور فيه الاختيار فتمكنا بذلك ان نفهم مجموع الاحداث التاريخية كما كانت عليه حالئذ . وان نفك طلاسم العمل الشعبي المتجسد في السيرة ، والذي وقفت منه جميع الآراء المثالية موقف الحائر او المفسر له بصورة عشوائية انتقائية غير قادرة على ضبط الامور في السيرة . لتحديد وضعها الايديولوجي والاجتماعي في التاريخ ، ومعرفة حقيقة تركيب الاحداث الذي تم في السيرة وبالصورة التي وردت عليها ، بعد تحليل لعلاقاتها الداخلية ، التي تربط بين الواقع الموضوعي والتصورات الذهنية للعقلية الشعبية التي صاغت السيرة .

ان رغبتنا باعادة صياغة السيرة أدبيا من وجهة نظر ايديولوجية محددة وبما يتناسب وواقع التحولات والتطورات السياسية والاجتماعية في بلدنا ، وبما يخدم أهداف ثورتنا والثورة العربية بوجه اعم يحملنا على ان نضع ذلك كمقترح امام جميع ادبائنا العرب الملتزمين ، لدخول موضوعنا هذا في صلب الفكرة الثورية المطروحة في عالمنا العربي ، التي ترى ضرورة مد جسور ثورية مع التراث ، وربطه بعلاقة جدلية مع الثورة العربية المعاصرة لاحداث الثورة الثقافية المطلوبة كعامل فعال من عوامل تثوير الواقع ، وتجذير الثورة الاجتماعية .

ان دراسة حركة « سيف بن ذي يزن » والذي اقدمنا عليها هنا باعتبارها أول حركة وطنية ، وبامتدادها التراثي قومية الملامح ، تأتي ضمن تثوير تراثنا العربي الاسلامي ، والذي نريد به ان يخدم قضية الثورة الثقافية وهي احدى المهام المطلوبة لاحداث الثورة الاجتماعية ، الواقعة على عاتق المثقف الملتزم في المرحلة المعاصرة .

أما اخراج الجوانب الادبية فيها روائيا فيندرج ضمن مسؤولية ادبائنا العرب بما فيهم اليمنيين ، ذلك ان هذا الجانب بالتحديد من القضية

اليزنيةهوالذي اعطى الحركة بعدا قوميا ، ومهمتهم هي تجسيد البعد القومي ، مع ادماج الوطني فيه ، بما يخدم ومقتضيات الحاجة الاجتماعية السياسية الثورية في الان على غرار العملية الادبية التي تمت كعمل أدبي فيالسيرة في القرن الثامن للهجرة حين اخضعت السيرة للاهداف السياسية التي أرادتها الدولة ونقصد بها دولة المماليك القلاوونية .

ان اعادة تركيب الجانب الادبي الروائي في القضية اليزنية مهمة تراثية ملحة كونها تدخل ضمن حدود الثورة التراثية الثقافية التي نريد بها ان تخدم وتلبي احتياجات وأهداف العملية النضالية الشاقة لتثوير الواقع الاجتماعي العربي واعادة زمام الامور فيه الى الطبقات الكادحة لتحقيق طموحاتها في التحرر والاشتراكية والوحدة .

تمثلت الاستعادة التراثية ، بعد المحاولات الطويلة للاستلهام التراثي في قيام تكتل جماعي يجب ان يكون اليوم بحسب مقتضيات الحاجة الثورية متجانساً تجانسا كليا ، ويأتي ليحل معضلات الواقع العربي . لا ان يحل معضلة انية ، كما كانت تستدعي ضرورات الازمنة السابقة ، والتي تنتهي فيها التجمعات الثورية بانتهاء الظرف والموقف الذي استدعى قيامها لتتغلب العوامل الاجتماعية التقليدية من جديد والمسيطرة على الواقع العربي كالعشائرية والسلالية والقبلية . الخ .

يأتي الاستلهام هنا بموقف ايديولوجي واضح يقوم بربط الماضي بالحاضر للاستلهام من الماضي على حساب متطلبات المرحلة المعاصرة يمنيا وعربيا ، وفي العملية يتاح لنا التعرف على ما صنعه الاجداد ، فقد قاموا ، كما اتينا على ذلك سابقا ، بالتصدي لاحتلال اجنبي ، كان يعمل على تمزيق الارض والانسان .

لقد ولد الوجود الحبشي تناقضات دينية حادة عكست نفسها على واقع الحياة الاجتماعي فخلفت تيارات واتجاهات دينية مضادة

لبعض تولدت بينها احقاد وثارات • سياسية واجتماعية ، وتمزق الشعب اليمني بين اكثر من دين ، وفي اكثر من تكتل ولقد أدرك سيف هذه الحقائق ، ورأى في الوجود الاستعماري الحبشي عين الداء رأى ان القضاء على الافات المولودة يكمن في طرده من اليمن ، وتخليصها منه • وان لا سبيل الى ذلك الا تشكتل جماعة من الفئات الاجتماعية العليا حتى تستطيع الحركة ، ولديها من القدرة ما يمكنها من ذلك ان تقود الطبقات والفئات الاجتماعية الاخرى •

استطاع سيف ان يكتل جماعة ويضع نفسه فيها ليتزعمها ويقودها وكان قيامها ضرورة ملحة ، ولقد رأت وهي تتداول المشورة فيما بينها اهمية التنسيق والتعاون مع القبائل العربية في الجزيرة فارسلت وفدها الى قريش ثم الى الشام •

لقد تمكنت الجماعة ان تحدد عدوها القومي ، وحليفها الحقيقي في تلك المرحلة ،وناصبت الاول العداءواتجهت الىالاخر تطلب المعونةوتطالبه بالوقوف الى جانبها وفرضتبذلك نفسها على التاريخ كحركة وطنية مرهصة بوعيو طني انقذت اليمن ودفعت الاخطار معتمدة بالدرجة الاولى على قواها الذاتية ثم المساعدة الخارجية عنه وحمت الجزيرة ، وابقتها خارج الاسوار الحديدية للاحتلال الاجنبي • وغيرت مجرى التاريخ وبدلت سير الاحداث فاذا بالاسلام ينهض من الجزيرة العربية بعد ان وجد الظروف والاجواء مهيأة له ، واذا بصاحب الدعوة يكمل بها مشوار الحركة الوطنية اليمنية ليتمثلها ويضيف عليها من عبقريته الفذة •

لقد كانت حركة سيف الوطنية موضوع استلهام للاسلام لقرب عهدها ومكانها منه ، فاستطاع ان يستوعبها ويفيضها • فقد ولد الرسول في السنة التي انتصر فيها اليمنيون على الاحباش ، وفي السنة نفسها كان وفد قريش

بزعامة جد الرسول « عبدالمطلب بن هاشـــم » يصل اليمن ليقـــدم تهاني وتبريكات قريش والقبائل العربية ومن هنا كان الرسول صلة مباشرة باحداث اليمن واختزنها وجدانه منذ طفولته الاولى ، كما شكل سيف وجماعته القدوة والمثال له ولاصحابه فأكملت الحركة الثانية في قلب الجزيرة العربية بزعامة ورعاية قائدهـا النبي العربي محمـد بن عبدالله ما بدأته الحركـة الوطنيـة اليمنية تحت قيادة سيف بن ذي يزن • دحرت الاولى وجودا أجنبيا من جزء من الارض العربية فحققت لها التحرر والسيادة وصانت استقلال الاجـزاء المتحررة من الجزيرة ، فيما اكملت الثانية تحرير الاجزاء المستعمرة في أرض الرافدين وسوريا وفلسطين ومصر ثم المغرب العربي •

أن الحركة التي بدأت معركة التحـرر في الجزيرة جديرة اليوم بأن تكون موضوع استلهام ليس لليمنيين وحدهم بل للوطنيين والتقدميين العرب جميعا • كما كانت ملهمة للحركة العربية حين كان التتار والصليبيون في القرن الخامس السادس للهجرة يعيثون في الارض العربية فســادا • وحين تمزق الوطن العربي ايام المماليك في القرن الثامن بين الحركات الداخلية المنغلقة والاخطار الخارجية التي تحيط به من كل مكان ، وحاولت التيارات الشعبية المنتفضة ان تستلهم في سيف بن ذي يزن القدرة على التصدي والصـمود وتحتفظ بشخصيتها الوطنية في وجه التيارات القومية الشوفينية والاستعمار الشرقي والغربي وكافة الامراض الداخلية من سلالية وعرقية وشعوبية • ولذا كان سيف دائما ومنذ اربعة عشر قرن هو البطل المنقذ ولو في الاسطورة •

اننا حين نستلهم من الحركة صلابتها وتكتلها فلاننا نعيش واقعا يشبه في سماته العامة مرحلة ما قبل الاسلام المعروفة بالجاهلية • الوطن العربي مشرذم تتجاذبه اوضاع رجعية متخلفة تعيش في جاهليتها الاولى وتسربل ذاتها بأقنعة الدين والوطنية • يفرض كشفها واسقاط الزيف عنها بحركة عربية صلبة تستوعب العلائق الداخلية في الحركة اليزنية الوطنيـة لعلها تجد فيها وتكتشف عناصر القوة والقدرة على الحركة والمبادأة للتصدي على الصعيد العام

المخططات الامبريالية والصهيونية المختفية وراء الرجعية العربية والرجعيات المحلية ، وايقاف نزيف التمزق والتشرذم ، واعادة بناء الوطن العربي الواحد والقومـي •

أما الموضوعة الثانية التي نحن بصددها نستلهم منها مواقف محـددة لظروفنا الثورية المعاشة في اللحظة الراهنة لا تعني التبنـي للموقـف اياه بحرفيته ، وانما هي لاستلهام كيفية التصدي للتحديات والمؤامرات الداخلية والخارجية الهادفة الى تركيع الوطن وأذلال قواه الثورية • لسنا هنا بصدد الاستعانة بفارس ، ولا يعني الاستلهام التبني للموقف بحرفيته متجاوزين بذلك الاهمية المكانية والزمانية للحدث ، وانما يأتي الاستلهام من الحدث لموقف ثوري في شرطيه المكاني والزماني وما يدور فيهما من أحداث بين القوى المتحالفة والمتعادية في عصرنا الراهن •

ان الموقف الوطني الاختياري الطوعي الذي اتخذه سيف وجماعته هو موضوع أستلهامنا فقد سعى الى التحالف مع فارس ، ولم يكن ليغيب عن باله ما للدول الكبرى من مصالح ومطامع ، فحاول حملها على الوقوف الى جانبه ومساعدته بتقديم الاغراءات بعد ان صمد ، واجتاز المرحلة الاولى في الصد الذي أبداه كسرى فقد كان يدرك ان في هذا المكان سيولد او سيوأد طموحه الشخصي والوطني في استعادة عرش آبائه واجداده وتحرير ارضه وصيانة كيان الجزيرة العربية وكرامتها • كان الحاحه على طلب المساعدة قضية حيـاة او مـوت فقـدم تنـازلا شـفويا ، وأقـر بمـا كان متفقـا عليـه بين القبائل والدول الكبرى ، أقر دفـع الجزية والخـراج كعـرف معتـرف به ومتداول في تلك الازمان ، وواصل مسيرته مبحرا الى ارض الوطن ، وتم الانتصار على الاحباش وتوج ملكا ، وحين استقر فوق عرشه رفض الانصياع لرغبات ابناء الفرس ، ولم يكن على استعداد ليتلقى منهم الاوامر لقد أرادهم حلفاء لا آمرين ومتحكمين ، كان يعمل لابقاء الارادة اليمنية مستقلة ، ودفع حياته ثمنا لذلك فقد تآمر عليه « الابناء » • حين رأوا فيه العقبة الكؤود

التي تنتصب في طريقهم لتحول دون تحقيق رغباتهم ومطامعهم ٠

لقد فرضت عليه الظروف ، وكان يدرك جيدا ايجاد حليف قوي يسنده مقابل التحالف المضاد للحبشة وروما وبعد أن أدرك ان الشرط الذاتي للحركة بقي مشطورا ومجزوءا اثر الموقف المتردد والمتخاذل للقبائل العربية تجاه دعوة الحركة اليزنية ومناشدتها لهم بالوقوف الى جانبها ومؤازرتها في محنتها الوطنية ، وقد ولد ذاك الموقف السلبي التصور بتملية جوانب الضعف والعجز الذاتي للحركة عن طريق البحث وبالحاح عن شرط يوفر الحماية ، ومن ثم الحياة والاستمرارية واعتباره لذلك موضوعة حياة ووجود ٠ فتمت الاستعانة بفارس لتملأ الفراغ الذي خلفه غياب الشرط الذاتي ، ومدت الجسور معها للتحالف معا ضد الحكم الاستبدادي الحبشي في اليمن ، ومن يقف وراءه من الاقطاع في كل من الحبشة وروما ، ومن هنا أتت عروض سيف بن ذي يزن لكسرى أنوشروان للذهاب الى ارض اليمن معتمدا في ذلك على اسلوب الترغيب والاغراء كخطوة اولى لسحب فارس وانتزاع الموافقة منها للزج بثقلها السياسي والعسكري مع اليمنيين في صراعهم ضد الاحباش لاراضيهم ، ومن يقف وراء ذاك المحتل من قوى دولية كبرى ٠

ان هذا الادراك لاهمية الدعم الخارجي لتوفير افضل الضمانات للنجاح والنصر لقوى الحركة الوطنية اليزنية قد حدث عند قوى الثورة ، اثر المعاناة الطويلة وسلسلة الفشل الذي منيت به القوى القبلية المتمردة في الداخل على نظام الحكم الاستبدادي الفردي الابرهي كما تحكيه النقوش ، التي أتينا على ذكرها سابقا ، فقد حمل الفشل معه دروسا كثيرة استفادت منها الحركة اليزنية في عدم المواجهة لعدو قوي وشرس في أرض مكشوفة ، ومن دون تأمين الغطاء المطلوب للحماية ٠ وكانت فارس حينها هي ذاك الغطاء ٠

وعلى الرغم من وجود التشابه في ظروف الوطن العربي الممزق في تلك المرحلة ، والمرحلة الحالية ، وتحت الحاح الواقع الذي فرض التحالف مع

فارس انذاك ويفرض البحث اليوم عن حليف ، الا ان ذلك لا يعني النقل الحرفي للعملية ليفرض حليف الامس حليفا في اليوم . كما لا يعني وضع عدو الامس عدوا في اليوم ، وان معرفة العدو كما ان البحث عن حليف للحركة الثورية اليمنية والعربية المعاصرة تفترض معرفة الواقع المعاش ومعرفة خصائصه واكتشاف العلائق الداخلية التي تحكم حركته لتتسنى للحركة عملية التعامل معه .

ان معطيات وافرازات العلاقة بين الحركة الوطنية اليزنية وحليفتها فارس تحملنا ونحن نستلم منها مواقف محددة ، ان نضع امامنا اولا وقبل كل شيء خدمة القضية المعاصرة لجماهيرنا العربية وان نحسب الحسابات الدقيقة في الاخذ والعطاء مع الحليف الحقيقي للثورة العربية المعاصرة .

وتسير القضايا السياسية والفكرية هذه الايام نحو التدويل والعالمية وتترابط الامبريالية والصهيونية بعلائق داخلية وشيجة ، وترتبط معهم الرجعية وتأتي حركة التغيير والثورة في العالم ، لتحملها على ان تصبغ نفسها بصبغة عالمية وتتجاوب مع الاحداث في كل مكان لتشكل من نفسها ، وبوحي من قوى الامبريالية العالمية اداة قمع غليظة ضد الشعوب وقواها الثورية ، وتتحرك الرجعية العالمية لتسند ظهر الرجعية المحلية اينما احست بالضعف والانهيار تحت الضربات الموجهة اليها .

وفي مقابل هذا الترابط العضوي واللاشرعي بين الامبريالية والصهيونية من طرف ، والامبريالية والرجعية من الطرف الاخر ، وفي ظل تدويل القضايا السياسية ، في العالم ، ومن ثم تعليق حلها وربطه بالسياسة الدولية ككل ، تفرض هذه الظروف في المقابل الترابط العضوي والتلاحم النضالي بين قوى الثورة العربية العالمية .

ان قوى التحرر الوطني ، مطالبة اليوم في ظل عالمية الثورة المضادة ان توحد كفاحها وتلتحم مع قوى الثورة العالمية ، وضمن هذا الاطار العام ، وهذه العلاقة الواسعة تأتي ضرورة خلق الجديد الامل ليس

من العدم لانــه ليس نبتا شـيطانيا ، ولا هــو فيض احـلام رومانتيكيــة ، بل هو أرهاص هذا الواقع المجزأ ، يأخذ بعين الاعتبار التمزق بكل الوانــه وأشكاله القديمة والمستحدثة ويدخل في حساباته قضايا تدويل الصراع بين قوى الثورة والقوى المضادة لها ٠

ان سيف الامل ليس بطولة فردية ينتجعها الفكر المثالي الاســطوري بل هو اداة تغيير ثورية نأمل في خلقها وتنتظره من الثوريين والتقدميين في الساحة العربية يعمل على تفجير الصراع مع القوى الامبريالية مباشرة ليهز مصالحها في المنطقة العربية ٠

أن سيف الامل اداة تغيير ثورية تخلق في الساحة العربية ، كما خلق سيف البطل القومي ، وتضع نفسها في الاطار العام للثـورة العالمية فتقيـم علاقاتها معها انطلاقا من المصلحة القومية عـلى أساس الموقـف الموحد من القوى المضادة الموحدة ٠

ولا بد لهذه الاداة من حليف حقيقي لها تتبادل واياه المصالح القومية فيقف الى جانبها ويملأ نقاط الضعف ، ان وجدت ، قوة ليكسبها مناعة وقدرة على الصمود والتحدي ٠ وليسقط بذلك محاولات وضع القوى العالميـة الثورية والمضادة في نفس الكفة وعلى نفس الميزان ٠ ان من يقف معنا من الاصدقاء والحلفاء لا يساوي ، وان اجبنا بالجهر ، مع من يقف مع عدونا وضد مصالحنا ، بل ويعمل على نهب وسرقة خيراتنا بأســرع وقت وبأكبـر كميــة ٠

ان الامل الذي نسعى للوصول اليه انما هو مرشد عملنا الثـوري ، ومنظم حركة جماهيرنا العربية التواقة الى استعادة كرامتها الوطنية من بين مخالب ساحقيها من حكامها الرجعيين حلفاء اعدائها التاريخيين ٠

ان على دول الصمود والجبهة الشرقية الشمالية مسؤولية خلق الامل لتنتقل من مواقفها القومية العامة الى مرحلة ارقى يصبح للتصدي فيه معنى ٠ وحيث يخلق سيف الامل ينتهي سيف الاسطورة والخيال ٠

المراجـــع

ابو الحسن الهمدانـي

الاكليل ـ ج ٢ تحقيق القاضي محمد علي الاكوع سنة ١٩٦٣ ٠

ابن الاثـير

الكامـل ج ١ ٠

ابن خلـدون

العبر وديوان المبتدأ والخبر ـ القاهرة سنة ١٢٨٤ هـ ٠

ابو الفرج الاصـفهاني

الاغاني ج ٢ تحقيق ابراهيم الابياري دار الشعب سنة ١٩٧٠ ٠

ارنست كاسيرر

الدولة والاسطورة ، ترجمة احمد حمدي محمودي ٠ الهيئة المصرية للكتاب سنة ١٩٧٥ ٠

ارنولد توينبي

مختصر دراسة التاريخ ج ٢ الجامعة العربية سنة ٦٥ ٠

الفـة الادلبي

الاهداف القومية في سيرة حسين ، مقالة ٠

الحيمي الحسن بن أحمد

سيرة الحبشة ، دار العالم العربي ـ القاهرة ٠

بروكلمـــان

تاريخ الشعوب الاسلامية

تومس ، برترام

العربية السعيدة ، مطبعة جوناثان كيب ، لنـدن سنة ١٩٣٢ ٠

تومي ، باربـــرا

البحث عن ســبأ ، مطبعة جون مري ، لنــدن سنة ٦١ ٠

جرجي زيدان

تاريخ التمدن الاسلامي ــ دار الهلال ٠

جمالالدين ابن المحاسن الاتابكي

النجوم الزاهرة ، سلسلة تراثنا المؤسسة المصرية العامة ٠

د ٠ جــواد علــي

المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام

سير جيمس فريزر

الغصن الذهبي دراسة ــ ترجمة د ٠ احمد ابو زيد الهيئة المصرية العامة ٠

السير جون أ ٠ هامرتن

تاريخ العالم م ٤ ــ مكتبة النهضة العربية ٠

راشــد البراوي

الحبشة بين الاقطاع والعصر الحديث ــ مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٦١ ٠

حنــا خبــاز

جمهورية أفــلاطون ، دار القلم ــ بيروت ٠

د ٠ خليل احمد خليل

مضمون الاسطورة في الفكر العربي ــ بيروت سنة ١٩٧٣ ٠

سعدي يوسف

الميثالوجيا الاشورية ـ البابلية ، مقالة • الاقلام العراقية العدد ٢ سنة ٧٢ •

سيلاسي : سرجيو هبلي

تاريخ أثيوبيا والعصور الوسطى حتى سنة ١٢٧٠ م •

سيغموند فرويد

مستقبل وهم • بيروت سنة ١٩٧٣ •

شوقي الحكيم

اساطير وفلكلور العالم العربي منشورات روز اليوسف •

صمويل نوح كريمر

أساطير العالم القديم ـ ترجمة احمد عبد الحميد • الهيئة المصرية للكتاب سنة ٧٤ •

د • الظفاري

مقالة الحركات الشعبية في اليمن ، الثقافة الجديدة سنة ٩٧٤ عدن •

عبدالعزيز المقالح

رسالة الى سيف •

عبدالله فارع

مقالة مترجمة رسالة متبادلة بين ماركس وانجلز الحكمة عدد ١٧ سنة ١٩٧٢ •

عبده عثمان

مأرب يتكلم ، الدار الحديثة للطباعة والنشر ، تعز •

عمانوئيل كنت

نقد العقل المجرد • دار اليقظة العربية •

عمر ابو النصر

سيف بن ذي يزن الملك العربي السوبرمان دار الجيل بيروت •

عزيز حــداد

جلجامش حول شخصيته وعلاقة الاسطورة بالشعر • مقالة مترجمة الاقــلام العراقية ، العدد ١ سنة ١٩٧٢ •

غالــي شــكري

ادب المقاومــة ، طبعة بيروت •

د • لويس عوض

اسطورة اوريست والملاحم العربية ، دار الكاتب العربي سنة ٦٨ •

محمد رجب النجار

البطل في الملاحم العربية من رسالة دكتوراه جامعة القاهرة •

محمد عبده غانم

سيف بن ذي يزن ــ دار العلم للملايين ــ بيروت •

محمد محمود الزبيري

جزيرة واق الواق • دار العودة طبعة ثانية سنة ١٩٧٨ •

محمد سعيد القشــاط

الادب الشعبي في ليبيا ، دار العودة بيروت سنة ٧٧ •

د • مصطفى الجوزو

من الاساطير العربية والخرافات ، دار الطليعة بيروت سنة ٧٧ •

مهندس فتحــي غيــث

الاسلام والحبشة عبر التاريخ ، مكتبة النهضة المصرية •

الدكتــورة نبيلــة ابراهيم

قصصنا الشعبي من الرومانسية الى الواقعية بيروت سنة ٧٤ •

نشوان بن سعيد الحميري المتوفي سنة ٥٧٣هـ

ملوك حمير واقيال اليمن ، المطبعة السلفية سنة ١٩٦٥ •

ول ديورانـت

قصـة الحضارة ج ١١ الطبعة الثالثة ـ جامعـة الـدول العربيـة ـ سـنة ١٩٧٣ ٠

هـ ٠ ج ٠ ولـز

معالم تاريخ الانسانية م ٢ ـ الطبعة الثالثة ـ لجنة التأليف والنشر ـ سنة ١٩٦٩ ٠

ياقـوت الحمـوي

معجـم البـلدان ٠

الاب فؤاد جرجي بربـارة

الاسطورة اليونانية ـ مطابع وزارة الثقافة دمشق سنة ١٩٦٦

فؤاد حسنين علي

قصصنا الشعبي ٠ دار الفكر العربي سنة ١٩٧٤

فاروق خورشـيد

مقالة الحب بين الانس والجن ، الدوحة ٠

الدوريـات

مجلة الحكمة : عدن ـ عدد ١٧ ـ ١٩٧٢ ٠

الثقافة الجديدة ـ عدد ١٠ ـ ١٩٧٤ ٠

دراسات يمنية ـ صنعاء ـ عدد ١ ـ ١٩٧٨ ٠

المعرفة ـ دمشق ـ عدد ١٤٤ ـ ١٩٧٤ ٠

الاقلام العراقية ـ بغداد ـ عدد ١ ـ ١٩٧٢ ٠

الاقلام العراقية ـ بغـداد ـ عدد ٢ ـ ١٩٧٢ ٠

روايـات شـعبية

سيرة سيف بن ذي يزن ـ المطبعة السنية ٠

سيف بن ذي يزن الملك العربي السوبرمان ـ دار الجيل بيروت ٠

قصة فتوح اليمن الكبرى الشهير برأس الغول ـ مكتبة الجمهورية العربية ٠

قصة الزير سالم الكبير ـ مكتبة الجمهورية العربية ٠

●

المحتويـــات

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ـ بغداد
« ٣٤٠ لسنة ١٩٨٠ »

دار الحرية للطباعة ـ بغداد

١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م

دار الحرية للطباعة / بغداد
١٩٨٠

السعر ٣٠٠ فلس